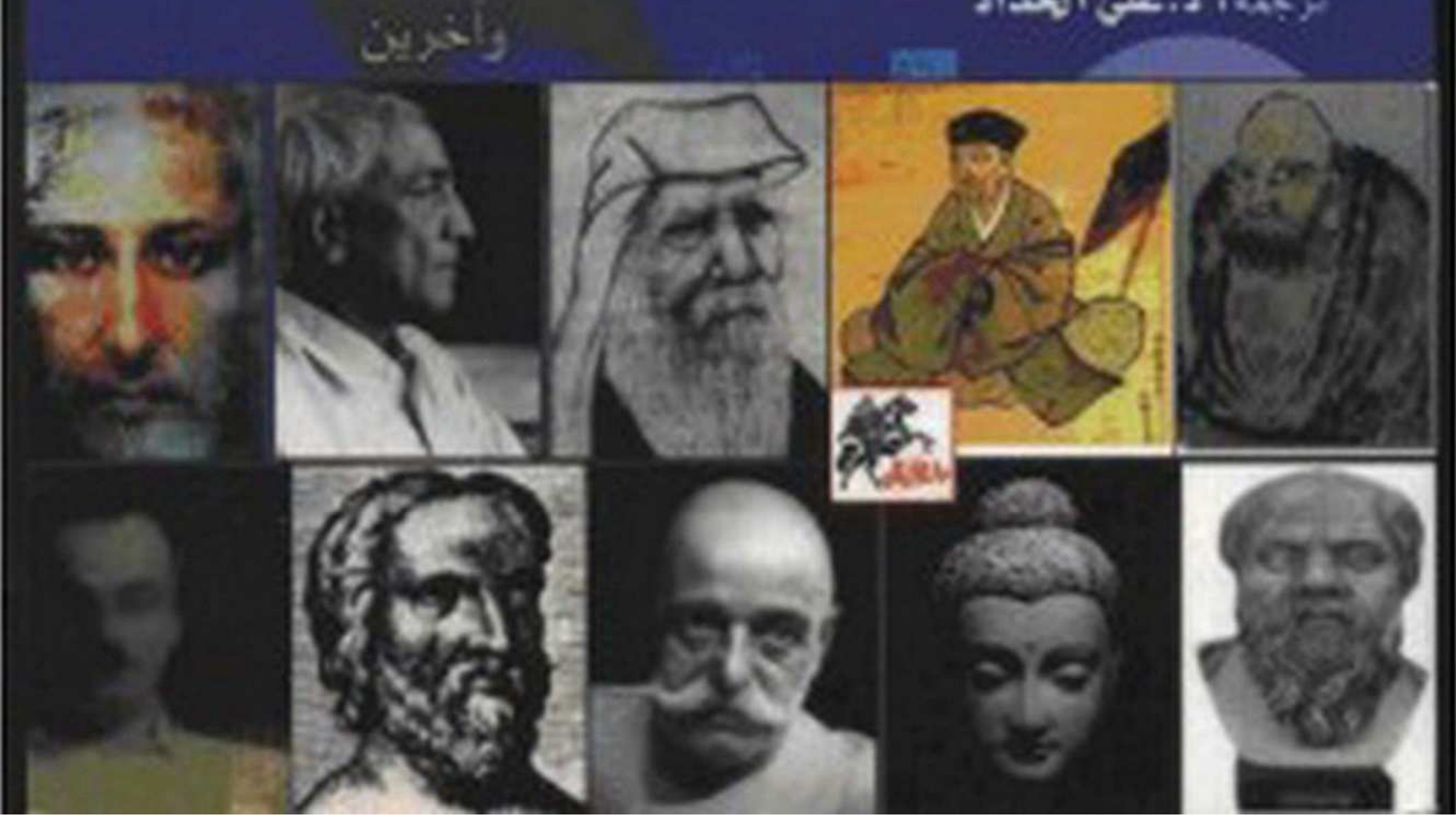
OSHO

أوشو

لقاءات مع أناس استثنائيين

السيد المسيح
بوذا
لاو تزو
رابعة العدوية
كردجيف
جبران خليل جبران
نيتشه
وآخرين

ترجمة: د. علي الحداد



لقاءات مع
أناس
استثنائيين

Meetings withe Remarkable people

لقاءات مع أناس استثنائيين

تأليف: أوشو

ترجمة: د. علي الحداد




بناية يعقوبيان بلوك ب طابق 3 ـ شارع الكويت
المنارة ـ بيروت ـ 2036 6308
لبنان ـ تلفاكس: 740110-00961
E-mail: alkhayal@inco.com.lb

الاخراج والتنفيذ دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة الأولى 2009

أوشو

لقاءات مع أناس استثنائيين

ترجمة : د. علي الحداد



المقدمة

منذ البدء، وعقولكم مشوشة، مبرمجة للوصول إلى نهايات معينة وأهداف محددة. تعلمتم الرياضيات، الجغرافيا، والتاريخ. وها، قد ثبّت أن التاريخ لا نفع منه. إذن، لماذا الإستمرار بالإهتمام به، وقراءة الكثير عن أولئك القدامى الأغبياء؟ ولأي هدف؟ لما لا ننسى كل هؤلاء الرجال، أمثال جنكيز خان Gengkis khan، تامبورلين Tamourlaine، نادر شاه Nader shah، الإسكندر Alexander ونابليون Napoleon؟ ماذا، قدم هؤلاء للبشرية وتطورها؟ إنهم أشبه بالسموم القاتلة... كل ما فعلوه، هو وَقْف تقدم الإنسانية وتطور البشرية.

لماذا لا نتساءل، أين هي أسماء: كلاو تزوKlao Tzu، وكو هسوان Ko Hsuan؟ لا نجد لها أثراً في كتب التاريخ ولا في حواشي الصفحات، في حين أنهم، هم القاعدة الأساسية للوعي الإنساني، لقد زرعوا الأمل في قلوب بني البشر؛ ورغم هذا، تتجاهلهم كتب التاريخ. ليس هذا وحسب، بل هناك مؤرخون، جعلوننا نتساءل عن حقيقة ولادة المسيح، والحقيقة التاريخية لكريشنا. جعلوننا نتساءل، هل الآلهة مهافيرا Mahavira، هي فعلاً آلهة، أم أنها من صنع أحلامنا وبنات خيالنا؟ وكذلك بالنسبة لبوذا، وأبرز مثال على هذا الشك، هو ما قاله سيغموند فرويد، عن أمثال هؤلاء الذين ذكرت. «إننا نرغب بوجود

هكذا أشخاص، لأنهم يشبعون رغباتنا، لكنهم لم يوجدوا فعلاً... وحتى لو كانوا وُجدوا فعلاً، فهم ليسوا كما قيل عنهم ولا كما وصفوا».

هذا القول سبّب خلافاً في الرأي، بين فرويد وتلميذه غوستاف يونغ. فرويد، كان رجلاً واقعياً عملياً، بينما تلميذه، كان ميالاً إلى الشاعرية، مهتماً بالأساطير والتراث الشعبي للأمم، أكثر من اهتمامه بما حوت كتب التاريخ. إنه محق... أساطير الأمم هي أقرب إلى الحقيقة، مما يُعتبر تاريخاً. لكننا نعلّم أولادنا التاريخ وليس الأساطير، نعلمهم الحساب، وليس الشعر. وإذا صادف وعلّمناهم الشعر، فنفعل ذلك بأسلوب ممل، مسيء للشعر، حتى إذا ما تخرج التلميذ من الجامعة، سرعان ما ينسى شكسبير وميلتون. حتى أن ذكر أسماء شعراء أمثال هذين، أو كاليداس. قد يتسبب له بالغثيان. لم يتعلم الشعر بأسلوب يُحببه به، لم يُعلم كيفية نظم الشعر، ولا أهميته في حياة بني البشر. لقد اتبعوا أسلوباً، يجعل الشعر مكروهاً وغير محبب. حتى أنا شخصياً، صرت أتغيب عن حضور صفوف الشعر، مما أضطر المدير إلى سؤالي عن سبب لهذا التغيب. وبكل بساطة أجبته «أفعل هذا، لأني لا أريد أن أفقد اهتمامي بالشعر، ولأني مدرك، كل الإدراك، أنكم، أنتم الأساتذة، لا تملكون حساً شعرياً، وحتى لم تعرفوا أهمية الشعر في حياتكم. حتى أستاذ مادة الشعر، الذي أشاركه رياضة الصباح، كل يوم، ما رأيته مرة، ينظر إلى الأشجار، أو يصغي إلى زقزقة العصافير، ولا يتأمل منظر شروق الشمس أو غروبها».

كانت الجامعة، محاطة بعدد من الهضاب، مما جعل منظر شروق الشمس رائعاً، وكذلك منظر غروبها. لقد جلت بلاد الهند كلها، فلم أرَ مشهداً لشروق الشمس، أجمل منه في جامعة سوجار saugar، لما

تتمتع به من موقعٍ يجعل، حتى الغيوم، تتلون بألف لون ولون... يجعلها، تعكس ألوان شروق الشمس وغروبها، لدرجة، «أن الأعمى يتحسسها ببصيرته» ويدرك ما لهذه الظاهرة من أهمية جمالية. لم أرَ أستاذ مادة الشعر ينظر إلى هذه المناظر ، لم يكن يتعب نفسه، بالنظر لغروب الشمس. لا بل كان حين يراني منسجماً برؤية هذا المنظر، أو أتطلع إلى الأشجار، وأصغي إلى زقزقة العصافير كان يسألني «لماذا لا تنفذ التمارين الرياضية المطلوبة منك، بدلاً من الجلوس هكذا؟ وكنت، أجيبه: «أكمل أنت تمارينك ودعني في لقائي الغرامي هذا».

حين تمطر. كان يبقى قابعاً في منزله، فأذهب إليه، أقرع بابه وأدعوه للمجيء معي، فيجيب «إنها تمطر» وكنت أقول «إنه أفضل وقت لممارسة رياضة المشي... فالشوارع خالية، وأن المشي تحت المطر، وبدون مظلة، أمر رائع وشاعري». فاعتبرني مجنوناً، لأنه لم يكن يدري، أن من لا يمشي بين الأشجار، وتحت المطر، لا يستطيع إدراك أهمية الشعر. ولهذا السبب، كنت أجيب على تساؤل المدير «إنه - أي الأستاذ - ليس شاعرياً، إنه يدمر رهافة الروح، إنه منهجي جداً، والشعر ظاهرة وجدانية غير منهجية، لذلك فهما، الأستاذ والشعر، أشبه بخطين مستقيمين لا يلتقيان.

إن أسلوب التعليم الجامعي، يقضي على اهتمامات الناس بذواتهم، وعلى حبهم للشعر، بجعل الحياة أشبه بسلعة. في الجامعة، يعلموننا، كيف نكسب الكثير من المال، لكنهم لا يعلموننا، كيف نتعمّق بذواتنا، ولا كيف نعيش كل لحظة حتى النهاية، لا يعلموننا كيف نصل إلى التاو Tao، حيث تنفتح لنا نوافذ وأبواب اللانهاية «المطلة على الشمس». في الجامعة يحدثونك عن المال وأهميته، وليس عن الزهور والورود، يحدثونك عن أهمية الوصول إلى مراكز سياسية أو إدارية رفيعة، رئيس

وزراء مثلاً، أو رئيس جمهورية، ولا يحدثونك عن أهمية أن تصبح شاعراً، رساماً، مغنياً أو راقصاً. رغم ما يعلموننا، وما يحدثوننا عنه، نخشى أن نخسر أنفسنا، فنحاول تغذية «الأنا» بألف، ألف وسيلة. إننا نغلق النوافذ والأبواب المطلة على الشمس والفجر والنجوم وعلى الريح والمطر والطيور والأشجار وعلى الحب والجمال وعلى كل ما يوصلنا إلى الحقيقة.

نغلق هذه النوافذ وتلك الأبواب، ونحفر لأنفسنا قبراً، لا أبواب له ولا نوافذ، وكأننا أصبحنا، وفقاً لفلسفة ليبنتز Leibnitz مجرد عنصر من عناصر الوجود الأولية. وهكذا نصبح نعيش ضمن دائرة مغلقة.

يقولون لك «تملّك المزيد والمزيد من المال، ليس هماً، إن كنت بحاجة إليه أم لا.. إنه الموضوع المطلق» ولكن، لماذا يحتاج الأغنياء إلى المزيد من المال؟ إنهم يمتلكون، أكثر مما هم قادرون على إنفاقه. رغم هذا يرغبون باكتساب المزيد، ليس بسبب الحاجة إلى المال، بل محاصرة «للأنا». يتنافسون بين بعضهم دون توقف. والتنافس يولد الصراع، والصراع لا يُبقي «الأنا» حية. التاريخ لا يعرف سوى النزاعات والصراعات، ولا يتحدث إلا عن صنّاع الحروب، والحمض، ولا يتحدث إلا عن الأحداث المؤلمة، إنهم مادته وموضوعه. في الجانب الآخر، حيث تتناغم الأشياء وتتناسق، يكون كل شيء مغايراً، لا تكون هناك حروب ولا صراعات ولا أحداث مؤلمة. وهذا ما يُعتبر خارج الزمن، أي خارج التاريخ.

نادراً، ما يذكر التاريخ المسيح، حتى أنه لا يذكره أبداً. ولولا الأناجيل، لما كان هناك ذكر ليسوع المسيح. هناك الكثير أمثال المسيح، ولكن لا نملك أي فكرة عنهم، فالتاريخ لم يذكرهم البتة؛ كانوا يعملون بصمت، يدعون إلى التناغم والتناسق مع أنفسهم، جاؤا إلى هذه الدنيا

وغادروها، دون أن يتركوا أثراً، لأنهم لم يكونوا من صناع الحروب والويلات.

لم يذكر التاريخ بوذا وأتباعه، أمثال مهافيرا mahavira وزورا توسترا .zora thustra إنهم أسماء خرافية، وليس واقعاً. وكأنهم وجدوا في أحلام الإنسان أو في قصائد شاعر رومانسي خيالي... لكنهم جاؤوا إلى هذه الدنيا، وعاشوا بشراً عاديين، ولهذا لم يذكرهم التاريخ، لقد اعتبروا، كأنهم لم يتركوا أثراً.

بـوذا

بوذا حالة فريدة من نوعها، ما عرف التاريخ مثيلاً لها، إنه جوهر ديانة، ما فكر يوماً بتأسيسها. حين بدأ نشر أفكاره، لم يدعُ الناس لاتباعه، بل أراد نشر الوعي بين الناس، وزرع النقاء في نفوس بني البشر. كثيرون غيره، إن قبله أو بعده، أسسوا ديانات، ودعوا الناس إليها، أما هو، فلم يفعل هذا، كل ما فعله هو محاولة قول الحقيقة.

كل ما فعله، هو أنه أزاح الغشاوة عن عيون البشر، فتح أبواب الوعي، وهذا ما لم يفعله أحد قبله. مؤسسوا الديانات توصلوا إلى تسوية مع شعوبهم، على عكس بوذا الذي لم يهتم بما يفهمه الناس، بل بالحقيقة، فنادى بها، دون خوف، ورغم إدراكه مدى صعوبة قولها. الحقيقة عند بوذا، هي إما بيضاء أو سوداء. يستحيل عليها أن تكون رمادية، ولا يجوز التساهل في التعامل معها، ومن غير المعقول أن تنزلها إلى مستوى التفكير البشري، بل، علينا رفع البشر إلى مستواها، فهي الأسمى والأرفع، وعلى البشر أن يرتقوا إليها. هذا هو فكر بوذا، هذا هو فكر بوذا الروحاني، غير القمعي، واللا مبني على الإيديولوجيا.

القمع لا يحرر الإنسان، بل يشلّ حركته ويستعبده. إنه الظلم والقهر. من هنا، إذا صادف، والتقيت براهب بوذي قمعي، فاعلم، أن هذا الراهب، بعيد كل البعد- وإن كان يرتدي ثوب الرهبنة البوذية - عن روح وجوهر أفكار بوذا، والإيدولوجيا هي فكرة نابعة من العقل،

لها أسسها ومبادؤها، ولا يمكن لأحد تخطي هذه الأسس أو تلك المبادئ، فالإيدولوجيا، إذن، ليست جسراً تعبر عليه إلى ما هو أبعد من العقل. أراد مؤسسو الديانات، وناشرو الإيدولوجيات، تحرير الإنسان، أو قل، هكذا قالوا. لكنهم كبلوه، جعلوه سجين أفكار معينة، يصعب عليه الخروج منها وعليها، ولو فعل، لأحس بألم نفسي وعذاب ذاتي، أو أصيب بانفصام الشخصية. وحده الوعي يمنع التمزق، وكيف عسى الفرد أن يكون سعيداً وممزقاً في آن؟

يعيش الإنسان الإيديولوجي، حالة صراع مع نفسه، حالة ضياع؛ لدية أسئلة كثيرة، ولكن أين هي الأجوبة على هذه التساؤلات؟ وفيما، لو كانت هذه الأجوبة في مكان ما، فهل هي مقنعة؟ إنها أجوبة أعدها الآخرون، وليس هو. إذن، ليس هو من يقرر، وهكذا ثقته بنفسه، وما نفع الإنسان، إن ربح العالم كله وخسر نفسه؟ فقدان الثقة في النفس، يعني الإستعداد للعبودية، فمن لا يثق بنفسه، عليه أن يثق بالآخرين، بمعنى، أن يرتضي ليكون عبداً لزعيم سياسي أو كاهن؛ أي أن يكون تابعاً لأحد ما. وهنا لا بد من التساؤل «لماذا يصبح الناس أتباعاً؟... لماذا يموتون من أجل بشر مثلهم، أمثال جوزف ستالين، أدولف هتلر، نابليون بونابرت، وغيرهم؟ لماذا؟ إنه السؤال الذي نبحث عن جواب له».

يموتون، لأنهم جُرّدوا من قناعاتهم، وباتوا أسرى معتقدات مكتسبة، لأنهم لم يعودوا قادرين على التصرف من دون معين، لأنهم أصبحوا يجهلون أهمية وجودهم. صار وجودهم مرتبطاً بوجود أناس آخرين يتمتعون بالقدرة على جذب الآخرين إليهم، وجعلهم مشلولي الإرادة... ومما لا شك، إن ما من عصر خلا من أمثال ستالين وهتلر ونابليون.

قد يقولون، هناك إيدولوجيا نبيلة الأهداف، وإن هناك نقيضاً لها. والحقيقة، أن الإيدولوجيا، هي الإيدولوجيا، بغض النظر عن أهدافها، والأهم، أنه، كلما كانت الإيدولوجيا، نبيلة الأهداف، كما يعتقد معتنقوها، كلما صارت أكثر خطورة، لأنها تتمتع بقوة الإغراء، وأكثر إقناعاً....

لم يتحدث بوذا عن الله وصفاته، لم يقل، إنه غفور ورحوم ومحب وقادر على كل شيء. كذلك لم يتحدث عن الجنة، أرادك أن تكتشف أنت ذاتك من يكون الله، وما هي الجنة. لم يفعل ذلك، حتى لا يسلبك إرادتك وحتى لا تخسر نفسك، وتفقد معنى الذات] الأنا.[لم يفعل ذلك، لأنه لم يشأ أن يزرع في رأسك فكرة]الأخذ.[

علموك أن تقول أخذت: أخذت قيلولة، أخذت بيتاً، أخذت زوجة؛ دون إدراك أن القول «اتخذت زوجاً أو زوجة» يعني عدم احترام من اتخذت. علموك القول «اتخذت سنّة من النوم»، النوم لا يؤخذ، ولا يعطى... أنت تنام، حين يغلبك النعاس، وتستسلم له.

«اتخذت فلانة زوجة». ومتى كانت الأنثى أشبه بالأموال، منقولة، كانت أم غير منقولة؟ يمكنك أن تأخذ عقاراً، إنما زوجة أو زوجاً، فلا... إن فعلاً كهذا، يعني دوساً على الكرامة الإنسانية، ولكن، ما العمل، إذا كانت هذه ثقافتنا؟ ثقافة الأخذ، وليس العطاء. وهذا ما أقلق بوذا، وجاءت ردة فعله تخلٍ عن كل شيء، إلا عن النفس، وهكذا وجود فراغ نقي طاهر وبريء؛ أسماه النير؟انا Nirvana؛ أو النقاء الداخلي الذي لن يكون، إلا بعد التخلي عن كل ما جمعناه من ماديات، فلا تثابر على ادخار المال... هذا الفراغ النقي، هو موجود أساساً، لكننا راكمنا فيه أشياء وأشياء حتى امتلأ فما عدنا نشعر به... تماماً كما يحدث في المنزل، حين نراكم فيه مفروشات وأجهزة كهربائية

أو إلكترونية، بحيث لا تعود الأماكن تُرى بوضوح، ويأتي يوم، يصبح التحرك، صعباً، لماذا؟ بسبب فقدان المساحة اللازمة للتحرك ضمنها... في الحقيقة، مساحة المنزل ما تزال هي ذاتها، لكننا اشترينا الكثير من المفروشات والتجهيزات، أثاث، مقاعد، ثلاجة، غسالة، بيانو، تلفزيون، إلخ وهكذا اختفت المساحة، ولن تعود إلا بعد التخلي عن تلك المفروشات والتجهيزات... فالمساحة هي ذاتها، لكننا نملؤها بأشياء وأشياء. فتبدو وكأنها لم تعد موجودة، هكذا هي نفوسنا. إنها فراغ لا حدود له، لكننا، عبأنا هذا الفراغ بأفكار ومعتقدات، تعلمناها من الآخرين، من الإيدولوجيات والديانات غير المبنية على أساس إسعاد النفس البشرية. نعم، هناك ديانات تزرع الخوف في النفوس ولا تعطي أملاً... فماذا فعل بوذا؟... علمنا، كيف نعيش بسعادة، كيف نصل إلى السعادة، وكيف نفعل ذلك، ونحن واعون لذواتنا؛ مدركون لأهمية قدسية النفس البشرية... بوذا ليس دنيوياً... ما كان دنيوياً، ولن يكون.

يحدثك الدنيويون عن العالم الآخر، ولكن ما هو هذا العالم الآخر؟... إنه لا يختلف كثيراً عن عالمنا... إنه نسخة متطورة عن العالم الذي نعيش فيه لا أكثر ولا أقل. وكيف لنا أن نتحدث عن عالم نجهله، لا نعرف شيئاً عنه... إنه عالم، لن يكون إلا من صنع خيالنا، لن يكون، إلا كما نحن نشتهيه أن يكون، لا كما هو في الواقع... إذن هو استمرار لعالمنا هذا، إنه لعبة خيالية من اختراع الآخرين، أرادونا أن نلعب بها. في العالم الآخر، نساء أكثر جمالاً وفتنة من النساء الموجودات على الأرض، وأكثر قدرة على إشباع الرغبات واللذة، حتى الطعام ألذ، والبيوت مصنوعة من الذهب... إنها الأشياء الدنيوية ذاتها، ولكن بنسخة محسنة ومزخرفة ومزينة، العالم الآخر هو ذاته العالم الدنيوي مع إضافة بعض اللمسات التجميلية، في العالم الآخر هذا، لا مكان للفقر، لا وجود للتعاسة، لا إحساس بالحزن، لا أمراض، لا شيء مما يسبب لنا

التعاسة هنا... إنه مكان تجد فيه كل ما تحب وتشتهي... إنه الإغراء للعمل بما يقولون أن نقوم به هنا، أي أنه استعباد فكري ونمط حياتي. يحدثونك عن الحرية، وهم يستعبدونك، فأنت لن تصل إلى العالم الآخر الذي صوروه لك، بملء إرادتك، بل إذا فعلت ما هو مطلوب منك.... لقد اخترعوا لك عالماً آخر، ورسموا لك طريقة، فأين أنت إذن؟ أنت من تكون وأي دور تلعبه؟ وكيف تكون قادراً على لعب أي دور، طالما أنهم عبأوا مساحة الفراغ الذهني عندك بأشياء وأشياء.

بوذا، لا يحدثك عن العالم الآخر، بل عن الإدراك والوعي، إنه يحث بني البشر على البقاء متنبهين يقظين، فلا يسمحون لأحد أن يلوث حياتهم، يدعوك بوذا إلى روحانية لها نكهة خاصة، نكهة اللا «عالم آخر» واللا «عالم دنيوي». يدعوك إلى روحانية أكثر يقظة، فترى وتسمع بشكل أوضح. تذكر، أنه بقدر ما تكون منسجماً مع نفسك، بقدر ما تكون واعياً، وأنه بقدر ما تكون مدركاً للحقيقة، بقدر ما تكون منسجماً مع نفسك وتصبح أكثر وعياً. الوعي يمنحك الوجود، واللاوعي يمحوه ويزيله. حين تكون ثملاً، تفقد وعيك، وهكذا تغفوا بسرعة، تجد نفسك مستسلماً للنوم؛ تشعر وكأنك غير موجود. بينما حين تكون واعياً، يكون بمقدورك مقاومة النعاس، مقاومة الإحساس بالخمول والوهن... لماذا؟ لأنك حين تكون واعياً، تشعر بوجودك. لذا فرسالة بوذا مبنية على الدعوة للوعي والإدراك. بالوعي تولد من جديد. تولد نقياً طاهراً، تولد من دون «الأنا»، تولد مستعداً لأن تكون حراً وليس عبداً. من هنا، يدعو بوذا، لقتل الشهوات والتخلي عن الغرائز، إلى «النيرفانا» حتى لا تكون عبداً لشهواتك وغرائزك.

كان، بإمكانه اختيار كلمة أكثر إغراء. لكنه لم يفعل حتى لا يجعلك عبداً لما يغريك فيه... كان بإمكانه استعمال كلمة «موكشا» moksha

وتعني الحرية والتحرر أو كايفاليا Kaivalya التي تعني الوحدة المطلقة، أو... أو أي من الكلمات المتوفرة في اللغة الهندية والتي تحمل معاني أكثر إيجابية، وتحدث صدى أعمق في النفس.

نيرفانا]إطفاء الشمعة- قتل الشهوات، قمع الرغبات[اختار بوذا النيرفانا، حتى يبقيك حراً في اختيارك، ولكن، أية علاقة بين هذا التعبير والتجربة الروحانية؟... يقول بوذا، إن ما نسميه النفس، ليس سوى لهيب نار الرغبات وحين تختفي الرغبات، تنطفيء نارها ويختفي اللهيب؛ دون أن يترك أثراً... اختفى إلى الأبد، ولا مجال لعودته ثانية... إنه ابن الرغبات، والرغبات اختفت، تحاشى بوذا استعمال الكلمات ذات الدلالات الإيجابية، فعل ذلك، لأنه يعرف الإنسان ويعرف ميله نحو الكلمات التي تشعره بالإطمئنان، أو تجعله يحس بأنانيته. ولهذا السبب كان الكثيرون يقولون له «النيرفانا، لا تنير فينا الحماسة، لا تخلق فينا رغبة الوصول إليها، على عكس غيرها من التعاليم والمبادئ. إنها تشدنا إليها، أما كلماتك فلا».

ودائماً، كان بوذا يجيب «هنا يكمن جمال كلمة نيرفانا» كل تلك الكلمات، تخلق فيكم رغبة ولا تساعدكم الوصول إليها، فالرغبة بحد ذاتها هي سبب تعاستكم، هي سبب عذابكم وشقائكم. نزوعكم لتحقيق رغباتكم، يجعلكم في توتر دائم، والنيرفانا تحرركم من هذا التوتر، لأنها لا تدعوكم للرغبة، بل إلى الإنصهار، إلى حيث لا وجود للأنا، إلى عالم أسمى وأنقى. حتى أن لها صوتاً عذباً، يزرع السكينة فيكم ويزيل توتركم. إنه صوت لم تألفوه من قبل، لكنه يبعث الصمت، ينمي الصفاء في داخلكم، وهذا ما يميز النيرفانا عن غيرها من الكلمات والتعابير... النيرفانا، توقف الزمن وتصهرك في عالم، لا أنقى منه ولا أطهر.

يوم ولد بوذا، استدعى والده، وكان ملكاً طاعناً في السن لم يرزق بالبنين من قبل، استدعى المنجمين لقراءة طالع الطفل المولود... احتار المنجمون ماذا يقولون لجلالة الملك؟ هل يقولون الحقيقة، أم يراوغون؟ لكنهم وجدو أنه لا بد من قول الحقيقة، فقالوا: «مولودك هذا، إما سيكون ملك العالم بأسره، أو متسولاً في الطرقات، وقليلون من يحسنون إليه».

وكيف يمكنكم حمايته من أن يصبح متسولاً؟ قال الملك، دون دراية منه أن هؤلاء، لا يمتلكون أي فكرة عن العقل والنفس، إنهم ملمون بأمور التنجيم... يا له من غباء، أن يظن المرء، أن النجوم تحدد مصيره، وترسم له قدره، فهي لا تعي حتى وجوده، لأنها غير قادرة على ذلك، فلا وعي لديها ولا إدراك، لكن المنجمين يستغلون غباء بني البشر، منذ زمن بعيد وهم يفعلون ذلك منذ بداية البشرية وهم يستغلون بني البشر، والأبشع، أن بني البشر يدفعون لهم مقابل استغلالهم. إنهم ينمّون الأنا، فيشعر المرء وكأنه محور الكون، أو نقطة ارتكازه.

وجاء جواب المنجمين «أبعده عن الناس في الطرقات، أحطه بالفتيات الجميلات، حتى لا يعرف إلا معنى الجمال.... لا تدعه يرى عجوزاً، لئلا يتساءل «أهذا هو مصير كل إنسان؟» لا تدعه يرى جثة ميت، بمعنى آخر لا تجعله يدرك حقيقة الحياة.... دعه يعيش في أرض الأحلام... وهكذا لا يعود يتخلى عن العالم الذي يعيشه».

واستحسن الملك قولهم، فبنى لابنه قصرين، واحداً، على رأس تلة خضراء للصيف، وآخر على منبسط يسوده الدفء للشتاء. ليس هذا وحسب، بل أمر كل العاملين في الحدائق والجنائن، ألا يجعلوا بوذا يرى وردة ذابلة أو ورقة يابسة... حتى لا يتعرف إلى إشارات الشيخوخة والموت... لقد نفذ كل ما طلبه المنجمون الأغبياء الذين غاب عن

بالهم، أن الحياة على وتيرة واحدة، لا تعود حياة، بل مللاً وضجراً، فلا يعود هناك فرق بين الأمس واليوم... ولا بين اليوم والغد، فيدخل السأم إلى حياته. ملّ بوذا من رؤية أجمل النساء اللواتي كن رهن إشارته ينفذن ما يريد، مهما كان الذي يريده، وملّ كذلك من رؤية الورود الدائمة التفتح، ومن رؤية الحدائق النضرة.

نفّذ الوالد، كل ما قاله المنجمون الذين غاب عن بالهم أن القدر، هو القدر، وأن ساعة ستأتي، تثبت بطلان نبوءاتهم وزيف ادعاءاتهم. لقد تحولت قصور بوذا، إلى ما يشبه القبور، لم يدرك المنجمون، ولا الملك، أنه يستحيل إخفاء الحقيقة، لأنها تعرف كيف تشق طريقها لتصل إلى حيث يجب أن تصل.

قبيل بلوغ التاسعة والعشرين، كان على بوذا افتتاح مهرجان، يدوم لأسابيع عدة، احتفاءً بقرب توليه كرسي المملكة مكان والده. خطط والده، ألا يرى ابنه، في طريقه إلى مكان الإحتفال، عجوزاً، أو ميتاً، أو زهرة ذابلة، أو أي شيء يجعله يتساءل عن حقيقة الحياة؛ لقد أراد دفن الحقيقة، دون إدراك منه، أنه يستحيل فعل هذا.

في الطريق إلى مكان المهرجان، رأى بوذا عجوزاً، منحني الكتفين، مقوس الظهر، ولولا العصا، لما تمكن من الخطو، ولو خطوة واحدة، كان هذا العجوز، أصم، فلم يسمع المنادي وهو ينادي بمنع التجول، فخرج كعادته كل يوم لشراء ما يقتات به.

رآه بوذا، فتساءل متعجباً «ما هذا؟.... لم يسبق لي، أن رأيت أحداً هكذا».

احتار سائق عربة الأمير، بماذا يجيب؟ أيكذب على سيده أم يقول الحقيقة؟ وأخيراً رأى أنه لا بد من قول الحقيقة فقال «رغم أوامر

والدك، فسأقول لك الحقيقة. إنه إنسان عجوز، ولقد منعوك من رؤية أمثاله».

ـ ولماذا هو هكذا؟ تساءل بوذا.

تنهد السائق وهو يقول: «إنها سُنّة الحياة يا سيدي فكل البشر، سيكبرون وسيصبحون عجزة».

ـ حتى أنا سأصبح مثله؟ تساءل بوذا.

ـ نعم حتى أنت يا سيدي. قال السائق وأضاف «لن أكذب عليك، أتمنى ألا يحصل لك هذا... لكنه قانون الحياة. نولد أطفالاً ونصبح شباباً، فرجالاً، وإذا تقدم العمر بنا، نصبح عجزة».

ومضى الموكب في طريقه... والتساؤلات تتكاثر في رأس الأمير، وإذا بموكب جنازة، فرأى بوذا أناساً يبكون، رأى دموعاً تتساقط من العيون، لم يسبق له أن رأى، ما يراه الآن.

ـ ولماذا هذا البكاء؟

من جديد تنهد السائق وهو يقول: «إنها مرحلة ما بعد الشيخوخة يا سيدي، منذ قليل رأيت الرجل العجوز الذي ينتظر الموت، والآن ترى الموت بحد ذاته».

ـ وهل سأموت أنا أيضاً؟

ـ كلنا سنموت، والدك صاحب الجلالة سيموت، وأنا سأموت، وأنت أيضاً... إنها الحقيقة التي لا تقبل ردعاً ولا حجباً... إنها الحياة، تبدأ بالولادة وتنتهي بالموت الذي لا مفرّ منه.

قال السائق هذا، وتابع يحث الخيول للإسراع في سيرها نحو مكان المهرجان، فإذابواحد من الباحثين عن حقيقة سر الوجود الذين تخلوا عن العالم، وراحوا يعلمون الناس، أن هذا العالم، ليس سوى أكذوبة،

وأن رغباتهم لن توصلهم إلى أي مكان آمن، وأن حياتهم مضيعة للوقت، فالموت آتٍ، إن عاجلاً أم آجلاً.

عاش بوذا تسعة وعشرين عاماً، وهو لا يعرف شيئاً عن حقيقة الوجود وجوهر الحياة، وهو لا يعرف أن هناك رجالاً يبحثون عما هو أبعد من الحياة، وعما هو أبعد من الموت.

ـ وهذا من يكون؟ ولماذا يرتدي هذه الثياب، لعمري ما رأيت واحداً مثله.

ـ أدرك هذا الرجل يا سيدي، إن الجمال سيتحول يوماً ما، إلى بشاعة، والشباب إلى شيخوخة، والحياة إلى موت. أدرك أنه ما من شيء باقٍ على حاله، كل شيء يتحول. لذا تخلى عن كل شيء وراح يبحث عن شيء واحد، عن الخلود الأبدي، عن شباب لا يتحول إلى شيخوخة، عن حياة لا تنتهي بالموت، عن شيء خالد مدى الدهور، لقد تخلى هذا الرجل، عن كل ما هو مادي، وراح يبحث عن حقيقة الروح، إنها الحقيقة يا سيدي، الأمير، الحقيقة التي حاول والدك إخفاءها عنك، وها أنا اليوم أخالف أوامره، وأطلعك على حقيقة الحياة... والحقيقة يا سيدي، لن تكون رمادية، فهي إما بيضاء أو سوداء...، لكنها، في الأغلب الأعمّ، سوداء.

ـ إستدر وعد من حيث أتينا... أمر بوذا سائقه... فلن أحضر مهرجان الشباب... ولماذا أفعل، طالما الشباب سيتحول إلى شيخوخة، وطالما الحياة تنتهي بالموت؟ لماذا هدرت تسعة وعشرين عاماً، عشت خلالها بالأحلام والأوهام؟ لماذا..؟ لن أكون أميراً بعد اليوم... فكل أمور هذه الدنيا، لم تعد تعني لي شيئاً... اليوم... أدركت أن هناك حقيقة... لذلك، سأتخلى عن كل شيء، وأذهب بحثاً عن هذه الحقيقة.

كذب المنجمون، ولو صدقوا... ها هي وصاياهم، تذهب سدى،

لم يدركوا أنه يستحيل حجب الحقيقة... وأنه، كان من الأفضل، أن يتركوا المولود يعرف كل شيء، ويتعلم كل شيء، حتى لا يصل إلى يوم، يكتشف فيه، أنه كان يعيش الوهم والخديعة، وأن كل ما كان حوله هو كذب بكذب.

واختفى بوذا، راح يبحث عن الحقيقة، في كل مكان، راح يسأل الحكماء عنها، وما من حكيم، تمكن من إرواء عطشه وإشباع فهمه. ست سنوات، وهو يتنقل من مكان إلى آخر، ومن معلم إلى معلم آخر، ست سنوات، سمع خلالها، الكثير من السخافات ومن الكلام اللامنطقي، قيل له، أن يصوم لستة أشهر، ففعل، و لم يتناول خلالها إلا القليل، القليل من الطعام، حتى هزل جسده ونحل، و لم يعد يقوى على النهوض من مكانه، أو السير على رجليه. فقبع في ركن، مغمض العينين وراح يفكر، واستمر كذلك حتى وصل مرحلة التأمل...

وذات يوم، كان يغتسل في نهر نيرانجانا Niranjana أحس بالوهن، فكاد يغرق... أحس أن الساعة دنت، وأن الموت يقترب منه.... إنه عاجز عن الحركة، إنه عاجز، حتى عن مساعدة نفسه، فمد يده، وأمسك بغصن شجرة، وبقي جامداً، لا رغبة منه، بل لعجزه، وراح يتساءل: «إذا كنت عاجزاً عن عبور نهر في فصل الصيف، أي بعد أن تحول هذا النهر إلى ما يشبه الجدول، فكيف يمكنني اجتياز محيط العالم الواسع والعميق؟ لا شك أنه أمر مستحيل».

حين خرج من الماء، جلس يستظل شجرة، تعرف اليوم بـ «شجرة بوذا» وبقي هكذا، حتى هبط الليل واكتمل القمر؛ فأدرك أنه عاجز عن تحقيق أي شيء، لقد فعل الكثير، ولكن ماذا جنى؟ لقد سئم عالم الرغبات والماديات، التي لا توصل إلى شيء، وإن أعطت شعوراً بالسعادة، فهو شعور مؤقت، سرعان ما يتلاشى، لقد اختبر الحياة، بكل

معانيها، وقلّبها على كل جوانبها، و لم يصل إلى شيء ثابت ودائم، فلم يعد أمامه «سوى الموت» هذا ما خطر على باله. لم يعد له ما يُنجز، فلا معنى للإنجاز، «كل رغبات البشر تفاهات وسخافات»... إذن، لماذا التعب والشقاء؟... لماذا التفكير بأشياء وأشياء؟ لماذا لا نريح عقولنا فلا نفكر بشيء؟».

أسند بوذا رأسه إلى جذع الشجرة، واستسلم للنوم. نام ملء جفنيه، وعندما استفاق صباحاً، شعر وكأنه نام لأول مرة في حياته. نام نوماً عميقاً، ما فكر بشيء، أراح تفكيره، وغفا، فالإنسان المجهد بالتفكير، يستمر في تفكيره، حتى وهو نائم، ومن يسعى وراء المال والرغبات، يستمر مفكراً بالمال والرغبات حتى في عز نومه... حتى أحلامه تتحول إلى مشاريع لكسب المال وتحقيق الرغبات... همومنا اليومية، في ساعات اليقظة، هي أحلامنا الليلية في ساعات النوم. حتى طلبة الجامعة، ينامون وهم يحلمون أنهم جالسون في قاعات الامتحانات... إنها الهموم تلاحقنا، إلى هنيهات الغفوة.

في تلك الليلة، نام بوذا... لم يحلم بشيء، لقد أراح تفكيره قبل أن يغمض عينيه «نمت للمرة الأولى في حياتي» هذا ما قاله حين استفاق وهو يرى اختفاء آخر نجمة فقال: «وأنا أيضاً، أختفي مع اختفاء تلك النجمة».

قبل بوذا، كان التأمل مجرد عادة تمارس مرة أو مرتين يومياً، لمدة ساعة في الصباح وأخرى في المساء. أما بوذا فأعطى صورة جديدة ومفهوماً جديداً لعملية التأمل. إذ قال: «هذا النوع من التأمل الذي تمارسونه ساعة في الصباح وأخرى في المساء لا أهمية له حتى إن مارستموه أربع أو خمس مرات في اليوم. فلا يمكن للتأمل أن يكون أمراً منفصلاً عن حياتكم، تكرّسون له مجرّد ربع ساعة أو ساعة. بل

يجب أن يصبح جزءاً لا يتجزأ من حياتكم اليومية تماماً كالتنفس. فلا يمكن أن تتنفسوا ساعة في الصباح وساعة في المساء وإلا فلن يأتي عليكم المساء! لهذا يجب أن يكون التأمل تماماً كالتنفس. فأنتم تتنفسون حتى في نومكم، وحتى إذا أصبتم بالغيبوبة سيبقى جهازكم التنفسي يعمل». لهذه الأسباب إذن، يقول بوذا إن على التأمل أن يصبح عادة نظامية متواصلة، وفقط في هذه الحالة يمكن أن يؤدي إلى إجراء تحولات جذرية في أنفسكم. كما أنشأ بوذا تقنيات جديدة للتأمل. وتجسدت الخدمة التي قدّمها للحضارة والفكر العالميين في فيباسانا (.((vipassana) وهي كلمة قديمة، أي باللغة التي كان يتكلم بها غوتاما بوذا.. كان يُعتبر بوذا أميراً مثقفاً جداً في تلك الفترة من الزمن، وبالرغم من أنه أتقن اللغة السنسكريتية Sanskrit وهي لغة الهند الأدبية القديمة، فلم يتكلم بها، لأنها تُعتبر لغة المثقفين وأبناء الطبقة العليا، لغة الكهنة وليست لغة الشعب. غير أنها لغة موسيقية جداً. وتعتبر تركيبتها الأفضل مقارنة بأية لغة أخرى، لأنها ممتازة، شاملة وكاملة. تتألف أبجديتها من اثنين وخمسين حرفاً، في حين تتألف الأبجدية الإنكليزية من ستة وعشرين فقط. وهذا يعني أن الأحرف الستة والعشرون الباقية ناقصة في اللغة الإنكليزية.

فاللغة السنسكريتية Sanskrit أغنى بمرتين من الإنكليزية لأنها تعبر عن إمكانية صوتية أكبر وأحرف أكثر، فلم تنسى صوتاً واحداً من كل الأبجديات.

وحتى أنها أخذت أدق الفواراق بعين الإعتبار، واحتوت على تلك التي تبدو صعبة اللفظ ونادرة الإستعمال. ولكن غوتاما بوذا قرر أن يتكلم بلغة الشعب، فاعتبر ذلك خطوة ثورية، لأن قواعد تلك اللغة غير صحيحة تماماً. فبمجرد تكلمها من قبل الناس العاديين الذين يغيّرون

أصواتهم ونبرتهم تصبح الكلمات أسهل بكثير ومن دون تعقيد. فاللغة البالية هي لغة البسطاء نوعاً ما. وكلمتهم الأساسية هي «فيباسانا» Vipassana، وتعني حرفياً «النظر» أما معناها المجازي فهو «الترقب والمشهادة».

اعتبر بوذا، التأمل مبنياً على المشاهدة، لأن رؤية الأشياء هي الأساس، هي الطريق للتعرف إليها. وحتى المشاهدة، جعلها على مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى

لم يكن بوذا، رجلاً خيالياً، بل مفكراً عملياً وواقعياً، لذا، رأى أن المشاهدة، تبدأ برؤية الجسد، أو التعرف إلى حركات الجسد، وهذا سهل جداً، سهل جداً أن أرى يدي تمسك قلماً أو أي شيء آخر. كذلك سهل جداً أن أرى أقدامي تلاحق الواحدة الأخرى، وأنا أمشي في الشارع، إذن المرحلة الأولى من الفيباسانا، هي مرحلة مراقبة حركات الجسد، إنها عملية سهلة جداً، لا تعقيد فيها، كل ما عليك هو مراقبة أي حركة من حركات جسدك، شرط أن تفعل ذلك بوعي وصمت.

كان بوذا لا يسرع الخطى، فسُئِل لماذا يفعل هذا؟ لماذا يمشي ببطء؟ فأجاب: «أفعل هذا، لأنه جزء من تأملي، لا تسرعوا الخطى، حتى لا تزل بكم القدم. إني أسير ببطء ولكن بوعي كامل لما قد يصادفني على الطريق من عقبات».

المرحلة الثانية

بعد أن تسهل عليك مراقبة حركات جسدك لن يصعب عليك مراقبة أفكارك. الأفكار، عند بوذا، هي موجات إلكترونية، إشعاعية رقيقة ودقيقة، لكنها، في الوقت ذاته، مادية، كالجسد تماماً، نعم إنها كالهواء

غير مرئية، لكن حتى الهواء مادي، فهو مثله مثل الصخور والحجارة، هكذا هي أفكاركم، مادية غير مرئية. المطلوب منكم، عدم إصدار الأحكام على أفكاركم، وإلا تكونون كمن تخلى عن المراقبة وراح يصدر الأحكام دون الإستناد إلى أسس ثابتة، الأمر الذي يفسد تأملكم، ويمنعكم من البقاء منعزلين عما هو حولكم. كل ما عليكم هو مراقبة أفكاركم، دون التفكير في التقييم أو التقدير، دون الإهتمام إن كانت حياتية أم لا.

أفكاركم هي كالغيوم في السماء، فلا يمكنكم القول، تلك غيمة سوداء، تمثل الحقد والشر، وتلك غيمة بيضاء، تمثل الحب والحكمة والعقل، فالغيوم، هي الغيوم، وكذلك الأفكار، هي موجات جد دقيقة، تعبر ذهنك، فلا تحاول الحكم عليها، إن سلباً أو إيجاباً... وكلما، تمكنت أن تكون مراقباً لأفكارك، لا حكماً عليها، كلما تمكنت من الإستغراق في التأمل. ساعتئذٍ تصبح كالمرآة. المرآة لا تصدر أحكاماً، فإن نظرت امرأة قبيحة إلى المرآة، فليست المرآة هي التي تقول لها «إنك قبيحة الوجه»، ولا إن نظرت امرأة جميلة إلى نفسها في المرآة، ستخبرها هذه الأخيرة، أنها جذابة ومثيرة... المرآة تعكس الصورة، ولا تصدر أحكاماً عليها. هكذا هي المراقبة الحقة، المراقبة النقية، نقاء المرآة. ومتى تمكنتم أن تصبحوا مرآة أفكاركم، تكونون قد حققتم إنجازاً عظيماً، تكونون تعرفتم إلى سر التأمل، ومغزى هذا السر الذي يمكّنكم من الإنتقال إلى المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة

مرحلة مراقبة المشاعر والأحاسيس والمزاج، مرحلة الإنتقال من مراقبة الأفكار إلى مراقبة القلب، وبالشروط ذاتها: لا تقييم، ولا إصدار أحكام. فحين تشعرون بالحزن، يكون الحزن يتملككم، وكذلك حين

تشعرون بالغضب، فلا تتساءل عن سبب للحزن أو للغضب. ولا تحاول التعرف إلى أي مدى أنت حزين، أو ألى أي درجة من درجات الغضب وصلت. الحزن يأتي ويختفي وكذلك الفرح... فحاول أن تراقب مشاعرك وأحاسيسك. كن مراقباً فقط، وهكذا تتمكن من السيطرة على تلك المشاعر والأحاسيس، فلا تعود عبداً لها، تدفعك إلى فعل ما تأمرك به، فيصبح، أي كان، قادراً على إزعاجك، أو التأثير على أحاسيسك ومشاعرك، وعلى مزاجك، فتغضب كردة فعل، أو تحزن كردة فعل. ومتى توصلت إلى التمكن من مراقبة الجسد والفكر والقلب، تكون تحضر نفسك لتلقي هدية الوجود «تحقيق الذات أو التنور الأبدي». إنها قفزة نوعية، قفزة تلقائية، لا يد لكم فيها، إنها اكتشاف حقيقة الوجود والنشوة التي لا توصف، النشوة التي هي أشبه بخيال محاطٍ بالظلال كل هذا، بفضل المراقبة والترقب.

ذات يوم صيف حار، كان بوذا، رغم بلوغه سن الشيخوخة، ما يزال يتنقل من قرية إلى أخرى. أحسّ بوذا بالعطش الشديد فطلب من تلميذه أناندا Ananda، أن يقصد نهراً على بعد ميلين ليأتيه بالماء. لم يشأ التلميذ، عدم تلبية رغبة معلمه، فقصد النهر، ولكن ما إن وصله حتى رأى عربتي خيل تعبرانه، فيتعكر ماؤه، وتطفو أوراق الشجر العفنة على سطحه، فعاد إلى بوذا وأخبره، وعرض أن يقصد نهراً آخر، على بعد أربعة أميال، لكن بوذا ألح عليه أن يعود إلى ذات النهر وأن يجلب الماء منه «لقد هدرت الوقت ياأناندا، كان عليك إحضار الماء».

ـ لكن الماء موحلة وعكرة، وعلى سطحها، تطفو أوراق الشجر العفنة، فكيف لي أن أحضرها لك؟

ـ إذهب واحضرها... قال بوذا.

لم يجد التلميذ بدأً من تلبية أمر معلمه، فعاد، ولكن سرعان ما

أصيب بالإندهاش. المياه تتدفق صافية، ولا أوحال فيها ولا أوساخ، ولا ورق شجر متعفناً. لقد عادت المياه نقية. فملأ الوعاء، وعاد مسرعاً إلى معلمه الذي سأله «هل استوعبت معنى الرسالة يا أناندا؟»».

ـ نعم يا سيدي... استوعبت معناها... كنت أحمق، حاولت تنقية مياه النهر، فكانت تزداد توحلاً، كان علي الإنتظار، كان علي الترقب، كان علي أن أترك الأمور تجري كما هو مخطط لها. وفهمت أيضاً أن هذا النهر هو أشبه بجدول أفكاري، أفكاري العفنة الميتة، كلما حاولت القضاء عليها، كلما طفت على السطح، وجعلتني حزيناً حيناً أو متشائماً حيناً آخر، الأمر الذي يمنعني من الوصول إلى مرحلة «حالة اللافكر» كما تقول يا معلمي. أما الآن، فقد تأكد لي، أنه كان علي البقاء قرب النهر أراقب ما يجري دون أي تدخل».

ابتسم بوذا وقال «إذن، ما عليك بعد الآن، إلا أن تتعلّم كيف تكون مشاهداً مراقباً حيادياً، حتى ولو كان الذي جرى في النهر، كان يجري في عقلك. وعليك اعتبار أن هذا لا يعنيك، حتى ولو كانت الأفكار تشوش عقلك وتقلق ذهنك. أنت لست أكثر من مراقب، وإلا ستكون طرفاً، وهكذا تصبح جزءاً من الصراع».

فلسفة البقاء على الحياد، أسماها بوذا «ماجهيم نيكايا» Mojhim Nikaya.

حتى حين تشعر بالألم في رأسك، ما عليك إلا تقبّل هذا الألم... كل ما عليك فعله، هو أن تغمض عينيك وتسترخي، كذلك حين تشعر بالسعادة، تقبّل هذا الشعور، كما تتقبّل وجود السماء والغيوم والقمر والشمس. تذكر، أن كل صباحٍ تشرق الشمس، تبعث نورها ليضيء الأرض، ويزرع الدفء في الطبيعةً وفي أجساد بني البشر. وعند المساء، تغرب، فيحلّ الظلام وتتلألأ النجوم، ويختال القمر في كبد السماء،

ومن ثم تعود الشمس وتشرق من جديد، وكلما أشرقت تدرك أنها ستغرب، وليس بمقدورك فعل شيء وليس بمقدورك منع شروقها أو غروبها... أنت مجرد مراقب، مجرد شاهد لا حول له ولا قوة... هكذا حين تشعر بالألم، قف مراقباً، واعلم أنه كما جاء سيزول، سيزول عاجلاً أم آجلاً، وكذلك حين تشعر بالسعادة، إعلم أن الحزن مختبيء في مكان ما، ينتظر الفرصة ليطل برأسه، شئت هذا أم أبيت، فإن استطعت، أن تبقى مراقباً حيادياً، سترَ الكون على حقيقته المجردة... لأول مرة ستراه حقيقة مجردة...

يستحيل على المرء رؤية الكون على حقيقته، وهو في حركة دائمة. المرء أشبه بآلة التصوير، وإن صوّرتم شيئاً، وأنتم تتحركون فستكون الصورة مشوشة غير واضحة. هكذا هو الوعي، لن يرى الحقيقة المجردة، إلا إذا كان مراقباً ثابتاً. الإنحياز إلى هذا أو ذاك يحول دون مراقبتك الأشياء كما يجب، يجعلك متحركاً والحركة لا تسمح لك بالتركيز، فتعجز عن معرفة الحقيقة الناصعة، الحقيقة النقية، عدم حيادك يحول دون تصرفك بحرية، والحرية هي أساس مبدأ بوذا، فلا حقيقة بلا حرية، ولا حرية إلا إذا كنت مراقباً حيادياً.

هنا تكمن رسالته الأساسية ومعانيها. فلم يرفع أحد معنى الحرية من قبل كما فعل بوذا. فهي القيمة الأعلى في رؤيته والخير الأسمى. ولا شيء أسمى أو أعلى منها. من الضروري أن نفهم لماذا يشدد بوذا على مبدأ الحرية لهذه الدرجة. فلا يشدد على الألوهة ولا على الجنة ولا على الحب؛ بل على الحرية وحدها. ويكمن سبب ذلك في أن كل ما له قيمة لا يصبح ممكناً إلا بوجود الحرية. فالحب يحتاج إلى الحرية لكي ينمو، وكل ما ينمو باسم الحب من دون حرية ليس سوى شهوة. لا وجود لله من دون حرية، فمن تعتبرونه الله ليس سوى مخيلتكم، خوفكم

وطمعكم. وما من جنة من دون حرية فالجنة هي الحرية، وإذا اعتقدتم عكس ذلك، فلا قيمة لتلك الجنة ولا حقيقة لها. إنها في أحلامكم وخيالكم. وإذا أردتم أن تفهموا بوذا، عليكم تذوق ولو شيئاً بسيطاً من تلك الحرية التي يتكلم عنها. وتجدر الإشارة إلى أن تلك الحرية ليست خارجية ولا اجتماعية ولا سياسية أو اقتصادية بل هي روحانية، وأنها حالة من الوعي لا تعيقها أو تربطها أي رغبة، ولا يحبسها أي طمع ولا أية شهوة. إنه يعني الوعي من دون فكر، أي حالة «اللافكر» والفراغ التام. وطالما فهم الناس كلمة «فراغ» بشكل خاطىء على أن لها دلالة سلبية ولكنها ليست كذلك في لغة بوذا، فالفراغ أمر إيجابي للغاية، حتى أنه أكثر إيجابية مما تسمونه «كمالاً»، ذلك لأن الفراغ مليء بالحرية، فقد أزيل منها كل شيء وأصبحت واسعة وفسيحة من دون أي حدود. ولا يمكن أن نجد الحرية إلا في فسحة لا حدود لها. وليس فراغ بوذا فراغاً عادياً ولا يتجسد فقط بغياب شيء ما بل هو حضور لشيء خفي. فعلى سبيل المثال، عندما تُفرِغ غرفتك، تفرغها من الأثاث واللوحات وكل الأغراض، لتصبح الغرفة فارغة من ناحية واحدة ولكن من الناحية الثانية يبدأ شيء خفيّ يملؤها، فتشعر وكأن الغرفة أصبحت أكبر، وكلما أزلتم أشياء كلما اسعت الغرفة أكثر فأكثر. وعندما تزيلون كل شيء حتى الجدران، تصبح الغرفة واسعة بوسع السماء.

هذه هي إذاً عملية التأمل، التي تكمن في إزالة كل شيء وحتى إزالة نفسك حتى لا يبقى شيء حولك. وستجد الحرية داخل ذلك الصمت المطلق، وتنمو آلاف الأزهار الحرّة في ذلك السكون المطلق. وسينتشر عبير السلام والرحمة والحب والنعيم.

اعتبر تشديد غوتاما بوذا على الرحمة، ظاهرة جديدة من نوعها،

فهو قد بنى جسراً يربط بين الماضي والمستقبل. فكان التأمل من قبله أمراً كافياً ولم يشدد أحداً من المتأملين سابقاً على أهمية جمع الرحمة والتأمل معاً. ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن التأمل يجلب التنوّر، والإزدهار الذاتي والشعور بالوجود. فما الذي تحتاج إليه أكثر ؟ ولكن عظمة بوذا كانت بإدخاله الرحمة حتى قبل البدء بالتأمل؛ فعليك أن تصبح أكثر حباً ولطفاً ورحمة. وهناك علم يختبيء وراء كل ذلك، فقبل أن يصبح الإنسان متنوراً، إذا كان قلبه مليئاً بالرحمة، هناك احتمال أن يستطيع بعد مرحلة التأمل، مساعدة الآخرين على الوصول إلى السمو نفسه، أي الإحتفال نفسه الذي توصّل إليه. فالبنسبة إلى بوذا، التنور أمر معدٍ يمكن انتشاره بسرعة. والأمر الذي ميّز التنور عند بوذا وأحدث تغييراً جذرياً، هو أنه جعله غير أناني وجعل منه مسؤولية اجتماعية. ولكن من الضروري تعلّم الرحمة قبل التنور وإلا فلن يبقى أي شيء نتعلمه بعد التنور. فعندما يصل الإنسان إلى النشوة الداخلية، يشعر أن الرحمة تحرمه من فرحه الذاتي وتزعجه.

ولهذا السبب نلاحظ وجود عدد كبير جداً من المتنورين من جهة، وعدد ضئيل جداً من المعلّمين من جهة أخرى. فكونك متنوراً لا يعني أبداً أن تصبح معلّماً. كمعلّم عليك أن تتمتع برحمة هائلة وأن تشعر بالحاجة للذهاب داخل تلك المساحات الجميلة التي يتيحها التنور. فترغب بمساعدة الناس الذين يعيشون بظلمة وعمى، يبحثون عن طريقهم، فتصبح مساعدتهم متعة وليس إزعاجاً.

وتشعر بابتهاج أكبر عندما ترى الناس تزهّر من حولك، فلست بشجرة وحيدة أزهرت، في غابة لا تزهر فيها الأشجار. فعندما تزهّر الغابة بكاملها معك، تصبح سعادتك أكبر بألف مرة؛ فقد استعملت تنورك لإحداث ثورة في العالم. ولم يكن غوتاما بوذا متنوراً فحسب، بل

متنوراً ثورياً، وكان اهتمامه بالكون والناس عظيماً. وعلّم تلاميذه أنه عندما نتأمل ونشعر بالصمت والصفاء، نحسّ فرحاً عميقاً يتحرك ويفور في داخلنا، لا يجب أن نتمسك بذلك الشعور بل علينا تحويله للعالم أجمع. ولا تقلقوا بشأن ذلك، لأنه كلما أعطيتم، كلما أصبحتم أكثر قدرة على تلقيه. فلفعل العطاء أهمية عظيمة، خصوصاً عندما تدرك أنه لا يأخذ منك شيئاً؛ بل على العكس، يضاعف تجاربك وخبراتك. والإنسان الذي لم يختبر الرحمة في حياته يجهل سر العطاء وسر المشاركة. وقال مرة أحد تلاميذ بوذا، وكان علمانياً، ولكن مخلصاً جداً له: «سأفعل ذلك... لكن باستثناء واحد. فأريد أن أعطي كل فرحي، وكل تأملي وكل ثروتي للعالم بكامله إلا الجاري فذلك الرجل بغيض جدا». فقال له بوذا: «إذن إنسَ العالم ولا تعطِ إلا جارك هذا».

تعجب التلميذ لقول معلمه فسأله «ما الذي تقوله يا معلمي؟».

ـ إنه ما سمعت. قال بوذا. عندما تصبح راغباً بإعطاء جارك البغيض هذا، تكون، قد تحررت من عدائك للبشرية، فالعطاء عمل الحر. واعلم أنه عليك تقبل الناس كما هم، ولا تتوقع منهم أن يتصرفوا كآلهة، إنهم بشر وليسوا آلهة، ومن نظرت إليهم، على أنهم آلهة، سيفقدون احترامك، وهكذا يصبحون بلا كرامة. وهذا منافٍ لمبدأ الرحمة. الرحمة تعني جعل كل إنسان يتمتع بكرامته، وبحريته على.

إنه قول إنسان متنور، يجسد الكلمة، فتبدأ بالتنفس. وتمتلك قلباً ينبض، وهذا لن يكون إلا عبر معلم متنور تثق به، وهو يثق بنفسه.

اعتبر غوتاما، حدثاً تاريخياً غير مجرى الوعي البشري، جعل من الرحمة فكرة الوجود الأساسية. ولكن عليك أن تعلم، أنك إذا أصبحت رحوماً، فهذا لا يعني أنك أصبحت أعلى مرتبة من غيرك، أو أكثر أهمية، وإلا تصبح مغروراً، رحمتك الآخرين، لا تعني إذلالاً

للآخرين، فالرحمة هي الحب، والحب عطاء دون مقابل، فإن كنت رحوماً، مع الناس، مع الأشجار، مع العصافير وحتى مع الحيوانات، فلا تنتظر شيئاً بالمقابل.

دعوني أروي لكم القصة التالية:

عاد زوج يوماً، قبيل موعد عودته إلى بيته، فوجد زوجته مستلقية عارية على السرير، تعجب، فسألها «لماذا أنت هكذا؟» وجاء جوابها «احتجاجاً لعدم اهتمامك بي، فلماذا، لا تجلب لي ثياباً جديدة؟» أسرع الزوج وفتح الخزانة وهو يقلب فساتين زوجته وهو يقول «هذا رداء أحمر وهذا أصفر... وهذا... وهذا، وهذا هو صديقك، وتابع وهذا رداء آخر... هذه هي الرحمة، فلم يسألها عن سبب وجود صديقها في الخزانة، بل ألقى التحية عليه... فقال الزوج: «لا داع للإعتذار، إنه يوم كغيره من الأيام». فعندما يتزوج المرء يصبح جاهزاً لأي نوع من الحوادث فالحادث الأكبر حصل بزواجه وأصبح لا يهمه شيء بعد الآن. فالرجل الرحوم لا يجب أن تزعجه أمور الحياة التافهة التي تحصل في كل لحظة. فأنتم هكذا بطريقة غير مباشرة تساعدون طاقة الرحمة عندكم على التراكم والتبلور كي تصبح أقوى وتتابع ارتفاعها مع تأملكم. وهكذا يصل اليوم المبارك عندما تشعر أنك مليء بالنور وسيكون برفقتك رفيق واحد على الأقل: الرحمة. وسيتغير فوراً نمط حياتك لأنك أصبحت تملك الكثير كي تبارك العالم بأسره.

آخر كلمات غوتاما بوذا كانت: «كن نوراً لنفسك، ولا تتبع الآخرين. لا تقلّد أحداً لأن التقليد والتبعية يولّدان الغباء. لقد وُلدت مع إمكانية ذكاء خارقة، وُلدت مع نورٍ في داخلك فاصغِ لصوت الصمت والسكون، ذلك الصوت الداخلي سيقودك. ولا يمكن لأحد آخر أن يوجّهك ولا أن يصبح مثلك الأعلى لأنك فريد واستثنائي، لم ولن

يُخلق إنسان مثلك تماماً وهنا يكمن مجدك وعظمتك؛ بأنه من المستحيل استبدالك وبأنك نفسك ولست شخصاً آخر. فالإنسان الذي يتبع الآخرين يصبح زائفاً ومسيّراً. فبإمكانه أن يكون قديساً بنظر الآخرين ولكنه في العمق ليس سوى غبي تافه. كما يمكن أن يتمتع بشخصية محترمة، لكن ذلك سطحي وخارجي. انفضه قليلاً وستفاجأ أنه شخص مختلف كلياً من الداخل، تماماً على عكس ما هو عليه من الخارج.

إن اتباع الآخرين يمكنكمن تكوين وتهذيب شخصية جميلة، ولكن لا يمكنك الحصول على وعي جميل. لذلك ستكون دائماً مقيّداً ولن تصل إلى الحرية. فتتابع الانتقال من سجنٍ إلى آخر ومن عبودية إلى أخرى وعليك الإنتباه إلى كل أنواع التبعية حيث يمكن أن تكون من أتباع الديانة الهندوسية أو الإسلامية أو المسيحية أو اليانيّة، وكلها لن تساعدك، فأن تكون يانياً يعني أن تتبع «ماهافيرا Mahavira)(كمثل لك. وبهذه التبعيّة يصبح كيانك زائفاً وستخسر كل الحقيقة والصدق وتكون كاذباً حتى بالنسبة إلى نفسك. ستصبح اصطناعياً، ومتكلّفاً، ما يعني أنك ستسلك طريق الأغبياء والمجانين.

يعرّف بوذا الحكمة بالعيش في نور الوعي الذاتي، والجنون باتباع الآخرين وتقليدهم، أي بأن نصبح طيفاً لشخص آخر. فالمعلم الحقيقي يخلق معلمين حقيقيين آخرين وليس أتباعاً، فهو يردّك إلى ذاتك. ويبذل جهده لأن يجعلك مستقلاً عنه، لأنك أمضيت قروناً تتبع الآخرين ولم يوصلك ذلك إلى أي مكان. ولا تزال تتعثر في ظلام الروح الحالك، وحده نورك الفطري قادرٌ على جعل الشمس تشرق من جديد في حياتك. أما المعلم المزيف فيسعى لإقناعك بأنك تتبعه وتقلّده وألا تكون سوى نسخة طبق الأصل عنه.

على عكس المعلم الحقيقي الذي لن يسمح لك أن تكون نسخة، بل

يريدك أن تكون الأصل. إنه يحبك! فكيف عساه أن يجعلك مقلداً، زائفاً؟ إنه يملك الرحمة ويريدك أن تكون حراً حتى أبعد الحدود، حراً من كل تبعية وكل إتكالية. لكن الإنسان العادي يرفض الحرية ولا يريد أن يكون حراً بل يريد الإتكال على أحدهم دائماً ويحتاج لشخصٍ آخر ليتبعه. لماذا؟ لأنه، بكل بساطة يستطيع بهذه الطريقة أن يرمي المسؤولية على عاتق شخصٍ آخر. وكلما حمّلت الآخرين المسؤولية، كلما تضاءلت إمكانية ذكائك. تحمّل المسؤولية هو الذي يخلق الحكمة. فعلى الإنسان أن يتقبّل الحياة بكل مشاكلها، ويجب أن يخوضها من دون تحصّن، وأن يبحث عن طريقه بنفسه. فالحياة فرصة للبحث عن أنفسنا وإيجادها. ولكن الغبي لا يرغب بالذهاب في الطريق الصعب فيختار الطريق المختصر. ويقول لنفسه، «لماذا أتعب نفسي بما أن بوذا قد وصل؟ سوف أراقب تصرفاته وأفعل مثلما فعل. لماذا عليّ أن أبحث وأفتش بما أن يسوع قد وصل؟ فبإمكاني أن أصبح طيفاً له وأتبعه أينما يذهب».

ولكن كيف لك أن تصبح ذكياً وأنت تتبع الآخرين؟ فأنت لا تعطي ذكاءك الفرصة لكي يظهر وينفجر. فالذكاء يحتاج لحياة مليئة بالتحدي ليظهر للعيان ويرتفع ويسمو، حياةٍ مليئة بالمغامرة، حياة تعرف معنى المخاطرة وخوض المجهول. وحده الذكاء قادر على إنقاذكم وتوجيهكم، فيغدو وعيكم الذاتي «النيرفانا» الخاصة بكم.

إذاً كونوا نوراً لأنفسكم فتصبحون حكماء؛ أو إجعلوا من الآخرين قوّاداً لكم، مرشدين وموجهين فتبقون أغبياء إلى الأبد، وستمضون حياتكم تهدرون كل ما في الدنيا من ثروات، تلك الثروات التي هي في الأساس، ملك لكم.

إن الحياة رحلة طويلة رائعة الجمال، ولكن جمالها حصريّ للمستعدين للبحث والتفتيش.

تشيونو

أفنت الراهبة تشيونو ردحاً من الزمن وهي تحاول الوصول إلى مرحلة التنور، دون أن تتمكن من ذلك. وذات ليلة من الليالي الصافية، كانت تحمل دلو ماء، وتتأمل صورة القمر المنعكسة على ما فيه من ماء، باندهاش كانت تتأمل، وفجأة، انكسرت قبضة الدلو، فوقع أرضاً وتناثرت ماؤه، واختفت صورة القمر، بقي القمر في السماء، لكن انعكاس صورته اختفى.

فكتبت تقول:

بشتى الطرق والوسائل

حاولت أن أبقي الدلو متماسكاً

كنت آمل، ألا تنكسر قبضته الخشبية

كان منظر القمر رائعاً

لكن القبضة انكسرت... والدلو وقع.

تناثرت المياه... وما عاد القمر موجوداً

وبقيت وحدي...

وحدي لا شيء بيديّ.

هكذا هو التنور، لا يُستحضر، بل يأتي من تلقاء نفسه، وحده يأتي،

إنما عليكم أن تكونوا مستعدين لاستقباله ولتقبله في نفوسكم، ليس عليكم، السعي لاستحضاره، بل أن تكونوا قادرين على التعرف إليه، ساعة يأتي، ولا أحد يعرف متى يأتي إنه موجود في كل مكان، وفي كل زمان، لكنكم، لن تبلغوه، ما لم تكونوا مستعدين لذلك. حتى التنفس، هو جزء من التنور، إنما الصعوبة، تكمن في إدراكه.

إن الله موجود، في كل مكان، في الماضي والحاضر، وفي الأزمان الآتية، لكننا لا نراه، لأننا ليس لنا عيون تبصر، نحن نرى ولا نبصر... وحدها الصلوات والتأملات، قادرة على مساعدتنا لنصبح مبصرين، ومتى نصبح هكذا، سوف نتفاجأ أن التنور لطالما كان موجوداً معنا وفينا، كان يرافقنا في حلنا وترحالنا، صبحاً ومساءً وعند الظهيرة أيضاً، لكن «الأنا» كانت تمنعنا عن الإحساس به، تحول دون استقباله؛ كانت تملأ حياتنا، فلم يكن هناك متسع له، وإذا ما قررنا البقاء أسرى الأنا، فهذا يعني البقاء غارقين في الجهل والغباء والظلمة. نعم في الظلام الأسود الذي هو «ليل الروح الحالك».

الظلمة، وليدة الإحساس بالوحدة، والوحدة هي الفصل بيني وبين وجودي، هكذا أصبح وحيداً خائفاً من الموت، ولا أمتلك سلاحاً لمقاومته. الوحدة تعني الذعر والخوف، والحقيقة، أننا نحن من يخلق هذه الأحاسيس، نخلقها حين نفكر بالإنفصال عن الوجود ومتى تدرك أننا جزء لا يتجزأ من هذا العالم، وأنه يستحيل الفصل بيننا وبين الوجود، عندها تختفي المخاوف والهواجس، فلا يعود هناك ذعر أو خوف أو موت... وهكذا تحتفل الروح بتحررها من الظلمة الحالكة؛ وتتعرف إلى النور الصافي النقي.

وهكذا أيضاً نتساءل: ما هو التنور الذي سعت إليه شيونو؟ الجواب بسيط جداً. إنه القدرة على التعرف إلى أنفسنا، وعلى

حقيقتنا بكل تجرد، إنه القدرة على التخلص من «الأنا»، لماذا؟ لأننا نحن من اخترعنا «الأنا» وأقنعنا أنفسنا بها، فعلنا ذلك، رغم أن «الأنا» من صنع خيالنا لا أكثر ولا أقل.. فالتنور والأنا نقيضان لا يتواجدان معاً. لذلك، كلما وعى الإنسان حقيقة وجوده. وكلما تمكن من النظر إلى داخله، يتبين له، أن لا وجود للأنا، وحين يصل المرء إلى مرحلة اكتمال الوعي، تتلاشى الأنا عنده، وتختفي كما اختفت صورة القمر التي كانت منعكسة على سطح الماء في الدلو، بعدما تناثرت ماؤه.

لهذا، عجزت شيونو من إيجاد التنور، رغم أنها أمضت سنيناً طويلة تسعى إليه، من خلال التأمل وتقنياته. صعب جداً استحضار التنور، لأنك إن استطعت استحضاره، فهذا يعني أنه موجود بالقرب منه وفي متناول يدك، وهكذا يصبح زينة للأنا، فتقوى بدل أن تختفي.

ليس بمقدورك فعل شيء للحصول على التنور، على العكس، كل ما عليك هو انتظار حلوله فيك، بعد أن تكون قد استعديت لاستقباله، بعد أن تكون قد أوجدت له مكاناً فسيحاً في حياتك، وهذا لن يكون إلا بعد اختفاء الأنا. لأنك كلما حصلت على المعرفة والعلم كلما أصبحت أكثر غروراً وأنانية. وكلما مارست تقنيات الزهد والتنسك، كلما ارتفع ذلك الشعور بالأنانية وأصبح «الأنا» مسيطراً أكثر فأكثر: «أنا أفعل ذلك وذاك، وقد تعلّمت وأنجزت الكثير؛ صمتُ فترات طويلة ومارست تقنيات عديدة». وكلما بذلت جهداً، كلما شعرت أنك تستحق التنور أكثر وأنك تملك الحق بالمطالبة به. ولكن يجب أن تعلم أنه لا يمكن المطالبة بالتنور وأن من يتغيه عليه الإختفاء تماماً ليفسح له المكان للمجيء. كما على الفكر

أن يصمت لاستيعاب وجود الله؛ يمكنكم إطلاق أي اسم ترغبون به عليه، التنور أم الله، الأمر سيّان.

سبق وذكرنا أن «تشيونو» درست سنيناً طويلة، ولكنها عجزت عن إيجاد التنور، ذلك لأن التنور ليس بشيء يمكن أن تجدوه بالبحث عنه، فهو يأتي إليكم عندما تفشل كل الأبحاث. ولكن انتبهوا، أنا لم أقل إنه ليس عليكم أن تبحثوا لأنكم إن لم تبحثوا لن تتوصلوا إلى الإستنتاج أن ما من جدوى للبحث. كما أنني لا أقول لا تتأملوا، فمن دون أن تتأملوا لن تكتشفوا أن هناك نوعاً من التأمل لا تستطيعون ممارسته، لأنه يأتيكم بمفرده. فتأملاتكم ستفتح لكم المجال للرؤية بوضوح، وستجعلكم أكثر إدراكاً، فيصبح قلبكم أكثر تيقظاً ووعياً وحباً وحساسية. وستبدأ برؤية أمور لم ترها من قبل أبداً، وتكتشف مساحات جديدة في داخلك. إذاً تأملاتك تشبه الإستحمام، تعطيك الإنتعاش، لكن الإنتعاش ليس تنوراً، إنه فقط يحضّر الطريق، فأنت لن تصل أبداً إلى التنور بل التنور هو الذي سيصل إليك.

مهّدْ الطريق للرب لكي يصل إليك. فأنت لا تستطيع أن تجده، فلا يسعك سوى انتظاره متحلياً بثقة عميقة فيجدك هو ويصل إليك. وهنا يكمن خطأ «تشيونو»: فكانت تمضي وقتها تبحث وتفتش بالتزام جديّ. لكن هذا الإلتزام سيغذي «الأنا» ويجعلك «باحثاً مميزاً»، «روحانياً، متديناً، مباركاً». وحين تشعر أنك أصبحت مقدساً، تكون قد خسرت نفسك إلى الأبد، ومتى بدأت تشعر أنك أعظم من الآخرين، وأنك قديس طاهر وهم خطأة مدنسون، ومتى بدأت تتباهى بقداستك تكون، قد بدأت تسلك طريق الضياع، فالأنا الصالحة، هي ذاته الأنا غير الصالحة. الأنا هي الأنا، وسيكون صعباً عليك التخلص من قيودها، لأنك تكون كمن كبلت يداه بقيود من ذهب وألماس، إنها

أشبه بالحلي والجواهر، لكنها قيود وإن لم تكن قيوداً حديدية. ما من أحد إلا ويسعى للخروج من فندق قذر، ولكن ما من أحد يتمنى الخروج من فندق خمسة نجوم. هكذا هي الأنا الصالحة، إنها قيود من ذهب وألماس، إنها فندق خمسة نجوم.

هل تعلم يا صديقي، أن الخطأة أقرب إلى الله من القديسين؟... نعم إنهم كذلك لأنهم يتوقون للتخلص من استعباد الخطيئة لهم... أما القديسون فيتباهون بإذلالهم للأنا ليس أكثر. لأنهم يعتبرون أنفسهم أكثر نقاءً من غيرهم؛ وهكذا عادت «الأنا» لتطفو على سطح الماء، وإن بشكل مجمّل وحزين.

كانت تشيونو صبية، رائعة الجمال، حتى أن جمالها كان سبباً في رفض ترهبها، خاف الكهنة على النساك من جمالها، فطلبوا إليها تشويه ذاك الجمال، واستجابت تشيونو لطلبهم هذا وكأنها تقولك: «أنظروا لقد فعلت، ما لم يسبق لغيري أن فعله، تجردت من جسدي، شوهت جمالي. فعلت كل هذا بحثاً عن التنور» لكنها رغم كل ما فعلته لم تتمكن من الوصول إلى التنور، ولا هو أتى إليها ليحل بها. التنور لا يُستحضر، بل يحضر من تلقاء نفسه، دون أن تعرف كيف أو متى؛ كل ما علينا، هو أن نكون مستعدين لاستقباله مهيئين له المكان اللائق به.

في تلك الليلة، ليلة تناثر المياه، أدركت تشيونو، أن كل محاولاتها السابقة قد فشلت، فوصلت إلى مرحلة اليأس، دون دراية منها، أن اليأس هو الخطوة الأولى على طريق الأمل. اليأس يعني تحطيم «الأنا» نهائياً... الأنا لن ينكسر، إلا إذا وقع من أعلى القمة...

تذكروا دائماً، أن التنور قد يحلّ في الذين توقفوا عن السعي إليه والبحث عنه، هناك من يقول «لا بد لمن يبحث إلا أن يجد

مبتغاه...» هذا نصف الحقيقة، لأن هناك من يقول «إذا كنا عاجزين عن إيجاد الله من خلال البحث عنه، فلماذا نتعب أنفسنا إذن؟ ما الحل الأنسب إذن؟... إنه في استعدادنا لمعرفة الله، في استعدادنا لتقبل الله، فالله يحضر تلقائياً ولا يستحضر. ولا أحد يعرف، متى يحضر، ولا كيف. وهذا ما حصل مع تشيونوا التي أمضت سنيناً تبحث عن التنور، فإذ به يأتيها فجأة دون سابق إنذار. وهذا ما حصل مع بوذا أيضاً.

جبران خليل جبران

إنه الموسيقى النقية، الموسيقى التي تزرع الأمل في نفوس اليائسين، والبسمة على شفاه الحزانى... إنه لغز، يصعب حله.

منذ البدء، عرفت البشرية رجالات عظاماً، لكنها لم تعرف واحداً متميزاً كجبران؛ حتى أنني أستطيع القول، إن المستقبل لن يعرف رجلاً مثله، رجلاً يمتلك بصيرة جبران التي كسرت خوف المجهول، لقد تمكن جبران من إدخال تعابير إلهية إلى اللغة البشرية، وأحيا الوعي، كما لم يفعل إنسان من قبل. في جبران اجتمعت نقاوة أرواح جميع المتصوفين والشعراء والملهمين والمتنورين.

ما من أحد، تمكن كجبران، من دخول قلوب الناس وعقولهم في آن، وما أدعى يوماً أنه توصل إلى التقاط الحقيقة الكاملة، بل يمكن القول إنه تلمس الطريق الصحيح، المؤدي إلى الحقيقة. إنه طريق طويل وطويل، لا يسلكه إلا الشعراء والمتنورون.

«قوة جبران انبثقت من خزان روحانيته الواسع» هذا ما قاله كلود براغدون Claude Bragdon، وأضاف «لذا تمكن من التميز بتلك اللغة الراقية التي خاطب الناس بها».

تأثر براغدون، بأسلوب جبران ولغته، تأثر بكل كلمة كتبها جبران وقرأها هو... فأحس أن شيئاً ما، يتخطى العقل، يميّز جبران عن غيره،

كان جبران خليل جبران، شاعراً عظيماً، قد لا يكون الأعظم بين الشعراء، لم يكن في يوم من الأيام متصوفاً. هناك فرق كبير بين الشاعر والمتصوف. قد يشعر الشاعر - أحياناً - أنه متصوف، أو شبه متصوف، لكن هذا لا يعني أنه أصبح متصوفاً.

يخلّد الشعراء اللحظات الحياتية التي تمر كنسمة ريح، لا تدرك، بالكلمات، ولكن ليس بأي كلمات، يخلدونها بكلمات تدخل القلب، تأسر المشاعر، تخطف الأحاسيس، يخلدون تلك اللحظات التي تمر في حياة كل إنسان، تلك اللحظات التي هي هدية الوجود، أو بالأحرى، التي هي الإحساس بالنور يضيء كل مساحات حياتنا. أو كالدم الذي يجري في العروق، أو الهواء الذي نتنفس.

قد يتمكن الشاعر، من أن يكون متصوفاً أحياناً، كذلك، قد يتمكن المتصوف، من أن يكون شاعراً، أحياناً أخرى، ولكن السؤال الأهم متى يتمكن كل منهما أن يكون الآخر؟... فإذا كان الشاعر، لا يستطيع الحصول إلا على بعض الومضات التي تساعده على إبداع الجمال والشعر، وعلى إعطاء الكلمات التي يستعملونها حياة وحركية وإحساساً، فلماذا، إذن، لا يستطيع المتصوفون، وهم الذين يعايشون الإبداع ليل نهار، من قول الشعر؟ ولا ننسى أن هناك فارقاً كبيراً بين ما يقوله الأنبياء كبوذا والمسيح، وبين ما يقوله الشعراء كجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة.

إنه اللغز المحيّر. من لا يحظى إلا بالقليل من لحظات الإبداع، ينتج الكثير، أما من يتمتع بالوعي الكامل، ويعيش الإبداع حتى في لحظات نومه، لا يستطيع إعطاء الكثير. غير أن لكل لغزٍ حلاً وتفسيراً.

إذا وجد فقير كنزاً فسيغني ويفرح ويرقص، أما إذا وجد ثري هذا الكنز، فلن يحرك ساكناً، لأن لديه الكثير الكثير من الذهب والألماس

والحجازة الكريمة. هكذا هو الشاعر الذي يحظى ببرهة من الإبداع، فسيستفيد منها، ويستغل ما أهداه الوجود، على عكس المتصوف الذي يعيش الإبداع كل لحظات حياته، لدرجة إنه بات يغني الصمت، ويكتب السكينة. من هنا يختلف التواصل مع الرسام، عنه، مع المتصوف، الرسام الحقيقي يذوب في لوحاته، ويتوحد معها، والشاعر الحقيقي ينصهر داخل قصائده.

كتب جبران ثلاثين كتاباً، ولكن كتابه النبي كان الأبرز والأكثر تميّزاً. كتب بعده الكثير لكنه لم يتوصل في أي كتاب للجمال والصدق والحقيقة، كما في النبي، ترجم النبي إلى جميع لغات العالم، وما يزال، حتى اليوم، الكتاب الأكثر مبيعاً، ويكمن جماله في أنك لن تلحظ فيه، أي وجود إلا لجبران، كثيرون يعتبرون كتاب النبي - وأنا واحد منهم - أكثر قداسة من أي كتاب مقدس آخر أو مما تسمونه «كتباً مقدسة».

استبدل جبران اسمه باسم «المصطفى»، ومن خلال المصطفى هذا، أعطى المعنى الحقيقي والعميق للتصوف، والغريب، أن نبي جبران لم يبشر بديانة معينة، بل بشر بالدين بشكل عام. تكلم جبران باسم المصطفى، لسبب جوهري، هو أنه لم يُرد أن يدعو لدين جديد، فكم من الجرائم اقترفت باسم الدين، وكم أريقت دماء غزيرة. باسم الدين قتل ملايين الناس أو أحرقوا، فالدين، حين يتحول إلى منظمة، يتحول إلى خطر على الحياة، وعلى كل ما له قيمة في الحياة، وعندئذ، لا يعود درباً توصل إلى الله، بل سبباً في اندلاع الحروب.

لهذه الأسباب، قرر جبران، أن يستبدل نفسه بالمصطفى، حتى لا يؤلهه الناس فيعبدونه. وبدلاً من أن يقول ما يريد قوله مباشرة، خلق المصطفى وقال عنه كل ما جاء في النبي الذي لم يصنف كتاباً دينياً، مع أنه أكثر الكتب قداسة.

خلق جبران المصطفى كتابه بالخيالية، وهنا كمنت عظمة جبران. فإن قرأت جميع كتب العالم دون استثناء لن تجد كلمة، تدخل قلبك دونما استئذان، وتستوطن فيه، ككلمات جبران في كتابه النبي.

يسوع المسيح

منذ مجيء المسيح، حتى اليوم، وهناك سؤال يطرح بإلحاح: من هو يسوع المسيح؟

سؤال لم يكن، ولن يكون، يوماً ما، في محله، وكذلك الإجابة عليه، ذلك لأن الذين يطرحون هذا السؤال، هم المشككون بألوهية المسيح، والمجيبون عليه، هم المؤمنون بألوهيته. اليهود لا يعتبرونه إلهاً، على عكس المسيحيين، الذين لا يعتبرونه إنساناً عادياً. ليس هو بشري بل إله.

ويبقى السؤال مطروحاً، من هو يسوع المسيح؟

ليس بمقدور أحد إقناع المسيحيين أنه ابن إنسان، أي كغيره من أبناء البشر، وليس بمقدور أحد إقناع اليهود على أنه إله، إنه سر لا يدرك إلا بالنقاء وصفاء الذهن، وبالتالي إنه ليس جسداً مكوناً من دم ولحم وعظام وحسب.

ما من أحد، إن من المؤمنين بألوهيته، أو غير المؤمنين بها، يرغب بتقبل المسيح كما هو... وهذا ماحصل مع غيره من المتنورين الداعين للمحبة والرحمة والسلام بين بني البشر أمثال بوذا وكريشنا والكثير غيرهما.

يقول السيد المسيح «أنا ابن الإنسان» على حسب ما ورد في

الأناجيل الأربعة، وكذلك يقول «أنا ابن الله». قد يعتبر البعض أنه يناقض نفسه بنفسه، فهو إما يكون ابن الإنسان أو ابن الله. لكن الحقيقة، لا تناقض بين هذين القولين، إلا في أذهاننا وعقولنا، لأن يسوع المسيح هو جسر العبور من الموت إلى الحياة، من الفناء إلى الخلود. من الجسد إلى الروح، إنه الطريق إلى الحياة اللامنتهية، والتعرف إلى حقيقة وجود الإنسان.

إذن، من هو يسوع المسيح؛ أهو إله أم إنسان؟ سؤال طالما تكرر طرحه، وطالما أجيب عليه. والحقيقة أنه، مثل الرد عليه، لا يستند إلى مستند مسوغ منطقي وعقلاني، بل انطلاقاً من أفكار مسبقة، لماذا؟...

لأن الإجابة عليه تختلف، باختلاف إيمان ومعتقد المجيب، بالنسبة لليهود، هو إنسان عادي جداً، على عكس ما يرى المسيحيون والمسلمون الذين يعتبرونه إنساناً مقدساً، أرسله الله ليفتدي بني البشر، أرسله ليطأ الموت ويمنح الحياة للذين في القبور.

سؤال كهذا، لا ينتظر جواباً من صاحب معرفة، بل من إنسان صافي العقل، نقي الذهن، بريء... وهناك فرق بين البراءة والمعرفة. فعندما تطرح سؤالاً انطلاقاً من معرفة الجواب، تكون لا تسأل، ولا داعي لتتساءل، لأنك تمتلك الجواب، وتريد من الآخر أن يجيبك كما تريد أنت، لا كما يريد هو. أي أنك تسأل، لمجرد التساؤل، أو لفتح باب مناقشة ومجال حوار. لماذا يتساءل اليهودي عمن هو المسيح، طالما هو - انطلاقاً من ثقافته - يمتلك الجواب على تساؤله، لأنه، إن سألته أنت ذات السؤال، فسيجيب «إنه إنسان عادي ولد نتيجة علاقة جنسية بين رجل وامرأة»، لأنه، وتبعاً لثقافته أيضاً، مجيء المسيح يعني تحرير جميع اليهود من عبودية الآخرين، وستغفر خطايا بني اسرائيل... وهذا ما لم يحصل. فكيف يكون - إذن - هو

المسيح الذي تحدثت عنه بعض أسفار التوراة، والذي ما يزالون، حتى اليوم، ينتظرون مجيئه بفارغ الصبر.

إنها أحكام مسبقة، لا تستند إلى وقائع. وكيف لهم أن يعرفوا ما الذي سيحدث حين يأتي المسيح، طالما هم لم يتعرفوا على أي مسيح من قبل؟

إذا كنت مقتنعاـ مثلاً - على أن الشمس حين تشرق صباح اليوم التالي، ستمطر السماء نقوداً تجعل جميع الناس أغنياء، وصباح اليوم التالي، أشرقت الشمس، لكن السماء لم تمطر نقوداً. فماذا ستقول؟ لا شك ستقول «هذه ليست الشمس». لأنك مهتم بالنقود الذي ستمطرها السماء، أكثر بكثير من اهتمامك بشروق الشمس الذي هو مجرد فرصة لالتقاط النقود فقط، دون اهتمام لما يقدمه شروق الشمس، من دفء في الحياة، وإضاءة الكون المحيط بك. وهذا ما حصل مع اليهود...

كانوا، ينتظرون مجيء المسيح، لا لأن المسيح ابن الله، بل لغايات وأهداف دنيوية، ولهذا حين جاء المسيح وطرق أبوابهم داعياً إياهم لترك عذاباتهم وحمل صليبهم واللحاق به إلى دار الخلود، أنكروه و لم يعترفوا به، لا بل تآمروا عليه، وطلبوا من الحاكم زجه في السجن وصلبه على الصليب.

هل هذا يعني أن كل اليهود بشر شريرون فاسدون؟ لا... إنهم أناس طيبون، لكن المشكلة، تكمن في أنهم يمتلكون أحكاماً مسبقة، لم يرغبوا بالتعرف إليه لمعرفة حقيقة ماهيته...

انزعج اليهود إلى أبعد الحدود، من قول يسوع المسيح إنه ابن الله أو إنه الله؟ فاعتبروا هذا تجديفاً يستوجب العقاب، وأخذوا يسعون من أجل صلبه وموته. في المقابل، كان المسيحيون، ومايزالون، يدافعون عن

ألوهيته، ونكران أنه إنسان عادي؛ ولهذا جاءت سيرة حياته، لتبرهن، على أنه لم يكن رجلاً عادياً، بل مثالياً، محباً للجميع، حتى لأعدائه، راعياً للمحبة والرحمة، رافضاً تحويل الهيكل إلى مركز تجاري أو مغارة لصوص. «ودخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام. وقال لهم: «مكتوب، بيتي بيت الصلاة يدعى. وأنتم جعلتموه مغارة لصوص»[1]

حسب ما جاء في الأناجيل، كان يسوع يصنع المعجزات. فيشفي البرص والعميان والمكرسحين، ويرفض أن يُشكر على ما فعل؛ لأنه ليس هو من فعل، بل أبوه الذي في السموات والإيمان به. وهذا ما قاله لامرأة خرت عند قدميه لتشكره على شفائها «ثقي يا ابنة، إيمانك قد شفاك، اذهبي بسلام»[2].

يقول المسيحيون، حتى ولادة المسيح، لم تكن كغيرها من الولادات، فهو ولد من امرأة عذراء، لم تعرف رجلا، وهذا أمر منافٍ للعقل which is absolutely absurd كذلك يسهبون في الحديث عن عجائبه، دون التطرق إلى حياته الخاصة، وجعلوا منه لا يعرف الضحك، مع أن هذا يتعارض كلياً مع ما كتب عنه أنه كان يعاشر الأقربين والأبعدين، يشاركهم أفراحهم كما أتراحهم، حتى أنه كثيراً ما كان يدعو الآخرين للشعور بالفرح والبهجة، وكيف لإنسان مثل المسيح، يتمتع بالوعي الكامل، والنقاء والطهارة أن يكون حزيناً. إن إنساناً مثله، مملكته ليست على هذه الأرض، بل في السماء، يدعو الناس لنسيان أحزانهم والتخلص من أعباء الحياة

---

1 ـ متى 21/12-13 المترجم

2 ـ لوقا 8-48

الدنيوية. إن إنساناً كهذا، يستحيل عليه إلا أن يكون فرحاً مبتهجاً. عالمه هو عالم أبيه الذي في السموات، عالم الرحمة والحب، عالم العطاء ومسامحة حتى الذين أساؤوا إليه.

أرغب بالتشديد، على أن يسوع الإنسان هو المسيح الإله، إنهما التقاء قطبين متناقضين، وهنا يكمن الفرح والبهجة، النشوة هي دائماً وأبداً، نتيجة التقاء قطبين متناقضين متباعدين. ولهذا السبب يشعر المرء بالنشوة عند ممارسة الحب؛ ممارسة الحب تعني التقاء قطبين: الرجل والمرأة، قطبين متباعدين مشدودين إلى بعضهما. وحين يلتقي رجل بامرأة، ويقع في حبها، وتبادله هي الحب، يشعران معاً بالسعادة والغبطة والفرح. يشعران بنشوة عظيمة لأنهما اتحدا وانصهر كل بالآخر، واختفت «الأنا» التي تسيطر عليهما... وزالت الحواجز بينهما، ولهذا، لا بد ليسوع المسيح الذي يمثل اتحاد الإنسان بالله، إلا أن يكون سعيداً مبتهجاً.

يبقى الإنسان جاهلاً نفسه، حتى تحل به الطاقة الإلهية، التي لن تحل به، إلا إذا كان مستعداً لتقبلها، وهكذا يتعرف إلى ذاته، فتنتشي نفسه وتفرح. لا وجود للنشوة إلا من خلال تلاقي المضادات والمتناقضات: التراب بالشمس، الأرض بالسماء، الجسد بالروح، المادة بالفكر... وإلا ستمضي بنا السنون بلا إحساس بالفرح... حتى الله يفرح حين يلتقي نقيضه، فاعلم أنك لست وحدك، تبحث عن الله يا أيها الإنسان، فهو أيضاً يبحث عنك، ولست وحدك حزيناً من دون الإلتقاء بالله، بل هو حزين كذلك لأنه لم يلتقٍ بك.

هنا، كان يكمن سر فرح المسيح وابتهاجه، لأنه كان منصهراً بأبيه الذي في السموات، وإلا لكان، كأي إنسان آخر، لا يدعو للمحبة ولا

للرحمة، ولا يدعو للسعي للحصول على نعمة الله وبركاته التي لن تأتي هكذا، بل بناءً للطلب «اطلبوا تجدوا، إقرعوا يفتح لكم»[1].

قيل، إن المسيح لم يمت مصلوباً، لأن الإنسان بمقدوره الصمود حياً، لمدة ثمانية وأربعين ساعة على الصليب، وفقاً لما يدعي اليهود، في حين أنه لم يصلب لأكثر من ست ساعات. وقيل أيضاً أن صلبه بعد ظهر يوم الجمعة. جاء نتيجة تفاهم بين رجل ثري من أتباعه وبيلاطس البنطي، ذلك لأن اليهود يتوقفون عن العمل كلياً، اعتباراً من مساء كل يوم جمعةـ بداية السبت اليهودي ـ وحين أنزل عن الصليب، قبل غروب الشمس، لم يوضع في قبر، بل أخذ جسده إلى قبو لمعالجته من جراحه، ولهذا وجد القبر فارغاً.

وقيل أيضاً، إن المسيح بعد شفائه من جروحه، قصد الهند، وكشمير تحديداً، حين أمضى بقية حياته هناك. والدليل على ذلك، أن هناك قبرين في كشمير، مكتوب عليهما بالعبرية واحد لموسى والآخر لـ Joshua أو يشوع كما يسميه اليهود، وهذان القبران لا يتجهان نحو «القبلة» أي نحو مكة المكرمة، كما هي حال قبور المسلمين، ذلك لأن منطقة كشمير هي منطقة إسلامية، كان سكانها يعتنقون الديانة اليهودية أساساً، لكنهم اعتنقوا الإسلام فيما بعد. في كشمير، لم يقل المسيح إنه ابن الله، مخافة أن يصلب مجدداً، بل قال إنه الراعي الصالح وهناك مدينة، ما تزال حتى اليوم تحمل هذا الإسم «مدينة الراعي الصالح» أو باهالغام في الهندية pahalgam

مهما قيل عن ذلك، فبيلاطس البنطي لم يكن موافقاً على صلبه لاقتناعه ببراءته، ولأنه لم يجد سبباً لتجريمه، وما هي جريمته التي توجب عقابه؟ أهي قوله إنه ابن الله، وإنه يريد نشر كلمة أبيه الذي في السماء؟

1 ـ متى 7-3

إنه لم يلزم أحداً على سماعه، فمن أراد أن يسمعه، هو حر، ومن لم يرد، فهو ليس مجبراً.

حتى اليوم، ما يزال المسيحيون، يؤمنون بولادته من أم عذراء، وبموته على الصليب وقيامته حياً بعد ثلاثة أيام، وتتحدث الأناجيل عن أعاجيبه، كذلك المسيحيون، من شفاء البكم، والمكرسحين والبرص والعميان وإقامة الموتى.

الغريب في الأمر، أنه حين كان المسيح، ما يزال على الأرض، يبشر بالله الذي في السموات ويكرز باسمه، كان منبوذاً من بني قومه، الذين ابتعدوا عنه، وراحوا يتحيينون الفرص لإثبات تجديفه.

وعد المسيح تلامذته أن يعود مجدداً إلى هذا العالم، ولكن لماذا يعود، أليصلب من جديد؟ وحتى الأساقفة والباباوات سيتحولون، إلى كهنة اليهود الذين طالبوا بيلاطس البنطي بصلبه حتى اليوم، لأنهم يخشون تعاليمه وأفكاره، ولأنهم تجار دين وديانة، وليسوا ممثلين له، بل وكلاء. وإذا كان في المرة الأولى قال وهو على خشبة الصليب «اغفر لهم يا أبتاه، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون»[1] فماذا سيقول، حين يصلب ثانية «اغفر لهم يا أبتاه لأنهم يعلمون ماذا يفعلون؟».

جاء يسوع المسيح، وصنع المعجزات، لكنه لم يدعِ أنه هو من شفى الأعمى، والأبرص، أو أنه من أقام الموتى، بل قال: «إن أباه الذي في السموات هو من فعل». وقال أيضاً «إيمانك شفاك».

قيل، كان هناك وردة جميلة، ذات رائحة ذكية، لكن الأرجل داستها، فاختفت، فادعى كاهن أنه يمثل رائحة تلك الوردة وعطرها، وتوارث هذا الإدعاء كهنة آخرون جاؤوا بعده.غير أن الحقيقة، ما من أحد كان، أو يستطيع أن يكون، ممثلاً لرائحة تلك الوردة، إنها عائدة

1 ـ لوقا 32-34

لرائحته الخاصة الذي هو جزء لا يتجزأ منها، ومتى انفصل عنها لم يعد عطرها. هذه حال المسيح، فلا يحق لأحد ادعاء تمثيله، عليك أن تحاول فهم ما جاء من أجله. ومن تلقاء نفسك... عليك أن تكون مستعداً لتقبل تمرده،على العادات والتقاليد، وثورته على تجار الهيكل. عليك أن تتبعه وتتخلى عن عالم الماديات الدنيوي، إنه لا يريدك معه، طالما أنت على هذه الأرض، بل بعد رحيلك عن هذه الأرض... ولن يكون لك هذا، طالما أنت عدو المحبة، ولا تسامح من يسيء إليك، ولا تعطي دون أن تسأل، ماذا ستربح أو تجني مقابل عطائك، لأنك لن تربح كنوزاً من ذهب، ولن تجني محاصيل مادية، بل ستربح ذاتك.

ديونيسيس

لست أدري، لماذا ينسب البعض ديونيسيس[1] إلى الشرق، وكأن هذا الشرق يحتكر الروحانية الذهنية. مع العلم أن الروحانية هي الروحانية، إن في الشرق أو في الغرب. هي ليست حكراً على أحد. فالمسيح قد يكون بوذا القدس، ولاوتزو بوذا الصين، وديونيسيس بوذا أثينا، ولا ضرورة لأحد منهم أن يستعيد روحانية الآخر وتعاليمه.

اليوم، أثبتت التجربة العلمية، أن هناك أشياء كثيرة تكتشف في الوقت ذاته، وعلى أيدي رجالات متواجدين، كل من مكان ولا تواصل بينهم. حتى أنشتاين قال «لو لم أكتشف أنا نظرية النسبية، لكان من الطبيعي أن يكتشفها إنسان غيري وفي مهلة زمنية، قد لا تتعدى السنتين».

اليوم أيضاً، نعرف أن السوفيات يكتشفون شيئاً يعتبرونه اكتشافاً خاصاً بهم دون سواهم، في حين أن هناك فرنسيين أو بريطانيين أو أميركيين، قد توصلوا إلى اكتشاف الشيء ذاته وفي الفترة الزمنية ذاتها، والعكس صحيح. لماذا هذا؟ سؤال يطرح نفسه بإلحاح، لأن الأنا اللاواعية عند الإنسان، هي التي تحركه، وتدفعه للبحث عن كل ما هو جديد، وكلما تمكنت الأنا اللاواعية من تفجير ذاتها، كلما، عرف

1 ـ ديونسيس هو إله الخمر عند اليونانيين القدامى. مثله مثل باخوس عند الرومان ـ المترجم.

العالم أشياء جديدة وعرف الإنسان أنه لا يختلف عن أخيه، في أي مكان على هذه الكرة الأرضية، إلا بالشكل فقط، إنما ليس بالوعي والإدراك.

يقول المتصوفون، هناك ما هو أبعد من اللاوعي الجماعي، إنه اللاوعي الشامل أو الكلي... إنه المركز للإشعاع داخل الذات والمميز منه يشع النور الذي لن يراه إلا من ينظر إليه ويكدّ للحصول عليه، وإلا، سيتوزع النور على الكل، أو على من هم لا يسعون إليه، وهكذا لن يستفيدوا منه.

كتب آلان واتس Alan wats مقالة صغيرة بغاية الجمال عن أسطورة التنور عند ديونيسيس جاء فيها: «هناك من تجرأ على القول، إن ديونسيس زار الشرق، وإن لم يفعل، فلا شك، أن هناك بعض المتصوفين الشرقيين قد زاروا أثينا». لا غرو في ذلك، فمع توسع الإسكندر الكبير، أزيلت الكثير من الحواجز والعقبات، من أمام التقاء الشعوب - في الشرق والغرب - وهكذا قد يكون عدد من متصوفي الهند قد زاروا أثينا وتعرفوا إلى ديونيسيس، وفي ذلك الوقت أيضاً، نشطت الحركة التجارية بين الهند واليونان، مما ساعد على تبادل الأفكار والإطلاع على المعتقدات والعادات والثقافات، من خلال التجار ورجال الأعمال حتى الكهنة اليانيون، قصدوا الإسكندرية وأثينا وإلى أي مكان معروف يومذاك وقد ذكرت اليانية في كتابات المتصوفين الآثنيين gymnosophists الجيمنوسوفيست أو المتصوفون اليونان الذين كانوا يبحثون عن الحقيقة فالجيمنوسوفيست هي ذاتها اليانية الهندية.

وبسبب أسلوب ديونيسيس الشرقي الطابع، جزم آلان واتس، على أنه، إما يكون ديونيسيس قد زار الشرق، أو أنه تأثر بالاثنيين من

الشرق. ذلك لأن كلماته شرقية وتنوره شرقي، والكثير من كلماته تذكرنا «بالفيدية» Upanishad

انطلاقاً من تجربتي، لا مكان معيناً وخاصاً للحقيقة، إنها في كل مكان. لاوتزو لم يزر الهند، ولا أحد من الهند زار الصين التي تفصلها جبال الهملايا عن الأولى، وتمنع حتى التبادل التجاري بينهما ورغم هذا، نرى الفيدية في تعاليم لاوتزو، وكذلك تعاليم بوذا، حتى نضطر للقول «لا بد من وجود صلة بينهما» ولكن الحقيقة، لا بوذا أخذ من تعاليم لاوتزو ولا هذا الأخير استعار شيئاً من عند بوذا.

يمكنني الجزم، أن لا أحد استعار من أحد، لكن الجميع نهلوا من نبع واحد، فمن شرب ماء المحيط عند الشاطىء الهندي أو عند الشاطىء الصيني سيجد أن طعم الماء هو ذاته، هذه هي الحقيقة، لها طعم واحد ونكهة واحدة، وحده أسلوب التعبير هو الذي يتغير أو اللغة التي نكتب بها.

قال فريدريك نيتشه «لقد عرفت مسيحاً واحد، مات على الصليب منذ ألفي عام». يبدو أن نيتشه لم يكن يعرف شيئاً عن ديونيسيس وإلا لما قال هذا. لأن ديونيسيس، كان مسيحياً في فكره ومفاهيمه... فالمسيحية كمفهوم ودين، يمكن أن تضم العديد من الأشخاص الذين، تصرفوا، وعاشوا كما تصرف وعاش المسيح، ونادوا بما نادى به أمثال ديونيسيس والقديس فرنسيس وغيرهما. في الوقت ذاته، المسيحية كمؤسسة دينية، لن تسمح بوجود الصوفية والمتصوفين، وحتى لو وجد هؤلاء، فيكون عليهم، إما الهرب والإختباء في أماكن لن تصل إليهم فيها يد كبار رجال الدين الذين سيأمرون بملاحقتهم. وإما اعتماد الباطنية الفكرية، فيتظاهرون وكأنهم مسيحييون، ويستعملون اللغة المسيحية في التخاطب مع الآخرين، لكنهم في قرارة أنفسهم، يؤمنون بأفكارهم الخاصة.

لو عاش ديونيسيس أيام المسيحية، لكان اضطهد وحوكم واعتبر خارجاً عن الدين، ولكان البابا ألقى عليه الحرم الكنسي، ورغم هذا، أسمح لنفسي بالقول، إنه كان مسيحياً قبل مجيء المسيح، كان رجلاً فريداً ونادراً في عصر، رفض العنف واستعمال القوة، ودعا إلى المحبة والتسامح والتعامل برحمة، دعا إلى إسعاد الناس ونشر السلام بين بني البشر.

لا شك كان المسيح سيتقبل مفاهيمه ويوافق عليها، ولكن الكنيسة كمؤسسة جامدة، متحجرة في المفاهيم، لن تحذو حذو مؤسسها يسوع المسيح، أي أنها لن تقبل بها، كيف يعقل، هذا، وهو الذي كان يرفض الإمتثال لأوامر من يعتبرون أنفسهم يمتلكون حتى التسلط على الآخرين؟

ميرا

ميرا واحدة من محبي كريشنا. ميرا تعيش حالة حب وولـه مع كريشنا، ليس اليوم، بل منذ دهور ودهور. تقول ميران إنها عاشت مع كريشنا. لكن ما من أحد من أتباع كريشنا تقبّل هذا القول، واعتبروها تدعي ذلك. أما أنا، فصدقتها، صدقتها دون اهتمام بالبراهين والإثباتات التي تثبت صحة ما تقول.

صدقتها، بغض النظر، إن كانت صادقة في قولها أم لا. بالنسبة لي. لا أهمية للتاريخ، ولا عما إذا كانت ميرا قد عاصرت كريشنا أم لا... هي كانت... وأنا أصدق ما تقول. ولا مجال للشك فيما قالت أو ستقول، والمشككون بصحة كلامها، لن يتمكنوا من فهم ميرا.

قالت ميرا: «كنت لا ليتا، رقصت مع كريشنا، وغنيت معه. إنه حب قديم يشدني إليه... إنه ليس حباً مستجدا».

كانت ميرا بحدود الرابعة أو الخامسة من العمر، حين جاءهم ناسك هندوسي زائر، في الصباح، وقبل مغادرته منزل ميرا، أخفى في حقيبته تمثالاً لكريشنا . جن جنون ميرا.. لماذا يفعل هذا؟ ليأخذ كل شيء، إلا تمثال كريشنا.

فجأة، تذكرت ميرا، ما حصل لها في حيواتها السابقة، فجأة استعادت ذكرى لقائها كريشنا، رأت مجدداً، عبر الذاكرة، وجهه

الداكن، عينيه الواسعتين، كان يعزف على آلة النفخ ذاتها، عادت بها الذاكرة إلى الوراء، مئات ومئات السنين. ولكن، لماذا اختار هذا الناسك تمثال كريشنا دون غيره ليأخذه، غير آبه لرجائها أو توسلاتها، غير مكترث لدموعها وهي تحرق وجنتيها. رغم كل هذا، رفض الناسك المحب لكريشنا إعادة التمثال. حمله معه ورحل.

مر يوم بكامله والحزن يعتصر قلب ميرا، رفضت خلاله أي طعام وحتى شرب الماء. أفضت يومها تبكي، فاحتار والدها، وراحا يتساءلان: كيف يمكننا استعادة التمثال؟ فالرجل قد رحل، ولا يعرفان إلى أين. حتى ولو عرفا مكانه، فهل سيعيد التمثال؟

كان تمثالاً يصعب وصفه: لم ينحت بسبب التجارة وكسب المال، بل تعبيراً عن حب كريشنا وتقديراً لتعاليمه. ما من أحدٍ رآه إلا وشعر بالخشوع والرهبة. إلا وسمع صوت كريشنا يدعوه لمحبة الله والإنصهار به. فقدان التمثال سبب أزمة نفسية لميرا، حتى بات هناك خوف على حياتها.

منذ صغرها، منذ كانت في الرابعة، وميرا تواقة لحب الله، شغوفة أن تكون واحدة من عباده الصالحين.

في هذه الليلة، كان الناسك نائماً، كان يغط بنومه سعيداً لاحتضانه التمثال... لكن كريشنا جاءه في الحلم. جاءه غاضباً، مؤنباً، «أعد التمثال لأصحابه، للذين حافظوا عليه سنوات طويلة، لا رغبة بامتلاكه، بل حباً به، كل يوم كانوا يسجدون أمامه، يتضرعون لله، يقدمون الورود». أحس الناسك بالذعر والخوف... فهو أيضاً يحب كريشنا ويسجد له ويتضرع إليه، ويتمنى أن يراه ولو في الحلم، لكن كريشنا لم يستجب لطلبه، أو لدعائه فلماذا اليوم؟ ولماذا يصر كريشنا على إعادة التمثال لأصحابه الآن... الآن دون انتظار بزوغ

الفجر.. إنه منتصف الليل، وهل بمقدوره عصيان أوامر كريشنا؟

عند منتصف الليل، شد الناسك رحيله، عائداً إلى منزل ميرا، ليعبد التمثال معتذراً؛ ولتعود الإبتسامة إلى شفتي ميرا والإشراق إلى عينيها.

حدث هذا، حين كان عمر ميرا لا يتعدى السنوات الأربع أو الخمس... أي منذ زمن طويل ... إنه زمن العلاقة التي ربطت ميرا بكريشنا، علاقة حب وولـه، زمن كانت ميرا منتشيه في حب كريشنا، كانت أشبه بمن أصابه السكر لكثرة ما شرب من الخمر، لكن الخمر الذي شربته ميرا، كان خمر حب كريشنا.

وراحت الأيام تمر، وميرا تكبر حتى بلغت الثانية أو الثالثة والثلاثين من العمر؛ فبدأت الحياة، تأتيها بأثقالها النكبة تلو الأخرى... خسرت ميرا كل من تحب، زوجها، أهلها، وحتى والدها، كلهم ماتوا. لم يعد لديها أحد... دمرت النكبات عالم ميرا. كل الذين أحبتهم ماتوا... لكن حبها تفجر في الإنصهار بالله، فكرست نفسها لخدمة كريشنا، تأكدت ميرا، أن كل ما هو على الأرض فانٍ، غير خالدٍ، ولا بد من ساعة فراق... وتأكد لها أن الحب الحقيقي، هو حب لله، الحب الخالد، الحب الذي لا نهاية له. إذن، لماذا التفكير بالدنيويات؟ لماذا لا تكرس نفسها لكريشنا؟

في البدء، بدأت ميرا ترقص إكراماً لكريشنا. رقصت أمام تمثاله، داخل جدران المنزل، لكن هذا الحب، كان يكبر يوماً بعد يوم، حتى لم يعد المنزل قادراً على استيعابه. إذن، لماذا لا تخرج إلى شوارع المدينة إلى المعابد، لترقص هناك. كريشنا يستحق أكثر من هذا.

رقصها هذا، جعلها على كل الألسن... إنها ابنة عائلة عريقة، فكيف تخرج إلى الشوارع، كاشفة الوجه وترقص؟ أخذت الشائعات تسري هنا وهناك. في كل مكان... إن ما تقوم به، منافٍ للعادات

والتقاليد المتعارف عليها. في تلك الأيام، لم يكن يحق للنساء أن يخرجن من بيوتهن، وإن خرجن، فلا يظهرن وجوههن للناس.

لكن ميرا، لم تكن لتعير كل هذه المفاهيم والأعراف والتقاليد، أي اهتمام. لم تخرج من المنزل إلى العلن وحسب، بل ورقصت أمام الرجال حاسرة الرأس، كاشفة الوجه، رقصت في الشوارع والمعابد، لكن رقصها كان تمجيداً لله. كان تعبيراً عن حبها لله، لكريشنا، لكن بالنسبة للآخرين، والأقارب خاصة، يبقى الرقص، رقصاً.

ضاق صدر زوج شقيقتها، وهو صاحب العرش الملكي، فقرر التخلص منها، أرسل لها الأفاعي والسم القاتل، أراد جعل حياتها عبئاً لا يحتمل؛ لكن هذا لم يمنع ميرا من أن تصبح محط أنظار الناس في كل مكان، فتوافدوا لرؤيتها ترقص احتفالاً بحلول الألوهية فيها. لقد تخطت شهرتها، شهرة صهرها الملك «وهل يعقل أن يتمتع إنسان من عائلتي بأهمية تفوق أهميتي؟» هذا ما تساءله الملك. إذن لا بد من القضاء عليها.

إكراماً لكريشنا، شربت ميرا السم. لكن السم تحول ترياقاً، تحول منعشاً، باعثاً للحيوية أو كأن الإله حوله إلى رحيق إلهي.

ماذا يعني هذا؟ يعني أن الإله، تقبّل حب ميرا، وقدر لها ما تفعله من أجله. فوقف إلى جانبها، بعث فيها القوة والقدرة على التحمل.

قررت الإنتقال إلى مدينة أخرى، إلى فريندافان، مدينة كريشنا «سأذهب إلى مدينة الإله الأحب إلى قلبي، إلى مدينة كريشنا» ولكن هل الناس هناك، هم غير الناس هنا؟ هل العادات والتقاليد، تختلف، عن العادات والتقاليد هنا؟... أبداً، الناس هناك، هم الناس هنا، والعادات والتقاليد، هي ذاتها هنا... إذن، المصاعب ما تزال تلاحق ميرا أينما حلت.

في فريندافان، أصدر الكهنة الأمر لحراس المعبد بمنعها من الدخول، هكذا تقضي التقاليد، حتى أن الكهنة لم يكن يُسمح لهم برؤية النساء. لكن

ميرا، وصلت المعبد وهي ترقص وتغني، تغني لكريشنا، وأتباعها يوزعون النبيذ. شرب الحراس، فأصابهم السكر. سكروا ليس من شرب النبيذ، بل مما رأوا، مما سمعوا. فنسوا مهامهم، وتنحوا جانباً، وتابعت ميرا طريقها نحو داخل المعبد.

ذهل الكاهن لرؤية ميرا، تقف أمامه وجهاً لوجه، ترقص أمام تمثال كريشنا. «ويحكِ يا امرأة ماذا تفعلين؟» صاح الكاهن وتابع يقول: «أما تعلمين أنه ممنوع على النساء دخول المعابد؟ أما تعلمين أنه ممنوع على النساء، أن يكشفن عن وجوههن أمام الرجال؟ فماذا تفعلين أنتِ؟».

ماذا؟ صاحت ميرا. «أعتقد جازمة، أن ما من رجل في هذا العالم، إلا رجل واحد، هو كريشنا... هل أنت تعتبر نفسك رجلاً؟ برأي، هناك رجل واحد اسمه كريشنا، وكل ما عداه من مخلوقات، إنما خلقت لتمجيده، لتسبيحه. فهل أنت رجل؟ إن كنت كذلك، فهذا يعني أنك تنافس كريشنا».

تعجب الكاهن وارتبك... لم يسبق لأحد، أن خاطبه بهكذا كلام. لم يسبق لأحد أن طرح عليه هكذا سؤالاً: «هل هناك رجل غير كريشنا؟ كلام عجيب غريب، لم يتلفظ به أحد من قبل. كريشنا هو الرجل الوحيد، والباقون هم محبوه الذين يمجدونه ويسبحونه».

قولها هذا جلب لها المشاكل، حتى وجدت نفسها غير قادرة على البقاء في فريندافان. هكذا هم البشر، لا يقدرون أنبياءهم ولا المتنورين بينهم، وينتظرون حتى وفاتهم، فيطلقون المديح عليهم، ويقدرونهم إنما بعد فوات الأوان.

رحلت ميرا عن فريندافان... في هذا الوقت كان الوضع السياسي، في مسقط رأسها، قد تغير... ذهب ملك، وحل آخر محله، آخر مدرك لأهمية ميرا، مقدر لما تفعل. فأرسل الموفدين إليها، يعتذرون منها، ويدعونها

للعودة. كانت أوامر صاحب الجلالة واضحة. «لا تعودوا إلا وميرا معكم، وإلا ستجدون حبل المشنقة بانتظاركم... عليكم فعل كل ما تستطيعون لإقناعها بالعودة، للتبرك بها، ولتبارك الشعب هنا، يكفيها تنقلاً من مدينة إلى أخرى».

وجاء جواب ميرا واضحاً: «ليس بمقدوري اتخاذ قرار العودة. إلا بعد سؤال من نذرت نفسي لأجله... أنا... لا يمكنني فعل شيء من دونه... لذا عليّ سؤاله».

تقول الحكاية، إن ميرا دخلت تمثال كريشنا. هكذا تقول الحكاية، لا شك إنها حكاية أقرب إلى الأسطورة، ولكن هذا ما رواه الناس، كل الناس... لطالما كانت ميرا تردد «أنا في كريشنا وكريشنا فيّ أنا» لقد انصهرت بالإله كريشنا، حتى لم يعد لها وجود إلا بوجوده. لقد أسلمت أمرها له... لقد انصهرت به وانصهر بها.

أرجوك يا أيها القارئ، ألا تأخذ قولي هذا، على أنه الحقيقة المطلقة... لا أنكر أنها حقيقة، ولكن الحقيقة تختلف من واحد لآخر، والفعل ليس تحديداً للحقيقة... الفعل هو ما يتمكن الواعون من فهمه وإدراكه.

نعم، ميرا أجابت الموفدين، عليّ سؤال كريشنا. شخصياً، أعتقد أن ميرا دخلت تمثال كريشنا وقالت: «والآن ماذا هو إحساسك؟ هل أعود الآن؟ إلى أين تريدني أن أذهب؟ فإما تعال معي أو خذني إليك».

هذا هو الحب... الحب الخالص المجرد من أية غاية؟ حين تحب إنساناً، عليك أن تصبح أنت... هو... وأن يصبح هو أنت... إنه الحب المجرد يفرض ذلك.

كونوا مثل ميرا... ميرا أحبت كريشنا حتى حدود الذوبان به... أحبوا هكذا...

شوانغ تزو

يعتبر شوانغ تزو متنوراً نادر الوجود ويختلف في مفاهيمه، مع تلك التي نادى بها المسيح وبوذا، قال بضرورة الفهم، وأنه يستحيل تحقيق أمر ما دون فهمه. لم يسع لأن تكون له طريقة خاصة، ولم يقل بأي أسلوب تأمل. قال: «بكل بساطة ما عليك إلا فهم حقيقية الأمور كما هي» أنت ولدت... ولكن ما هو الجهد الذي بذلته كي تولد؟ أنت تنمو وتكبر... ولكن ما هو الجهد الذي بذلته لتنمو وتكبر؟ أنت تتنفس ولكن ما هو الجهد الذي تبذله لتتنفس؟ كل شيء يتحرك من تلقاء ذاته، وكل الأمور تحدث وفقاً لما هو مخطط لها. فلماذا تزعج نفسك إذن؟ دع الحياة تجري على سجيتها، ومن ثم ستجد نفسك تجري مع الحياة.

إذن، لا تتعب نفسك بالكفاح، ومحاولات السباحة ضد التيار. لا تحاول حتى أن تسبح. دع جسدك يطفو على وجه الماء، ودع التيار يأخذك إلى حيث يريد. كن غيمة بيضاء هائمة في السماء، بلا هدف، فقط إنها هائمة، وهذا هو الإزهار - التنور - الحقيقي.

إذن، إن أول ما عليك فهمه عن شوانغ تزو، هو أن تكون طبيعياً، وعليك تجنب كل ما هو غير طبيعي. لا أحد يمكنه تجاوز الطبيعة، لأنه يستحيل ذلك. ولكن الأنا تقول العكس تماماً. تقول إنه بمقدورك تجاوز الطبيعة. هكذا وجدت الثقافات، كل جهد يبذل لتجاوز الطبيعة، يعتبر ثقافة، لكن الثقافة مرض مزمن، فلماذا لا نحاول التخلص من مرضنا

المزمن هذا - كلما ازداد المرء ثقافة، كلما أصبح يشكل خطراً أكبر، أو أصبح أكثر خطورة. لذا، لم يكن شوانغ تزو من محبي الثقافة. الطبيعة هي الجوهر الأساسي، وقد سماها «التاو» Tae ومعناها أن الطبيعة مكتملة بذاتها وهي الجوهر الأساس. ولا يمكن لأحد - أي أحد - أن يدخل عليها أية تحسينات، وإن حاولنا فعل ذلك. فنكون كمن يحاول إفراغ الطبيعة من مضمونها والقضاء عليها، ونعيق تحركها، وهذا ما نفعله مع الأطفال. يولد الطفل في هذه الطبيعة، ومن ثم، نعيق وجوده، من خلال المجتمع، الحضارة، الثقافة. الأخلاقيات والدين... إننا نفيده ونحاصره من كل الجهات. هكذا هو يعيش ولكن ليس حياً.

سمعت أن طفلة صغيرة، لم تتجاوز السنوات الأربع، كانت مدعوة لحفل عيد ميلاد أحد أصدقائها. لكنها، وقبل أن تذهب سألت أمها: «هل كنتِ تحضرين هكذا حفلات، هل كنتِ تشاركين الآخرين أفراحهم ورقصتِ معهم؟ هل فعلتِ ذلك، يوم كنت ما تزالين حية؟».

كلما تثقف الإنسان، وتحضّر، كلما اقترب من الموت، كثيرون هم الموتى في هذه الحياة، ما عليك إلا زيارة النساك في صومهم، والرهبان في أديرتهم، لتتأكد أن هؤلاء يعيشون وليس يحيون، إنهم ليسوا أحياء، إنهم يخافون الحياة، ويخشون الطبيعة، لذا قرروا إلغاء الطبيعة من الوجود. إنهم يعيشون في قبور، ليس أكثر ومهما حاولت بناء قبر فخم، حجارته من الرخام الخالص، وزينته بكل ما تريد، إلا أه يبقى قبراً، والإنسان في داخله هو ميت ليس أكثر.

الثقافة تقتلكم، الثقافة مجرمة من الدرجة الأولى، تسمم بدنكم يوماً بعد يوم. إنها الإنتحار بحد ذاته. لذا نرى شوانغ تزو، يسير على خطى معلمه العجوز لاو تزو، في مناهضة الثقافة. ولماذا الثقافة، طالما أن الطبيعة هي جوهر الوجود؟ اعتبر شوانغ تزو ومعلمه لاو تزو، الأشجار

أفضل من بني البشر، وكذلك الطيور في السماء، والأسماك في الأنهر والبحور. كل هؤلاء هم أحياء، ويرقصون على وقع موسيقى الطبيعة.

أنت لا تدرك أبداً ماهية الطبيعة، ولا تسأل نفسك «ما هي الطبيعة؟» فإن أنت أردت إدانة الطبيعة. ما عليك إلا أن تدين الجنس أولاً، لأنه مصدر الطبيعة. الطبيعة كلها، تتمتع بطاقة جنسية، وتعي معنى الحب. العصافير تغرد، الأشجار تزهر، وكل هذا بفعل الطاقة الجنسية. الأزهار هي رمز الجنس، وكذلك تغريد الطيور. الطبيعة الحاملة «التاو» هي لا شيء... إنها طاقة جنسية فقط. الطبيعة تتكاثر من تلقاء ذاتها، تحب ذاتها، وتتحرك وسط عالم فرح ومسرور. إذن، إن أردت القضاء على الطبيعة، ما عليك إلا القضاء على الجنس أولاً، ما عليك إلا إلقاء اللعنة على الحب، وما عليك أيضاً، إلا أن تبتدع مفاهيم أخلاقية جديدة، تكون جوهر الحياة، ولكن مهما كانت هذه المفاهيم الأخلاقية جميلة، وبراقة، ستكون كما القبر الرخامي، وأنت بداخله. قد يعتقد بعض السكارى، أنك تعرف معنى الحياة، وأنك حي يرزق. ولكن ما من إنسان واعٍ ومدركٍ يناديك بالحي أو يقول بأنك حي. مفاهيمك الأخلاقية هي نوع من الموت، ولا شك أن المجتمع سيقضي عليك، قبل أن تأتيك لحظة المنية.

لهذا السبب، تعتبر رسالة شوانغ تزو من أخطر الرسائل إنها الأكثر ثورية والأكثر تمرداً. إنه يقول «تقبّل الطبيعة كما هي، ولا تحدد لها أهدافاً وغايات» ومن أنت لتفعل هذا؟ أنت جزء لا يرى بالعين المجردة. أنت مجرد خلية، من أنت لتجبر الكل أن يتحرك وفقاً لما تريد؟ هنا تكمن الخطورة. إنها الرسالة الأكثر خطورة. هذا يعني تحطيم القيود وإزالة كل الحواجز.

هناك من يخشى الصحة، نفسها، لأنها، من وجهة نظرهم، أمر لا

أخلاقي، لا شك، تكون قد قرأت ما قاله الفيلسوف الألماني كونت كيسيرلينغ «الصحة هي السعادة، هي الحب، هي الجنس، هي كل شيء طبيعي، وأن القضاء على الطاقة يوهن الطبيعة ويضعفها».

ثانية أقول: شوانغ تزو، هو الأكثر تمرداً. إنه متمرد على كل شيء. لهذا يقول: «الطبيعة هي الطاقة والنشوة المتأتية عن الإنبعاث. الطبيعة ضرورة كي يحيا الإنسان دون بذل أي جهد. أشياء كثيرة تحدث يومياً، تحدث هكذا من تلقاء ذاتها دون بذل أي جهد، الوردة تبدو جميلة دون أن تبذل جهداً لتكون جميلة، كذلك العصافير حين تغرد... إنها تغرد... وتغرد دون بذل أي جهد. حتى الغزال السارح في البرية المتمتع بالطاقة والحيوية. كذلك الأرنب البري. الأرنب الذي يبقى واعياً متيقظاً.

أنظر إلى الطبيعة، إنها الكمال بعينه، حتى أنه ليس بمقدورك إضافة شيء إليها... وحدهم بنو البشر غير مكتملين، لأنهم يحاولون بذل الجهد، وأين؟ في غير موقعه. لماذا لا نكون كالأزهار التي تبدو جميلة. دون بذل أي جهد؟ لماذا لا يكون الإنسان مثلها تلقائياً وعفويا؟

إذا كانت النجوم ساطعة. دون بذل أي جهد. فلماذا لا يستطيع الإنسان؟ الإنسان هو جزء أساسي من الطبيعة، مثله، مثل الأزهار، مثل النجوم، ولهذا يقول شوانغ تزو «كن طبيعياً، فلا شك ستزهر نفسك».

إفهم الطبيعة على حقيقتها، وكلما تعمقت في فهم الطبيعة كلما أصبحت قادراً على العطاء دون بذل أي جهد. كن ابن الطبيعة، فأنت كائن حي... متى توصلت لهذه اللحظة، فستعرف أنها اللحظة الأكثر خلوداً. فامنح نفسك الفرصة، فرصة التحرر من الإهتمامات الذاتية والإنغماس في التخطيط للمستقبل.

هذه هي الزهرة، تزهر دون أي جهد، لأنها لا تهدر طاقتها في

التخطيط للمستقبل. إنها تزهر... لأنها موجودة أساساً كي تزهر. فكن كالزهرة، كالعصفور، كالشجرة، كالنهر، أو حتى كن كالمحيط، ولكن إياك أن تكون كالإنسان الذي يهدر طاقته هباءً.

كن طبيعياً، كن عفوياً تلقائي التصرف والسلوك، دون بذل جهد. إسمع ماذ يقول شوانغ تزو.

«البساطة هي الطريق نحو الصواب».

ثابر على أن تكون بسيطاً، هكذا تكون على صواب. الطريق أمامك... سر عليها دون التفكير متى تصل إلى نهايتها، وإلا ستهدر طاقتك وتصاب بالضعف والوهن.

يعتبر شوانغ تزو. إنساناً فريداً. نادر الوجود، إنه أكثر الصوفيين فرادة وعذوبة... ما يميزه عن غيره، ويجعله فريداً، هو أنه يتكلم عن أشياء تتنافى مع العقل، عن سخافات، بالنسبة لكثيرين غيره، لذلك نرى كل قصائده وقصصه سخيفة تافهة، إنه لا يحب الإستماع إلى صوت المنطق - صوت العقل - العقل يتغذى من المنطق والمنطق يهدر الطاقة.

قصصه، قصائده، وكل كتاباته، تعتبر سخافات أو تفاهات، مما حدا بالبعض للنظر إليه كإنسان مجنون، فلن يتبقى حوله إلا قليلون، إلا الذين اكتشفوا أن لا ضرورة للتأمل، ولماذا يكون هذا؟ التأمل يعني توقف العقل عن القيام بمهامه، أي اختفاء التركيز. إنها حالة اللاعقل... وهكذا نفرق في صمت مطبق. صمت لا يعكر صفوه شيء آخر.

كثيرون في الشرق، حاولوا الوصول إلى مثل هذه الحالة، حالة اللاعقل. وكان لكل من هؤلاء أسلوبه الخاص به، أن شوانغ تزو، فقد تميز عن غيره، كان له أسلوبه الخاص جداً، أسلوبه الذي لم يشاركه فيه أحد.

يروى أنه استيقظ ذات يوم، والدموع تنهمر من عينيه، حزيناً كئيباً

منهار القوى. تعجب تلاميذه ومريدوه من حالته التي ما عرفوها سابقاً... إن أمراً عجيباً غريباً قد حدث، تقدم تلاميذه منه متسائلين: «هل يمكننا تقديم المساعدة؟» وجاء جوابه: «لا أعتقد ذلك... لا أعتقد أنكم قادرون على فعل شيء».

أصرّ تلاميذه: «نريد معرفة ما بك؟ معرفة ما الذي سبب لك الحزن والعذاب؟ لقد عرفناك قوياً صلباً، عرفناك قادراً على تخطي المصاعب».

بهدوء أجاب: «نعم هكذا عرفتموني... نعم... كنت هكذا... غير أني حلمت، ليلة أمس، حلماً أزعجني، حلماً هزّ كياني، جعلني، أشعر بأني لا شيء... حلماً جعل كل شيء يتلاشى».

- وهل يعقل هذا؟ مجرد حلم فعل كل هذا؟
- نعم... لكنه ليس مجرد حلم... إنه غير ذلك. شتتني ودمرني.
- هات إرو لنا... أي حلم حلمت؟
- حلمت بأني فراشة. قال شوانغ تزو.

ضحك الكل. فراشة؟... إنه حلم عادي... لا ضرورة للبكاء، ولا داعي للإحباط واليأس... إنه مجرد حلم قد يراود أي إنسان آخر... كثيراً ما يتحول البشر في الأحلام إلى أشياء غريبة، لكن الحلم يبقى حلماً.

- أعرف ذلك. وأعرف أن ما رأيته ليس سوى مجرد حلم، إنما المشكلة، تكمن في أنه جعلني أتساءل «من أنا؟» فإن كنت قد حلمت بأني فراشة، فهذا يعني، أنه قد تحلم فراشة بأنها شوانغ تزو... إذن من أنا؟ شوانغ تزو أم الفراشة؟... إنه تساؤل لا أجد جواباً له ... هل بمقدوركم الإجابة؟ من أنا، الفراشة أم شوانغ تزو؟

تعجب الجميع واندهشوا. أصيبوا بالإرتباك والضياع... منذ ملايين السنين، والناس تحلم وتحلم، بأحلام غريبة عجيبة، لا علاقة لها بالواقع، ولكن ما من أحد، أصيب بما أصيب به شوانغ تزو، ولا أحد تساءل، كما هو يتساءل...

تعالوا... إجلسوا، وحاولوا اكتشاف اللغز. من أنا ؟ شوانغ تزو أم الفراشة؟

نظر التلاميذ كلٌ إلى الآخر «هذا ليس بأمر عقلاني، إنه يتخطى حدود المنطق والعقل».

وبينما تلاميذه في حال من التشتت الفكري والضياع. وصل تلميذه ليه تزو lieh Tzu المقرب إليه. كان ليه تزو في قرية مجاورة، لكنه حين رأى معلمه يبكي في سريره والتلاميذ حوله في حيرة من أمرهم، أدرك أن لا بد أن أمراً قد حصل، فلم يسبق له أن رأى معلمه يبكي، فتساءل: «ما الأمر؟ هل توفي أحد عزيز على قلب المعلم؟».

وجاء جواب أحد التلاميذ: «لا... بل إنه يتحدث بسخافات وتفاهات. ونحن مجبرون على سماع سخافاته وتفاهاته وتحليلها وفقاً لما طلب منا، وأخبره قصة الحلم. فقال ليه تزو: «لا عليكم، ولماذا هذا القلق». وخرج وهو يردد «إبقوا مكانكم، فأنا عائد إليكم».

خرج ليه وأحضر دلو ماء بارد وسكبه على رأس معلمه الذي ما إن أحس بالصقيع حتى ضحك وهو يقول: «ليتك كنت هنا، لكنت وفّرت عليّ الدموع، وعلى هؤلاء الأغبياء الذين هم غارقون في التفكير، دون محاولة فعل شيء، لإعادتي إلى رشدي...».

صاح ليه تزو:

ـ هل أتابع سكب الماء أم أن المشكلة حُلت؟

ـ لا... توقف عن سكب الماء... لقد حُلت المشكلة. وأنت.... أنت وحدك يا ليه، تستحق أن تكون خليفتي.

هناك مئات القصص التي تروى عن شوانغ تزو، والتي تبرهن على أنه كان حاد الذكاء... لأنه ليس بمقدور أحد عادي، أن يبتدع قصصاً، كالتي كان يبتدعها، ورغم هذا، كانت تعاليمه سهلة، بسيطة، توصل إلى التنور. لقد تمكن من التفوق على أستاذه ومعلمه لاو تزو Lao Tzu، وتخطى مدارك بوذا.

ما من أحد، تبع شوانغ تزو، وثابر على رفقته، إلا ووصل إلى مرحلة التنور. كان يتابع حركات تلاميذه، ويحاول شحذ الهمم عندهم، كان يعذبهم، لأن العذاب - من وجهة نظره - هو الطريق إلى التنور. كان يفعل هذا، رغم ترداده «السهولة هي الصواب». لم يسبق لأحد قبله وتجرأ على قول هذا، الكل يعتقد أن الصواب هو من أصعب الأمور والوصول إليه شبه مستحيل.

لقد فُرضت على البشر عادات وتقاليد، متجانسة حيناً، ومتناقضة أحياناً، وكلها تقول بسهولة الوقوع في الخطأ، والإبتعاد عن الصواب... لكنها، ما حاولت أن تبرهن أن الوصول إلى الصواب هو أسهل من الوقوع في الخطأ. كل ما هو مطلوب منك ممارسة التمارين البسيطة، والإلتزام بالأخلاق، وكبت الشهوات وكبح الغرائز. باختصار، مطلوب منك، التخلي عن ملذات العالم الدنيوي، والإرتقاء بنفسك إلى مصاف الروح النقية الطاهرة.

الكذب سهل؛ أما الحقيقة فصعبة. هذا ما تعود الناس قوله واقتنعوا به. لكن شوانغ تزو، كان يقول غير ذلك، كان رجلاً يتمتع بالبصيرة القادرة على اختراق الأبعاد. كان دائم التساؤل، لماذ يعتقد الناس أن الوصول إلى الصواب، أمر شاق وشبه مستحيل؟ هل لأن غيرهم قال

هذا، وأقنعهم بما قال به. أم لأن الصعوبة تحفز «الأنا» وتشكل تحدياً لها؟

شكّل تسلق جبال الأفريست، تحدياً كبيراً لمئات البشر. ومئات ماتوا، قبل وصول إدمون هيلاري حياً إلى أعلى قمة جبل أفرست. كثيرون قبله حاولوا، لكن محاولاتهم باءت بالفشل.... وكثيرون قضوا نحبهم و لم يظهر لهم أثراً.

سئل ادمون هيلاري «ما الذي دفعك إلى خوض هذه التجربة الخطيرة؟ أما فكرت بالذين سبقوك، وبالذين ماتوا و لم يعثر أحد على رفاتهم؟» فأجاب: «نعم فكرت بهم، ولكن كان عليّ أن أحاول، لأن الأنا كانت تدفعني، ولأني أحب تسلق الجبال، وكنت أعتبر نفسي ذليلاً، لأني لم أصل إلى قمة الجبل، وأرفض الشعور بالإذلال والمهانة... لا يعتقدن أحد، أن اكتشاف أمر ما، هو بغاية البساطة، بل هو السعادة بعينها... هو الإحساس بالوجود، بالقيمة الإنسانية.

ولكنك ما وجدت شيئاً... تعذبت فقط... قال له أحدهم. فما الذي أسعدك.

ضحك إدمون هيلاري وهو يقول: «السعادة هي في كون الأنا أصبحت أكثر تنوراً. هي في أني أول من استطاع الوصول إلى قمة جبل أفرست، ولن يكون بمقدور أحد غيري أن يحل مكاني، لن يكون هناك أول غيري، بل سيكون هناك ثانٍ وثالثٍ ورابع. أما الأول فدائماً هو إدمون هيلاري. هكذا سيكتب التاريخ، وهذا ما ستصدفه ملايين البشر بعدي.

إذن أنت بفعلك هذا غذيت أنانيتك وأنعشتها.

ربما لم يكن هيلاري نفسه يعي كل ذلك، وأن كل ما هو صحيح لا بد أن يكون صعباً وهذا ما يجذب الناس، هذا ما يجذب الأنا. غير أن

الحقيقة والصواب لا يكمنان في الأنا... إنه التناقض الفاضح... إنه الصعب وحده ما يجذب «الأنا»، فإذا أردت أن يصبح الناس قدّيسين، يجب أن يكون الوصول إلى أهدافك وحقيقتك أمرٌ شديد الصعوبة؛ فكلّما ازدادات الصعوبة، كلّما انجذب الناس إليك أكثر وكلّما جذبت «الأنا» التي فيهم. ولكن في الواقع، إن شعور الأنانية هو أسوء ما يمكن أن يحصل للإنسان. ومن المستحيل أن يوصلك ذلك الشعور إلى الصواب والحقيقة؛ وهنا يمكن أن نفهم لِمَ يقول «شوانغ تزو» إن السهولة هي الصواب، ذلك لأن السهولة لا تجذب «الأنا». فاختيارك للطريق السهل يقتل «الأنا»، وحين تختفي أنانيّتك تكون قد وصلت إلى حقيقتك الفعلية؛ وطبعاً يجب على الحقيقة أن تكون طبيعيّة، وهذا أمر سهل. إذاً كن طبيعياً لتكن صحيحاً وعش بسهولة فتكون طبيعياً. لا تحاول أن تسير عكس التيار لأن ذلك صعب. إذاً أنت أمام خيارين، إما أن تختار الحياة السهلة والطبيعية وهنا تكون على صواب وإما أن تختار الطريق الخاطىء وتمشي فيه مدى العمر. احرص دوماً على ألا تنسى أن الصعوبة هي غذاء «الأنا» وأن «الأنا» تشكّل الحاجز الذي يجعلك أعمى لا ترى، أصمّ لا تسمع، ويقفل قلبك فيمنعك من الحب والفرح والرقص والغناء. لذلك على حياتك أن تكون سهلة، طبيعية وبسيطة فهذا سلاحك الوحيد ضدّ «الأنا»، وبهذه الطريقة تصبح إنساناً عادياً من دون تكلّف، أي طبيعياً بكل بساطة. فبالنسبة لشوانغ تزو، وبالنسبة لي أنا أيضاً، كل ما هو عادي يكون رائعاً فوق العادة. ومن يحاول أن يكون رائعاً فوق العادة يكون قد ارتكب أكبر خطأ. ليس عليك سوى أن تكون عادياً، فقط كن «لا أحد». ولكن شروط الحياة تفسدكم، فيُقال إن السهولة تعني الكسل، وأن الإنسان العادي هو إنسان مذلول، فإذا لم تبحث عن القوة والنفوذ والإحترام فلا معنى لحياتك؛ نعم هذا هو المنطق الذي تعلّمتموه وأُجبِرتم على الإقتناع به.

وقد لاحظنا أن «شوانغ تزو» يزيل تلك الشروط من خلال قصصه، ويدعوكم إلى عدم الإنجذاب للصعب، فيمكن باتباع الصعوبة أن تصبح وزيراً أو رئيساً ولكنك لن تصبح إلهياً. ولا تنسَ أن الطريق الصحيح للسهولة هو بأن تنسى الطريق الصحيح، فما الفائدة من التفكير بتلك الأمور وتذكرها على الدوام؟ استرخِ لأقصى درجة، وكن طبيعياً تماماً كالأشجار والطيور، فلن تجد بين الطيور قديساً وخاطئاً، ولن تجد شجرة طاهرة وأخرى رذيلة.

لطالما تمنيت أن ألتقي «شوانغ تزو»، فإذا سنحت لي الفرصة بمقابلة واحد من الصوفيين الذين طبعوا التاريخ لكان «شوانغ تزو» خياري من دون تردد. ومن الواضح أن الكثير من الناس فهموا تعاليمه وفلسفته بشكلٍ خاطىء، لأنه كان يدمر كل ما يُسمى بالوصايا الفاضلة؛ إنه فعلاً من أكثر الرجال التصاقاً بالطبيعية الذين عرفتهم العالم. فهو لم يعطِ دروساً في الأخلاق أو المذاهب والدين، بل اكتفى بتفسير أمرٍ واحد: إذا استطعت أن تكون طبيعياً وعادياً، تماماً كالطيور والأشجار، إذاً ستُثمر وستحلّق عالياً في الفضاء الواسع. لا يُطلب منك أن تكون قديساً فالقديسون أكثر توتراً من الخطأة، فقد تعرّفت إلى النوعين، وإذا خُيرت بين رفقة قدّيس أو رفقة خاطىء فسأختار الخاطىء؛ لأنه ليس هناك أسوأ من رفقة القديسين وتحمّل نظراتهم المليئة بالأحكام المسبقة: «عليك فعل ذلك وذاك...»؛ ويبدأون بالسيطرة عليك، يحكمون عليك ويعرّضونك للإذلال والإهانة لأنهم هم دائماً على حق أما أنت فلا. إنهم يسممون طبيعتك ويشوهونها بشكلٍ مخيف، لدرجة أننا إذا أردنا أن نبحث عن المجرمين الحقيقيين فسيتم القبض على أولئك القديسين قبل الخطأة. ويقول «شوانغ تزو» إذا شعرتم بأي توتر، إذاً ما تفعلونه خطأ وهو الرجل الوحيد الذي أعطى هذا المعيار: السهولة هي الصواب. فاسترح وكن

جزأ من عالمٍ مريح وانسَ كل ما يتعلق بالسهولة وكل ما يتعلق بالصواب. بالنسبة لي، هذا هو التنور بحد ذاته.

تروي القصة أنه عندما توفيت زوجة «شوانغ تزو»، جاء الإمبراطور معزياً؛ فقد كان الإمبراطور صديقاً له، حتى أنه كان يدعوه إلى القصر ليتعلّم حكمته. فكّر الإمبراطور بكل كلمة يمكن قولها لشوانغ تزو في هذه المناسبة التعيسة، ولكن ارتبك حين رآه جالساً تحت ظل شجرة، يعزف على آلة موسيقية ويغني بأعلى صوته بفرحٍ شديد. كان يبدو سعيداً جداً بالرغم من أن زوجته قد ماتت في صباح اليوم نفسه، فقال له الإمبراطور:

ـ من السيء جداً أنك تغنّي بهذه الطريقة بدلاً من أن تبكي وتندب زوجتك!

فسأله «شوانغ تزو»:

ـ ولِم عليّ أن أبكي وأندب؟

فأجابه الإمبراطور:

ـ يبدو أنك لم تعلم أن زوجتك توفيت.

فقال «شوانغ تزو»:

ـ بالطبع لقد ماتت، ولكن ما علاقة ذلك بالبكاء، لم أتوقع أبداً أنها ستعيش إلى الأبد، أنت تندب لأنك تتوقع وأنا لم أتوقع أبداً أنها لن تموت يوماً ما، فلطالما علمت أنها سترحل في يومٍ من الأيام وها هي الساعة قد دقّت، فلِمَ لا أغنّي؟ إن كنت لا أستطيع الغناء عند الموت إذاً أنا عاجز عن الغناء للحياة، لأن الحياة ليست سوى استمرار للموت.

الحياة والموت ليسا بالأمرين المختلفين، بل الأمر نفسه، ففي اللحظة

التي يولد فيها الإنسان، يولد الموت معه. «أضف أن المسكينة أمضت عدة سنين برفقتي، فلِمَ تريد منعي من أن أودّعها بالغناء والحب والموسيقى؟» أنت تندب فقط عندما لا يحصل الأمر الذي توقّعت حصوله وأنا لم أتوقع أبداً أنها ستبقى بجانبي إلى الأبد. وإن كنت تشعر بالفرح عندما تنجح بتحقيق أمرٍ ما إذاً من المستحيل أن تشعر بالحزن إذا فشلت مع أشخاص مثل «شوانغ تزو» وبوذا، لأنهم لا يعيرون أية أهمية للمادة مهما كان الأمر. فالشخص الذي يعيش بقناعة، لن يشعر بالفرق ما بين النجاح والفشل، بل يكون في حالة رضى دائمة في جميع الأحوال لأنه لا يأمل بتحقيق رغبات معينة.

وأتذكر بهذا الصدد نكتة أخرى عن «شوانغ تزو»، فقد كان دائماً يأتي أحدهم لإخباره بأي شيء يقول «جيد جدا» قبل أن يسمع الخبر. ومهما كان الخبر مأساوياً، فإذا قال له أحدهم: «توفيت زوجتي»، أو «تحطَم منزلي»، يقول لهم وكأنه لم يسمع: «جيّد، جيد جدا». ومرة قال له أحدهم: «لقد وقع إبنك عن الشجرة وكسر رجله» فأجابه «شوانغ تزو» كالعادة: «جيد جدا».

فبدأ الناس يفكرون أنه لا يعلم ماذا تعني كلمة «جيد»، وتجمّع كل أهل الضيعة وسألوه:

ـ من فضلك كن لطيفاً وأخبرنا ماذا تعني بكلمة «جيد»، ولِمَ تصف كل شيء بالجيّد؟ حتى أنك لم تهتم لوقوع ابنك الوحيد.

فقال شوانغ تزو:

ـ مهلاً! إن الحياة معقدة جداً.

وفي اليوم الثاني دخلت البلاد في حرب ودعي الشباب للإنضمام لصفوف الجيش والمحاربة، باستثناء إبن «شوانغ تزو» بسبب الكسر الذي تعرّض له في رجله. فعاد الناس إليه وقالوا له:

ـ يبدو أنك تستطيع رؤية الأمور بعمقٍ شديد، فقد تحوّل حادث ولدك بالفعل إلى أمرٍ «جيد».

فأجابهم:

ـ انتظروا! لا تكونوا على عجلة، فالحياة شديدة التعقيد والامور تجري فيها بسرعة!.

وكان إبن شوانغ تزو مرتبطاً بفتاة، سرعان ما رفضت عائلتها موضوع زواجهما لأن ما من أمل للشاب بالسير مجدداً بعد الحادث الذي تعرض له. فعندها قال الناس:

ـ يبدو أن الأمر كان سيئاً في نهاية المطاف.

فقال شوانغ تزو مجدداً:

ـ انتظروا ولا تكونوا على عجلة! فالحياة تتطلّب الصبر!

وفي الأسبوع المقبل ماتت الفتاة التي كانت ستصبح زوجة ابنه لولا اعتراض العائلة. فعاد أهل الضيعة وقالوا:

ـ ما الذي تفعله؟ إنك فعلاً تتمتع ببصيرة خارقة للطبيعة! هل توقعت أن الفتاة ستموت؟

ولكن شوانغ تزو تابع بالقول:

ـ اصبروا وانتظروا!

إذاً العبرة التي نأخذها من شوانغ تزو هي أن كل شيء جيد طالما لا نتوقع شيئاً وأن الحياة لا نهاية لها بينما صبرنا محدود جداً.

جورج كردجيف

اعتُبر جورج كردجيف، واحداً من أهم المتنورين في عصره، كان فريداً ومتميزاً جداً، لم يتكلم أحد عن الأشياء التي تحدث عنها، ولا اتبع الأسلوب الذي اتبعه، حتى صار يمكن القول، إنه يكاد يكون بوديدهارما أو شوانغ تزو آخر. كثيرون اعتبروه غير منطقي، لكنه، قدّم الكثير من الدلائل والبراهين حول تحرر الوعي الإنساني.

لطالما كان يردد «أنت تحيا داخل سجن مظلم» وكثيراً ما كان يعطي هذه الحقيقة، صورة أكثر قتامة فيقول «أنت السجن بحد ذاته». ولكن، كيف يكون هذا؟

ويأتي الجواب سريعاً، إن رغبت بالخروج من السجن، أو إذا رغبت ألا تكون أنت السجن بحد ذاته، فما عليك، إلا الإدراك أنك مسجون، أنك مكبل اليدين، مقيد الحركة، إنه مفهوم، على كل باحث عن الحقيقة أن يتذكره. لكن العقل البشري. يميل إلى إنكار هذا المفهوم. لماذا؟ لأنه لا يريد لأحد أن يعرف، إلا ما هو من شأنه أن يفرحه، لأنه يريد إخفاء حقائق كثيرة، قد تسبب له الإزعاج، حتى يصل إلى درجة، الإقتناع بما يحاول، إيهام الآخرين به... إنه يخترع الشيء، ويؤمن به، مع معرفته الكاملة، أن هذا، هو من اختراعه ليس أكثر.

يروي لنا كردجيف حكاية غريبة ونادرة؛ فيقول، كان هناك ساحر يعيش في غابة، ويمتلك قطيعاً من الخراف، هي مصدر غذائه، إذ كان

يعمد إلى نحر خروف، كلما استبد به الجوع وكان من الطبيعي، أن تشعر الخراف بالخوف والذعر، وتعبيراً عن هذا الشعور، كانت تحاول الإختباء عن الساحر، حتى لا يراها، فلا ينحر الخروف الذي تقع عليه عيناه، لكن الساحر. كان ذكياً، فصار يجتمع بكل خروف على حدة ويقول له «أنت خروف مميز عن الآخرين، إنك استثنائي، لذلك، أعتبرك وكأنك بركة من الله، وعليّ الحفاظ عليك.. فتأكد إذن، لن يصيبك أذى».

وكان يقول لخروفٍ آخر، : «ما بك تعتقد أنك خروف... أنت لست خروفاً، أنت نمر... أسد... فلماذا تهرب إذن؟ وحدها الخراف تهرب، مخافة أن تنحر، أما أنت، فلماذا تختبئ، أنت النمر، أنت الأسد، وعار على النمر أو الأسد، أن يخاف فالأسد ملك الغابة، وهل رأيت ملكاً، يختبئ من رعيته؟». كان يخترع لكل خروف حكاية، حتى لا يختبئ، وحتى يبقى سهل الوصول إليه، إذا أراد نحره. حتى أنه، لم يتوان، عن القول لأحدهم «أنت لست بخروف، إنك تنتمي لفصيلة بني البشر... إنك تشبهني إلى حد بعيد، لماذا تهرب إذن؟»).

هكذا سيطر الساحر على القطيع. فما عاد خروف هرب أو اختبأ، لكن الخراف بقيت خرافاً. فما أصبحت أسوداً أو نموراً أو من بني البشر... وظلت ترى الواحد ينحر تلو الآخر وكل واحد مقتنع «أنا لست بخروف، أنا أسد... أنا نمر... أنا بركة إلهية، أنا مميز واستثنائي، ولن يصل نصل السكين إلى رقبتي».

أراد كرجيف، من حكايته هذه، إثبات، أنك إن لم تدرك، أو تعي الحقيقة، فستكون كواحد من الخراف. عليك، إذن، أن تدرك، أنك مسجون، أسير أوهام وأفكار لا عد لها ولا حصر، وأنك أنت السجن الذي تسجن نفسك خلف قضبانه؛ وإن لم تعي هذه الحقيقة، فلا أمل

لك بالحرية. وكيف نتأمل بالحرية، وأنت أصلاً، مقتنع أنك حر، وأن لا قيود في يديك... إنك تماماً كالخروف الذي صدّق، أنه ليس خروفاً، بل هو مميز واستثنائي. إنه إنسان، أو أسد، لذلك، ما من سبب يدعوه إلى الخوف... إنه يتعايش مع الوهم، حتى أصبح الوهم حقيقية، مع أنه وهم... إنه نوع من أنواع التنويم المغناطيسي.

معظم الديانات، جعلت أتباعها في حالة نوم مغناطيسي، جعلتهم يؤمنون، أن أرواحهم خالدة، لا تموت. هذه حقيقة، لا أنكرها، ولكن المشكلة، أن الكثيرين لا يفهمون معنى خلود الروح، قيل لهم: «أنتم ملكوت الله». قول يدخل الفرح إلى النفوس، ويرسي الطمأنينة. لكن هذا الإيمان المطلق، يُفقد الإنسان الرغبة، في البحث عن الحقيقة، حقيقة أية معتقدات هي أمور لا جدال فيها، وأية معتقدات، هي مجرد أفكار إفتراضية، أو أشبه بما كان يقول الساحر لخرافه. قيل لكم ستمرضون، ستكبرون ويتقدم بكم السن، وأن الساعة ستأتي، دون أن يُقال لكم متى تأتي الساعة. وهل يُعقل أن يكون الله، سبب خوفك؟ أنت لست من اكتشف الله، بل زرعت فكرة وجوده في رأسك، فأمنت به إيماناً كلياً، وصرت تصدق كل ما يقوله الكهنة، دون محاولة منك لخوض تجربة البحث عن الحقيقة. لماذا؟ لأنه قيل لك: «عليك أن تؤمن بما تقول، وما نقوله هو الحقيقة، ولا شيء غيره يكون حقيقة». غير أن الحقيقة التي لا تقبل ردعاً ولا حجباً هي أن الايمان يشكل الممر نحو الحقيقة، وليس سدّاً، يحول دون وصولك إليها. المؤمنون، هكذا، لمجرد الخوف، هم أبعد الناس عن الحقيقة، لأنهم جعلوا من أنفسهم متعلقين بالأفكار والمفاهيم التي تعطى لهم، وليسوا باحثين. قالوا لك، عليك أن تكون عبداً وضيعاً وأن تعيش البساطة، هكذا أوهموك، وهذا هو سبب تعاستك وعدم حصولك على النور الحقيقي. إنك سجين ما تلقنته، ومتى تدرك أنك سجين، تجد نفسك تواقة للخروج من السجن، باحثة

عن طرق ووسائل للخروج من داخل جدران السجن، ونيل الحرية، كثيرون غيرك فعلوا هذا، مروا بذات التجربة، تجربة نيل الحرية، والخلاص من السجن وقيوده. وكثيرون نجحوا، لأنهم أدركوا أن السجن الذي وُضعوا فيه، ليس هو المنزل الآمن لهم، لأنك إن آمنت بأن سجنك هو منزلك، فهذا يعني أنك لن تحاول الخروج منه، كذلك إذا آمنت أن الحائط الذي يسد منافذ خروجك هو موضوع أصلاً لحمايتك، فلن تحاول التفكير بإيجاد طريقة ما، لتخطيه وتدميره. هذا يعني أن عليك أن تدرك، وهذا ما يشدد عليه جورج كردجيف.

يشدد كردجيف على أهمية الإدراك، ومن دون ذلك، لا مجال للوصول إلى التنّور. «إن كنت تظن أنك حرّ طليق، فلن تحاول الهرب».

قيل لك الكثير الكثير، حتى آمنت أنه الحقيقة. ولكن الحقيقة هي عكس ذلك تماماً. الحقيقة أنك تعيش في زنزانة، أو بالأحرى جعلوك تعيش في هذه الزنزانة، زنزانة الأوهام التي زرعوها في رأسك، تحوّلت السلاسل والقيود إلى حلي وزينة. لقد حوّلوك إلى شبه منوم مغناطيسياً. فما أدركت أنك سجون، وهكذا لم تستطع الوصول، إلى التنور والإنطلاق في الحياة، حرّ النفس، طليق الأفكار.

إن أول أمر عليك إدراكه، هو أنك تعيش داخل سجن كبير، وساعة تدرك هذا، ستبدأ البحث عن طرق ووسائل للخروج إلى العالم الأرحب، عالم الحرية. فما من أحد يرتضي أن يبقى عبداً، إنه أمر منافٍ لأبسط القواعد الإنسانية... هكذا تجد نفسك أمام معضلة فكرية صعبة. أمام خيارين لا ثالث لهما. فإما أن ترتضى العيش داخل السجن الذي وضعوك فيه، وإما إدراك أنك مسجون، وأن عليك الخروج من هذا السجن، الإدراك هو أساس فكر كردجيف، الذي طالما خاطب الآخرين قائلاً: «لماذا تريدون أن تولدوا أمواتاً؟ تأكدوا إن أنفسكم

تواقة للحرية، ويصعب على الموت تدميرها. لكن هذا متوقف عليكم».

موقف كردجيف هذا، أزعج الذين يدّعون أنهم ممثلو الله على الأرض... يقول كردجيف «أنت بذرة، ولكن كيف ستنمو هذه البذرة؟ كيف ستزهر وتنبت، إن لم تُزرع في تربة صالحة؟... هذه هي مسؤوليتك... أن تجد التربة الصالحة. التربة الغنية بالغذاء، لتنبت البذرة، لتتحول إلى شجرة مثمرة وارفة الظلال... وإن استمريت معتمداً على الآخرين، ستجد نفسك تخسر الحياة، ليس مؤقتاً، بل إلى الأبد.

كان كردجيف في التاسعة من عمره، حين فقد والده الذي كان فقيراً جداً. وقبيل وفاته، أجلس الوالد ابنه إلى جانبه وقال له: «اسمع يا بُني... أنت ما تزال صغيراً جداً، وقد لا تفهم ما سأقوله لك الآن، لذا ما عليك إلا أن تتذكره دائماً، فسيأتي يوم تتمكن من فهمه، ومتى تمكنت من ذلك، تكون قادراً على تطبيقه، وتحويله إلى أمر واقع ملموس. أنا يا ولدي، لا أملك شيئاً أورثك إياه، لا مال، لا منزل، ولا عقارات. لذا، كل ما هو بمقدوري أن أزودك به هو الحكمة. إن أقدم يوماً ما إنسان على شتمك، أو توجيه الإهانة إليك، إصغ إليه بصمت، واعرف السبب الذي جعله يوجه الإهانة إليك أو يشتمك. لا تنفعل ولا تغضب، بل اشكره، لأنه يفعل ما يؤكد مدى اهتمامه بك. اشكره، وقل له «لن أجيب الآن، بل غداً... أنا الآن غير قادر على فهمك، وفهم السبب الذي أجبرك على شتمي»... وقل له: «هذا ما علمني إياه أبي. ألاّ أعطي جواباً قبل أربع وعشرين ساعة، أربع وعشرين ساعة أمضيها في التفكير والتأمل».

ومرت السنوات،وكبر كردجيف، حتى أصبح مدركاً لما أوصاه والده به، فخاطب أتباعه قائلاً: «إنه قول بسيط، لكنه مشبع بالمعاني...

علمني الكثير... فهل يُعقل أن يستمر المرء غاضباً ليوم بكامله؟ لا أعتقد ذلك. إذن، وبعد التفكير لأربع وعشرين ساعة، سنكتشف أمراً من اثنين، إما أنه كان محقاً في شتمك وإهانتك، وهذا يستوجب منك إصلاح الخلل في ذاتك، ولا يحق لك الرد عليه بمثل ما قال، وإما تكتشف أنه كان على خطأ، وأنه كان منفعلاً لسبب تجهله، إذن، لا ضرورة للرد عليه. ولماذا تزعج نفسك في أمر لا علاقة لك به؟».

كذلك، علّم كردجيف تلاميذه، أن يبحثوا عن ذواتهم، دون الإهتمام بالآخرين، إن بكيت، لا عيب في ذلك... تابع البكاء، ولكن تساءل «لماذا أنا أبكي؟» لا تحاول قمع نفسك، فالقمع لن يمنع الدموع من أن تتساقط من عينيك... فعلاً ستكون تجربة رائعة، أنت تبكي... ولا تحاول منع نفسك عن البكاء، وكأنك تراقب نفسك بنفسك دون تدخل... ومتى تمكنت من مراقبة نفسك بحياد تام، تكون تحقق وجودك... أنت، على هذه الأرض، لست سوى شاهد، راقب نفسك وأنت تبكي، أو وأنت تضحك أو تمشي أو تأكل أو تركض أو تمارس الجنس، فقط كن مراقباً؛ ولا تنصهر فيما أنت تراقب. إذا شعرت بالجوع، تقول «أنا جائع» ولا تقول «أنا هو الجوع» لأنك إذا نظرت إلى داخلك، ستعرف أنك أنت لست الجوع، بل الجوع حالة تصيبك. من غير المنطقي أن تكون أنت الجوع، وإلا ستختفي بعد اختفاء حالة الجوع... هل ستتبخر، بعد أن تأكل إلى مرحلة الإشباع؟... لا ستبقى أنت أنت، وحده الإحساس بالجوع سيزول.

أن تشعر بالجوع أو بالشبع، أن يأتي فصل الصيف، ومن ثم فصل الشتاء، هذه أمور طبيعية. ليس بمقدورك القضاء عليها أو التحكم بها، ولا الوقوف في مواجهتها. إن شعرت بالجوع، حاول تجاهل الأمر، دع جسدك يتألم ويتعذب. تذكر أنك جائع، ولكن لا تحاول قمع جسدك

ولا تجبره على عدم الشعور بالجوع بل تقبّل الواقع، ولكن قل له في الوقت عينه: «لن أنفّذ رغبتك ولن أسدّ جوعك. فاشعر بالجوع وتعذّب! فلن أحرّك ساكناً ولن أتأثر بتوسّلك الدائم ولن أعيرك أي اهتمام».

إن تمكنت من فعل هذا، تكون قد بدأت بملء الثغرات، وجعلت مسافة بينك وبين جسدك، ولكن إذا حاولت أن تشغل تفكيرك بأمرٍ آخر، كالذهاب إلى الهيكل مثلاً، أو الغناء بغية أن تنسى جوعك، فهذا يعني أنك لم تفهم الموضوع كما يجب. بل يجب أن تدرك أن جسدك جائع وألا تقع في الفخ. بعض الناس يمارسون الصوم ولكن من دون جدوى، لأنهم يحاولون أن يشغلوا أنفسهم بأي شيء خلال فترة الصوم، كي ينسوا الجوع ولا يشعرون به. إذاً عليك أن تشعر بقوة الجوع، فلا تهرب منه ولا تكبته ولا تتصادم معه. وهنا يمكن أن نعطي مثلاً آخر، فإذا غضب منك أحدهم على سبيل المثال، سيبدأ عقلك بالتفاعل مع الغضب. فقلْ: «لن أقع في الفخ». كن متحفظاً ولا تبدِ اهتماماً لشعور الغضب ذاك، فستشعر أنه منفصل عنك، أنه يحيط بك ولكنه ليس أنت بحد ذاتك ولا ينتمي إليك، كأنه دخانٌ يحيط بك، يغريك ويجرّبك. وبالفعل هذا هو المعنى الحقيقي للتجربة، فليس الشيطان من يجرّبك بل إنه عقلك الذي يقول لك إن هذه هي الطريقة المناسبة والملائمة للتصرف. والملائمة هي التجربة بحد ذاتها، إنها بمثابة الشيطان، فهي من يحثّ عقلك على أن يقول لك: «كن غاضباً!» وقد اعتدت على تنفيذ أوامر العقل الذي يسيّرك. ولكنك إن توقّفت لبرهة وقلت له: «حسناً، إن الغضب موجود في الخارج، وهناك شخص غاضب مني وأنت تقترح عليّ ردة الفعل المعتادة ولكني لن أنفذ طلبك هذه المرة، فسوف أبقى هنا وأراقب ما يحصل».

فجأة ستغيّر الوضع بشكل جذري، فسيقتل عدم تعاونك هذا العقل. لأن التعاون هو ما يغذيه ويبعث فيه الطاقة والنشاط. ولن تدرك أن هذه الطاقة ملكٌ لك إلا عندما يبدأ الفكر باستخدامها. إن تلك الطاقة كاملة ونقية وتخوّلك أن تدخل إلى عمق المجهول، شرط ألا تتحد بالفكر وإلا فستتخذ شكل الرغبة لا الطاقة.

كتب كردجيف ثلاثة كتب، لم يُنشر منها سوى واحد عندما كان لا يزال على قيد الحياة، ويمكن تشبيه كتاباته بالكابوس! فلا أعتقد أن أي شخص سيقرأ كتابه «الكل وكل شيء» إن لم يكن مجنوناً مثلي. إنه بالفعل كتاب عن كلّ شيء، كتابٌ مؤلّف من ألف صفحة عن كل شيء. حتى أت كردجيف نفسه كان يشك أن يفهم الناس معاني ذلك الكتاب. أسلوبه غريب جداً. والملفت في الأمر هو أنه كتب كل صفحات كتابه في مقاهي باريس التي تعجّ دائماً بالناس، وهذه فعلاً طريقة مميزة. فلا يعني شيئاً أن تذهب إلى الهيمالايا لكي تنعزل وتكتب، لأن ذلك لا يدل على أنك تكتب بكامل وعيك وإدراكك، فيمكن أن تغفو وتتابع الكتابة، يمكن أن تكتب وأنت تحلم، فما من شيء يزعجك هناك.

كل كتابات كردجيف كانت في مقاهي باريس التي تعجّ بالناس والموسيقى والرقص والضجيج. وقال له تلميذه مرة: «كان بإمكانك أن تجد مكاناً أفضل، مكاناً جميلاً جداً تذهب إليه، خارج باريس، فلِمَ تكتب في هذا الضجيج حيث لم يكتب أحد من قبل؟ على الأقل لم على الأقل المواضيع الدينية التي لا تكتب في ظروف كهذه». ولكنه أصرّ على الكتابة هناك، وكان كل ما كتب فصلاً أعطاه لتلاميذه كي يقرأوه وإبداء رأيهم، فإذا فهموه، كان يجري تعديلاً عليه ويقول: «إن استطاع هؤلاء الأغبياء فهمه، فهذا يعني أنه لا يستحق عناء الطبع والنشر».

وكان يعيد كتابة الفصل نفسه ما يقارب مئة مرة ويعيد قراءته للتلاميذ كل مرة، فكانوا يشعرون بالملل والتعب بسبب ذلك، حتى أخذ الكتاب حوالى ثلاثين سنة لينتهي. وظل غير متأكد من مدى فهم الناس لذلك الكتاب، فقال الناشر: «عندما يأتي أحدهم لشراء الكتاب، تقص منه أول مئة صفحة وتعطيه إياها، فإذا فهمهما يعود لأخذ التسع ماية الباقية، وإلا يعيد أول مئة صفحة ويسترجع نقوده إن لم يفهمها». وكما كان متوقعاً، استرجع أغلب الناس نقودهم وأعادوا الكتاب. الغريب في الأمر، أنه لم يحدد سعراً للكتاب، فكان يبيعه للبعض بألف دولار ويعطيه للبعض الآخر مجاناً. فمن يراه مهتماً بالكتاب وجديراً بقراءته يقدمه له كهدية. أما من الثريّ المقامر فلِمَ لا يطلب عشرة آلاف دولار؟

وكان التلاميذ يستغربون ذلك ويقولون له: «يمكنك تحديد سعر ثابت بدلاً من أن تجلس في المتجر لتحكم على الزبائن. هل تريد أن تبيع الكتاب أو تشتري الزبائن؟».

لكنّ الكتاب كان فعلاً مميزاً جداً ويتمتع بأسلوب غريب، لا يمكن أن نجده في أي كتاب آخر، فقد استعمل كردجيف كلمات غريبة. مزج بين عدة لغات مختلفة وذلك بغية اختبار ذكاء وصبر القارئ؛ فإذا قررت أن تقرأ الكتاب من أول إلى آخر صفحة فسيكون الأمر مكلفاً جداً لأنك سرعان ما ستشعر أنك أمام مهمة جد صعبة، لفكّ تلك الرموز المبطّنة وفهم تلك الكلمات المستحيلة! ولكن عندما تبدأ برؤية الكلمات نفسها تتكرر في الكتاب سوف تتآلف معها شيئاً فشيئاً. لن تستطيع أن تفسر معناها ولكن ستشعر أن لها معنى على الأقل. وبهذه الطريقة يختبر الكاتب ثقافتك التي ستقول لك: «توقف عن القراءة فلا معنى لكل هذا». وبالفعل سيبقى الكتاب تافهاً وخالياً من كل معنى. ويخبر أحدهم. أن واحداً من ألمع المتخصصين بالرياضيات، يدعى

«أوسبنسكي» Ouspensky كان راغباً ومتحمساً جداً لرؤية «كردجيف». فأتى به واحد من تلاميذ كردجيف بعد أن طلب منه مراراً وتكراراً وحصل في النهاية على الموافقة. وفي ليلة من ليالي روسيا الباردة، كان الثلج يتساقط بغزارة، وصل «أوسبنسكي» وكان «كردجيف» جالساً ينظر إلى الأرض، ومن حوله يجلس عشرون شخصاً بنفس الطريقة ينظرون إلى الأرض أيضاً. فانضم إليهم الرجل الذي أحضر «أوسبنسكي» الذي لم يعره أحد أي اهتمام. فقال «أوسبنسكي» في نفسه إنها ربما هذه هي طريقتهم باستقبال الضيوف، فجلس بنفس الوضعية وراح ينظر إلى الأرض. لكنه كان يتساءل: «ماذا أفعل هنا؟ لقد جاء بي الرجل لكي يعرّفني إلى «كردجيف»، لا بد أنه ذلك الذي يجلس في الوسط، ولكنه لم ينظر إليّ حتى؛ وبعد... ما الذي يبحثون عنه على الأرض؟ فالأرض نظيفة ولا شيء عليها!».

مرت الدقائق وبدت كأنها ساعات طويلة، وكان يخيّم ظلام وصمت الليل على المكان، لا يخترقه إلا نور الشمعة الخافت، وصوت الثلوج المنهمرة في الخارج... ولا يزال أولئك الناس يجلسون على حالهم. مرت نصف ساعة وبدأت الأفكار تتسارع في عقله وبدأ يشعر بالغضب والملل: «ما الذي يحصل؟! وما الذي أفعله هنا؟» وفي هذه اللحظة قال له «كردجيف»: لا تقلق، فقريباً ستجلس معنا بنفس الطريقة من دون أن يزعجك شيء. فهم قد تعلّموا كيفية الجلوس مع معلّم... أن يجلسوا بطريقة تجعل وعي كل واحد مع الآخر. فلا يجلس هنا واحد وعشرون شخصاً، بل واحد وعشرون جسداً وروح واحدة فقط. ولكن ذلك سيستغرق بعض الوقت معك. أرجو أن تسامحني لجعلك تنتظر نصف ساعة، لا بد أنك شعرت أنها أيام! والآن خذ هذه الورقة واذهب إلى الغرفة الأخرى واكتب على الجهة الأولى الأشياء التي تعرفها وعلى الجهة الأخرى تلك التي لا تعرفها. وتذكر أن كل ما تكتب أنك تعرفه

لن نتطرق إليه مجدداً وسيعتبر أمره منتهياً فهو ملك لك ولن أتدخل فيه. أما ما لا تعرفه فسيشكل الجزء الوحيد الذي سأعلّمك إياه».

ارتجفت يدا «أوسبنسكي». للمرة الأولى يفكّر بوعي كامل بالأشياء التي يعرفها. فكتب عن الله وعن الجنة والجحيم وعن الروح وتقمّصها؛ ولكن هل هو متأكد أنه يعلم كل ذلك؟ فجلس في الغرفة الأخرى مع الورقة والقلم في يده، وكان يتأكد للمرة الأولى في حياته من الأشياء التي يعرفها فعلاً وتلك التي لا يعرفها. وخرج بعد دقائق ومعه ورقة بيضاء فارغة وقال: «لا أعرف شيئاً، عليك أن تعلّمني كل شيء». فأجابه «كردجيف»: «ولكنك كتبت عدة كتب، ولا أظن أبداً أن شخصاً لا يعرف شيئاً يمكن أن يكتب كتباً جيدة ككتبك». فقال «أوسبنسكي»: «سامحني، لست معتاداً على الطريقة التي تتبعها في العمل، ولكنك بدقائق بسيطة جعلتني أدرك مدى جهلي. وأود أن أبدأ من الصفر. سامحني لأنني كتبت تلك الكتب، لا بد أنني كتبتها وأنا نائم. لأني أرى الآن أني لا أعرف شيئاً عن الله. لقد قرأت الكثير عنه ولكن ذلك لم يكن معرفة. ولا أريد سوى معرفة شيء واحد: ما الذي يحصل هنا؟».

ابتسم كردجيف لضيفه وهو يقول: إنها طريقة الوصول إلى الفراغ، فلا يمكنك أن تضع شيئاً في صندوق مملوء بأشياء وأشياء، قد تكون متجانسة أو متنافرة. هكذا نحن البشر، لسنا بحاجة لمن يعلّمنا، بل لمن يساعدنا على إيجاد المعرفة. ونحن هنا، لسنا لنقول لك، أو لغيرك، إفعل كذا أو كذا، بل علينا مساعدتك لجعلك تكتشف المعرفة بنفسك، ولسنا نحن من نقدم لك المعرفة، وإلا سنكون نملي عليك ما نريده نحن وليس ما تريده أنت.

كثيرون، وكثيرون، أتوا للتعرف إلى كردجيف وأسلوبه وسرعان ما

كانوا يغادرون، عائدين من حيث أتوا وجدوا أنفسهم عاجزين عن فهمه، وفهم أسلوبه وطريقته، إذن لماذا البقاء؟

قال لأحدهم مرة: «عليك اليوم حفر حفرة بطول عشرين قدماً وعمق أربعة أقدام وعرض قدمين، عليك فعل هذا دون توقف، حتى ولو لاحتساء فنجان قهوة أو الذهاب لدورة المياه» فأدرك هذا الشخص الغاية من طلب كردجيف فقال لنفسه «كلما أسرعت بإنجاز العمل، كلما أسرعت بنيل حريتي... وكلما تحررت من عبء العمل بسرعة». وما إن اقتربت الشمس من ساعة غروبها، حتى كان هذا الشخص قد أتم فعل، ما طُلُب منه، لكن كردجيف طلب منه إعادة الحفرة، إلى ما كانت عليه قبل الحفر، «وبعدها سأحررك». يا إلهي قال التلميذ متعجباً ومضى يقول «ماذا يريد معلمي، ولماذا طلب مني أن أحفر، إذا كان يريدها الآن، كما كانت؟ أي عذاب هو هذا؟».

وبعد اختلاء التلميذ مع ذاته، أدرك أن معلمه يريد استغلال كامل قدراته وطاقاته، حتى يصل إلى الطاقة الكونية، طاقة تمكن صاحبها من صنع المعجزات. أثناء الحفر شعر بالتعب والإعياء، لكنه رغب بالمتابعة، فأحس أن الطاقة تتجدد في جسده، فأكمل عمله، حتى أتم ما طُلب منه، أدرك، أن كردجيف مؤمن بتجدد الطاقة. لو أمضيت يوماً تعمل بلا كلل، حتى أعياك التعب، وأحسست أنك بحاجة للنوم، وإذ بالنار تلتهم منزلك. هل تستسلم للنوم أم تشعر أنك بكامل قواك، وتهب لإطفاء الحريق؟ لا شك ستمضي الليل وأنت تحاول إطفاء النار دون الإحساس بالتعب... إنها الطاقة المتجددة... أو الطاقة التي تستجيب للنداء. وهكذا تتجدد الطاقة كلما دعت الحاجة حتى بلوغ أقصى درجاتها. درجة الطاقة الكونية القادرة على صنع المعجزات... ولكنك لن تصل إلى هذه المرحلة. كثيرون يأتون ويرحلون دون تخطي المرحلة الأولى، مرحلة الطاقة غير المتجددة.

كريشنا

تمكن كريشنا من سبر غور الدين، وتمكن من الوصول إلى عمق أعماق مفهومه، رغم هذا، لم يكن كريشنا جدياً صارماً، ولا إنساناً حزيناً... كما كان متعارفاً عليه، كان الحزن الصفة الأساسية لرجل الدين، إضافة إلى الجدية، حتى كان يبدو، وكأنه جندي خارج مهزوماً من معركة الحياة الدامية، فأراد الإنتقام لهزيمته. ليس من الحياة وحسب، بل ومن نفسه التي هزمت، فقدّس الحزن ومجّد عذاب النفس. كريشنا لم يكن هكذا، لقد جاء إلى هذا العالم وهو يرقص فرحاً، يغني ويضحك.

تنكرت الديانات القديمة للحياة، وأنكرت وجود فرح وسعادة وسرور، واتخذت من العذاب والحزن والصرامة أسساً لها، وجعلتها شروطاً تُفرض على المؤمنين؛ باستثناء كريشنا. الذي جاء ينادي بميلاد ديانة جديدة، معلناً، موت الديانات القديمة، وحتى موت الآلهة القديمة، آلهة المفاهيم البالية. قبل كريشنا، كان رجال الدين لا يعرفون للفرح معنى، ولا للسعادة سبيلاً، كان مثال الجدية والصرامة، ودعاة للحزن والتعاسة... لم يكن مسموحاً، تقبل الحياة بوجهيها، المشرق منها والمظلم ولا تقبلها بمرّها وحلوها.

قيل وحتى المسيح، ما رأينا له صورة وهو يبتسم، أو يضحك، وكيف يمكننا ذلك، ونحن لا ننظر إلى صورته. على الصليب

مثخناًبالجراح، أو بين تلامذته في لوحة العشاء الأخير، وهو يعلن «أن واحداً منكم سيسلمني». كيف للمثخن بالجراح أن يتسم، وللمعذب نفسياً بسبب خيانة أحد تلامذته أن يضحك؟

بالمعنى الضيّق للكلمة، حتى مهافيرا وبوذا، كانا ضد الحياة، كانا يعرفان أن للحياة وجهين، لكنهما ما نظرا إلا لوجه واحد وأنكرا وجود الآخر، على عكس كريشنا. الذي قال بضرورة التعامل مع وجهي الحياة: والذي شدد على ضرورة تقبل الحياة كما هي، وهذا ما دعا الهنود إلى تمجيده وتأليهه، واعتباره متحداً بالله، وهذا ما لم يحصل مع أحد غيره، حتى راما Rama، لم ينل هذا المستوى من التمجيد والتسبيح؛ والسبب في ذلك، عائد لمناداة كريشنا بتقبل الحياة كما هي، والتعامل معها على هذا الأساس.

وصف ألبيرت شويتزر Alber Schwaitzer ديانات الهند القديمة، بالديانات المتنكرة للحياة... إنها ملاحظة في موقعها، شرط استثناء كريشنا، الذي لو حاول شويتزر التعمق في دراسة مفاهيمه والتعرف إلى أفكاره، لما كان جعل مقولته هذه عامة شاملة لجميع ديانات الهند القديمة.

إلى جانب كريشنا، كان هناك رجل آخر يشبهه، إنه زارا توسترا Zara Thustra، الذي قيل عنه «كل أطفال العالم ولدت وهي تصرخ وتبكي، باستثناء طفل واحد، ولد وهو يبتسم ويضحك... إنه زارا توسترا Zare Thustra وهذا دلالة، على ميلاد مفهوم جديد للدين والديانات، وبداية الدعوة للفرح والسعادة، كما إلى تحمل الألم والوجع. إنها بداية ولادة الإنسانية السعيدة.

حدّدت الديانات القديمة الطريق إلى الله، ووضعت شروط سلوك هذه الطريق، ورأت أن القمع هو أقرب الطرق لله، لذا فرضت على أي

إنسان، عدم التعرف إلى السعادة ولا إلى الفرح، فرضت عليه قهر جسده وروحه، فرضت قمع شهواته وكبت رغباته الجنسية، كبت غضبه، والسيطرة على جشعه وطمعه وطموحه، لأنه هكذا يكون يسعى لإيجاد روحه والوصول إلى الله، للتقرب إليه والتبرك به. إنها حرب طويلة الأمد، خاضها الإنسان، لا ضد الآخرين والحياة، بل ضد نفسه، ضد جسده، ضد رغباته وطموحاته، ضد مشاعره وأحاسيسه، قليلون جداً جداً، هم الذين تمكنوا من الإنتصار في هذه الحرب، قليلون، لا يزيد عددهم على أصابع اليد الواحدة.

ملايين البشر، بل البلايين، جاؤوا إلى هذه الدنيا ورحلوا عنها، دون التمكن من التعرف إلى أرواحهم، ولا التقوا الله. لماذا؟ سؤال منطقي... والجواب المنطقي يقول، إن هذا حدث، ليس بفعل الذين سعوا للوصول إلى أرواحهم ومن ثم التعرف إلى الله، بل بسبب خلل ما، داخل بنية تلك الديانات، خلل، لم يسمح للآخرين الوصول إلى حيث يريدون.

إن مثل هذه الديانات، هي كمثل المزارع الذي زرع خمسين ألف شجرة، فما أزهرت منها إلا شجرة واحدة. لماذا؟ قد تكون هذه الشجرة، استثنائية، وأنها أزهرت وأثمرت، ليس بفضل ما قدمه المزارع لها، بل من تلقاء ذاتها، ورغماً عن إرادته، وإلا، لماذا لم تزهر الخمسون ألف الأخرى؟ الكل زرعها واحد، وهو ذاته اهتم بها، فلماذا لم تزهر وتثمر إلا واحدة؟ لأنه دليل على عدم اهتمام المزارع بها، أو أنها زرعت في تربة غير صالحة للزراعة. أن تزهر شجرة واحدة، هو استثناء وخروج عن القاعدة التي تقضي أن تزهر كل الأشجار وتثمر، باستثناء واحدة أو اثنتين أو عشرة ليس أكثر، هكذا يمكننا القول، إنه مزارع ناجح... وما ينطبق على هذا المزارع ينسحب على الديانات أيضاً، إذ

من غير المعقول، اهتداء قلة قليلة إلى الله، وبقاء الأغلب الأعم في الضلال، إلا بسبب خلل ما في بنية المؤسسة الدينية. ولا ريب أن هذا الخلل، تمثل في كبت الشهوات وقمع الجسد.

بعد آلاف السنين، جاء فرويد بمفهوم جديد، وقال مقولة جديدة، الكبت جريمة نكراء، والأبشع هو القمع؛ إنهما لا يجديان نفعاً، إنهما سبب الإشفاق على الذات الإنسانية.

إذا حارب إنسان نفسه، فماذا سيجني؟ إنه يدمر نفسه... لو سمحت ليدي اليسرى أن تحارب يدي اليمنى، فماذا ستكون النتيجة؟ حتى ولو انتصرت اليد اليسرى، ماذا ستكون النتيجة؟ لا شك ستكون خاسرة لأن اليد المنهزمة هي يدي أيضاً؛ هذه حال من يحاول نكران ذاته وقمع غرائزه وكبت مشاعره وأحاسيسه إنه كمن ينتحر، كمن يقتل نفسه بنفسه.

هذا، أيضاً، ما كان يؤمن به كريشنا، فعل ذلك قبل فرويد، بأجيال وقرون، كان ضد القمع، كان مع تقبل الحياة. بمرها وحلوها، وبدون أي شرط، ليس للمرء أن يختار نوعاً من الحياة يناسبه، أو يعتقد أنه يناسبه، بل عليه تقبل الحياة، دون أية شروط، فممارس الحب، ولا تهرب من المرأة، وكواحد، تعرف إلى الله، وعمل من أجله، لم يدر ظهره للحرب، بل واجهها. كان مفعماً بالحياة والحيوية، مؤمناً بالحب، مدركاً أهمية المشاعر والأحاسيس، وبالوقت ذاته، امتلك الشجاعة لمحاربة العنف، ومقاومة الحروب والدعوة إلى السلام. هذا هو من عرف الله واختبره... إن من يدرك تفاهة الموت، لا يخافه، ومن يدرك أهمية السلام، لا يخشى العنف، وإلا أي نوع من اللاعنف، هو الذي يخشى العنف. ويخافه؟ وكيف للروح، للنفس، أن تخافا الجسد وتهربان منه، مع أنه وعاءهما؟

الإنسان جسد وروح... إنها الإزدواجية التي تقبلها كريشنا، وآمن بجديتها. وهنا يكمن سر سمو الحياة... في جديتها. ومن غير اليسير الوصول إلى مرحلة السمو هذه، طالما أننا نعيش في صراع مع ذواتنا، وطالما أننا، نتقبل وجهاً للحياة ونرفض الآخر. السمو يعني تقبل الحياة بوجهيها، بتقبلها، على أنها كل لا يتجزأ. هذا هو السمو الحقيقي، إنه التعالي عن الرفض، عن رفض ما لا نريده وإنكار وجوده.

هناك حقيقة يجب أن تُقال: من الصعب جداً أن نتفهّم كريشنا. من السهل جداً أن نتفهم رغبة إنسان في العيش بسلام، فينزوي بعيداً عن العالم، يختلي بنفسه فلا يختلط بأحد، ولكن من الصعب جداً، أن نتفهم هذا الإنسان الباحث عن السلام، عن الهدوء، عن السكينة، وسط الزحام، من السهل جداً، أن يحافظ كائن ما على نقاوة روحه وطهارتها، طالما هو بعيد عن الناس، فلا شيء يغريه أو يغويه، ولكن كم هو صعب على هذا الكائن، أن يستمر نقياً طاهراً وهو بين بشر تتآكلهم الخطيئة، بين بشر، مشدودين إلى اللذة.

ليس غريباً ولا عجباً، أن تستمر الشمعة بالإشتعال طالما هي في غرفة بعيدة عن الريح ومجرى التيارات الهوائية، من هنا، قد لا يصدق البعض، أن هذه الشمعة، قد تبقى مشتعلة رغم تواجدها في مكان معرض للعواصف والريح، هذه هي حال، حتى أقرب المقربين من كريشنا، الذين أصابهم الذهول. كيف يتمكن كريشنا، من الإحتفاظ بنقائه، وسط عالم لا يعرف النقاوة؟ كيف يكون كزهرة لوتس، وسط بحيرة ماء؟ لقد ثبت لهم، أنه الإنسان المفعم بالمشاعر، المنادي بالحب حتى وسط مساحات المعارك، وأنه قادر على وهب كليته للحب، بينما يشهر شيفاً في يده.

بسبب هذا التناقض، إحتار أتباعه والآخرون احتاروا أي كريشنا

يتبعون، كريشنا المنادي بالحب، أم كريشنا المشاهر السيف، لقد جعلوه اثنين، وكل واحد أحب فيه ما راق له وتلائم مع أهوائه. نادرون جداً، الذين أحبوه كما هو. حتى الكهنة، مجدوا كريشنا الطفل... فما من ضير أو مشكلة، أن يتغزل الطفل بالفتيات الصغيرات، لكن هذا ممنوع في سن الشباب وما فوق... قد يتسبب بمشاكل أخلاقية. رفضوا، ضمنياً أن يكبر كريشنا... أرادوه أن يبقى طفلاً.

اختبر كريشنا الحياة، فرأى، أنه ليس صعباً على المرء أن يعيش حراً طليقاً في عالم مملوء بالقيود، وبالوقت ذاته، يستطيع هذا المرء، أن يعرف الحب، أن ينغمس في الحب، دون اهتمام، أو اكتراث لما تواجهه من صعوبات وعقوبات.. وإلا لماذا هو إنسان؟

بسبب هذه الأفكار الغريبة، لم يقدم أحد على عبادته كطفل... لقد قسموه إلى نصفين، وهذا مناقض لما يؤمن به هو. آمن كريشنا، بتقبل الحياة، كما هي، تقبلها بوجهيها، المشرق والمظلم. ما من أحد يتقبل وجود المتناقضات في ذاته، إلا كريشنا. أحب الشيء ونقيضه، أحب الليل والنهار، الصيف والشتاء، السلام والحرب، الحب والعنف، الحياة والموت، كل هذه تقبلها معاً.

من جهة أخرى، لم يكن لحياة كريشنا حدود، لا حواجز، ولا عوائق أو قيود، إنه حر، حر إلى ما لا حدود للحرية، لا شيء يمنعه من القيام بما يرغب القيام به... الحرية عنده هي الحياة، والحياة مسؤولية، وتحمل المسؤولية يتطلب تنوراً عقلياً واختباراً للأمور.

اختار العزف على الناي... أراد إدخال الفرح إلى قلوب البشر المعذبين. هكذا أصبحت ناي كريشنا، نقيض صليب المسيح الذي يرمز إلى العذاب وتحمل الآلام. ليس هذا وحسب. الناي نقيض الصليب في حرية الإختيار. كريشنا اختار الناي، بملء إرادته. لم يطلب

إليه أحد، أن يكون عازف ناي، بينما المسيح لم يختر الصليب بنفسه، بل فرضه عليه كهنة اليهود والحاكم الروماني.

اختيار كريشنا للناي، يعبر عن تقديسه للحياة، وتقدير المخلوقات البشرية، اختار كريشنا لنفسه هدفا، اختار أن يكون الطريق إلى السعادة، إلى الفرح، إلى السمو نحو الألوهية، لم يفعل هذا عبثاً، بل لأنه اعتبر الحياة، هدية إلهية، فكيف له، في مثل هذه الحال، إلا التعامل مع هذه الهدية، فكان العزف على الناي.

ليس عجباً أن تتعاطف الناس مع المتألم والمعذب. فتتحسس آلامه وعذابه، تشفق عليه، تسعى لتخفيف معاناته. كذلك، ليس عجباً، أن يتحول الإنسان السعيد، إلى نواة للسعادة تنتشر بين صفوف البشر... ولهذا السبب، ليس لغيره، اختار كريشنا العزف على الناي، وبث ألحانها وأنغامها، لم يفعل ذلك إشباعاً لرغبة شخصية، بل أراد إسعاد جميع أولئك الذي يعانون من عذابات الناس.

إن ألقيت نظرة على المسيح وهو مصلوب على الصليب، لا شك ستُصاب بالإحباط، وتتساءل، لماذا فعل اليهود والحاكم الروماني هكذا، وستشعر بالأسى. كذلك، إذا رأيت كريشنا يجلس عند ضفة نهر يامونا yamuna، ممسكاً نايه يعزف عليها. لا شك ستنتشي نفسك، وترتاح جسدياً ونفسياً. الفرح والألم أمران معديان، ينتقلان من شخص إلى آخر، ومن هذا الآخر إلى آخرين وهكذا دواليك.

لذا، من اختار ألا يكون سعيداً، يكون كمن أصدر حكماً على الناس كلهم، ألا يشعروا بالسعادة، إنه يعاقبهم دون ذنب، إنه يفعل هذا، لأنه اختار التعاسة لنفسه. أما الإنسان الذي اختار السعادة، فهو يسعى جاهداً لنشر السعادة بين الناس. إنه يسعى جاهداً لجعل الموسيقى لغة عالمية. وهذا الإنسان البعيد كل البعد عن الدين. المتدين إذن، هو

ذاك الذي لا يسعى لإسعاد نفسه وحسب، بل ولإسعاد الآخرين أيضاً. بالنسبة لي، لا شيء سوى، الغبطة، الفرح، السعادة، تعتبر خصائص الديانات، أية ديانات كانت. وهكذا يكون كريشنا هو فعلاً رجل دين متميز.

في الوقت ذاته، نفسياً وعلمياً. الناس نزّاعون نحو التعاسة، ميّالون لسلوك دروب الحزن. من هنا، اختار الإنسان الحروب ليفض خلافاته، بدلاً من التخاطب عبر ناي كريشنا. اختار لغة وحشية، ورفض لغة حضارية. لو فعل ذلك، أعني، لو اختار لغة حضارية، لكان وفّر على نفسه الكثير من العذاب والمعاناة، لكان بنى، بدلاً من أن يدمر، إن أمراء الحروب مسببي التعاسة، يهدفون إلى نشرها، ويطلبون منا الإعتقاد، إنه من السهل أن ينتقل الحزن من إنسان لآخر. وأنه من الصعب انتقال الفرح من إنسان لآخر، وأنه يستحيل على الناي تغيير العالم. ويستحيل عليها جعلنا نقلع عن ساديتنا وحبنا لأنفسنا، عن أنانيتنا، أنت سرعان ما تبكي، مع من تراه يبكي، لكنك لا تشعر بالسعادة التي يشعر بها إنسان سعيد. كذلك نتألم لرؤية متألم بسبب تهدم منزله، بينما تتألم أيضاً، لرؤية إنسان ناجح في حياته العملية واليومية، لأنك لم تتمكن من تحقيق ما حققه. هكذا يريدونك.

تذكر دائماً، أن كريشنا ليس من دعاة الحروب، ولا من محبذيها، إنه ليس ذاك الصغير، كما يحب البعض أن يطلق عليه. إنه من دعاة تطور الحياة، إنه مستعد للقتال من أجل الحياة، إذا دعت الحاجة. إذا رأى أن قيم الحياة، التي من دونها تفقد الحياة معناها، أصبحت في خطر، فلن يتردد كريشنا من اللجوء إلى القوة دفاعاً عن هذه القيم. هذا لا يعني استمتاعاً بالعنف والحروب. ولكن استجابة لظرف لا مفر ولا مهرب منه.

لذات نراه، فعل المستحيل لإقناع مهابهارات Mahabhrat، باللجوء إلى كل الوسائل السلمية لحل الخلافات. لم يترك باباً إلا وطرقه، ولكن حين ذهبت كل مساعيه سدى وتناثرت في الريح، تأكد له، أن لا بد من استعمال القوة التي هي مناهضة للإنسان ومفهومه الديني، ولكن ماذا عساه يفعل؟ إنه مجبر على القتال دفاعاً عن الحياة، وعن الدين القويم.

برأيي، لا تناقض بين الحياة اليومية والدين عند كريشنا، لذا فهو قادر على استلال السيف بيد، بينما يبقى يرقص، يغني، أو يعزف على الناي، إن ما يميز كريشنا عن غيره. هو أنه يبقى داعياً للغبطة والفرح والسعادة، حتى وهو في ساحات المعارك. لأن الحرب عنده هي الطريق إلى الحياة، شرط أن تكون حرباً لا مفرّ منها ولا مهرب.

كما سبق وقلت، الحياة عند كريشنا، ليست إما سوداء أو بيضاء، ليست إما فعل شر أو فعل خير، كما يحاول الكهنة تعريفها، حتى الحروب، قد تصبح فعل خير أحياناً وتبعاً للظروف التي هيأت لها. هناك حالات كثيرة يتحول السم فيها إلى ترياق يشفي من العلل، وقد يتحول الترياق إلى سم قاتل. وهناك لحظات تتحول النعمة فيها إلى لعنة، واللعنة إلى نعمة. فما هو خير الآن، وهنا، قد يكون شراً في وقت آخر وفي مكان آخر. الحياة في تحول دائم وحركة غير مستقرة، فما هو الآن، ليس هو هو بعد دقائق. والرجل الحكيم هو من يدرك هذا، وهذا ما أدركه كريشنا.

أمضى كريشنا زمناً طويلاً يسعى لتفادي الحرب، ولكن حين وجد أن الحرب واقعة لا مُحالة. لم ينهزم، بل أقدم على خوضها دون تردد. كان يدرك أن الحروب شر ودمار وموت وعذاب ومآس، ولكن ماذا يفعل؟ أيتصدى لها بالإنهزام أو بالإنكفاء عن القيام بمهامه نحو الحياة؟

لا... بل عليه فعل شيء يخفف من آثار الحروب. وإبقاء قدسية الحياة من كل قلبه سعى لتحويل المسار، وإعطائه اتجاهاً سلمياً، لكنه فشل، فتقبل الواقع الذي فرض عليه.

رغم كل هذا، ما ترك كريشنا نايه، ولا تخلى عن هدفه الأساسي، نشر الغبطة والفرح بين الناس.

رابعة العدوية

كانت رابعة امرأة مميزة، كانت شاعرة، تتقن فن الكلام واشتهرت بأنها امرأة صاحبة سمعة سيئة. كان ذاك قبل تعرفها إلى الله، وقبل أن تصبح امرأة متصوفة، لا هم عندها إلا العطاء، إلا الحب، فالله محبة، وهو دعا الجميع للغوص في بحر الحب وقطف ثماره.

جاءها متصوف آخر إسمه حسن، ليشاركها منسكها ومكان تعبدها لله. وسألها إعارته القرآن الكريم، لأنه نسي القرآن الذي يعود، حيث كان يقيم سابقاً.

اندهش حسن، وأصيب بالذهول. ما الذي يراه؟ وماذا فعلت رابعة؟ فقد أقدمت على تدوين ملاحظاتها على صفحات القرآن، ومزقت بعض الكلمات في صفحات متناثرة هنا وهناك. إنه فعل محرم إسلامياً، ومن يقدم عليه، يعتبر كافراً... ومرتكباً لخطيئة مميتة، فالقرآن هو كلام الله المنزل، وممنوع، بل محرم، تغيير حرف واحد فيه.

لم يصدق حسن ما رأت عيناه، واعتبر أن أحداً غيرها فعل هذا، فتوجه إليها محذراً «رابعة هناك من أقدم على العبث بقرآنك».

ضحكت رابعة «لا تكن غبياً، فهذا القرآن الكريم الذي بين يديك، ما مسته يد إلا يداي، وما تراه هو من فعلي أنا... نعم أنا فعلت ذلك...».

ـ ولكن... كيف تقدمين على فعل شيء كهذا؟

ـ وماذا تريدني أن أفعل؟ الله يطلب مني أن أمنح الحب للجميع، فهل تريدني أن أكره الشيطان؟ صدقني يا حسن، منذ أن غمرني الحب، منذ أصبحت متنورة واعية، ما عدت أعرف شيئاً إلا الحب، حتى لو التقيت الشيطان، فلا يسعني إلا أن أغمره بحبي... فأنا لا أمتلك شيئاً غير الحب، فماذا تريدني أن أعطي؟ هل أعطي مما لا أملك؟ فحين يختفي الحب من حياتي، لا أعود أنا... أنا... إعلم أن الحب وحده يخلد... لأن الحب هو الله.

وذات يوم، كانت رابعة تمر بالقرب من الجامع حيث يؤدي حسن صلاته، فوجدته ساجداً على ركبتيه، رافعاً يديه نحو الله وهو يتضرع إليه «ربي، أعطني هذا، ربي امنحني ذاك».

تقدمت رابعة ووقفت خلفه، وشدته من رأسه، فتعجب حسن. من يقدم على فعل كهذا، بينما أنا في حضرة الله؟ التفت إلى الوراء، فإذ به أمام رابعة وجهاً لوجه.

ـ إنه لفعل سيء أن تفعلي هذا. كيف تقدمين على إزعاج إنسان يتضرع لله.

ـ ماذا أيها الغبي؟ أنت لا تتضرع لله، بل تسأله أن يفتح لك الأبواب... الحق أقول لك، إن الأبواب غير موصدة، فمن سيفتحها إذن؟ وماذا سيفتح؟ فما من أحد أوصدها، لذا، ما من أحد سيفتحها... كل ما عليك هو أن تدخل، دون انتظار لتفتح الأبواب لك.

قال المسيح: «اقرعوا... يفتح لكم» ولكن ما من أبواب فأين ستقرع إذن، على الجدران، وهذا يعني أن الأبواب لن تفتح منذ وجدت الخليقة. والأبواب مشرعة، فادخل إذن، دونما استئذان، ادخل من أين شئت وإلى أي مكان تريد... ولكن أقرب الأمكنة

التي عليك ولوجها، هي ذاتك... وكل ما عدا ذلك باطل.

فلماذا...؟ لماذا لا تحاول أن تبدأ من الدخول إلى المكان الأقرب، إلى ذاتك... إلى داخليتك... حيث ستكتشف المعجزة الكبرى، أنه لا ضرورة للذهاب إلى أي مكان، ولا إلى قرع أي باب... فالأبواب مشرعة... ذاتك هي الباب الذي يوصلك إلى العالم بكليته.

ذات مساء، بينما كانت الشمس تميل إلى الغروب، كانت رابعة تبحث عن شيء أمام منزلها... تجمهر عدد من الناس حولها متسائلين «هل أضعت شيئاً يا رابعة؟... لربما بمقدورنا تقديم المساعدة».

ـ لقد أضعت إبرتي... كنت أخيط ثوباً وسقطت من يدي، وها أنا أبحث عنها، ولم يعد لدي الوقت الكافي، فقريباً ستغرب الشمس ويحل الظلام... لذا، إن أردتم مساعدتي، فما عليكم إلا الإسراع، لئلا يستحيل عليكم مساعدتي بعد حلول الظلام.

هكذا شرع الكل في البحث عن الإبرة، الإبرة التي حتى في وضح النهار يصعب رؤيتها بين هذا التراب، فكيف عند وقت الغروب.

وقف أحدهم وقال:

ـ الإبرة جسم صغير، والشمس آخذة بالأفول. فرجاءً حددي لنا المكان الذي فيه أضعتِ الإبرة حتى نتمكن من إيجادها....

ضحكت رابعة وقالت:

ـ ولماذا هذا السؤال... إنه يزعجني ويسبب الإرباك.

توقف الجميع عن البحث «ما الأمر؟ ولماذا تقولين إننا نزعجك؟».

ـ أحس بالإنزعاج، لأني أضعت إبرتي داخل منزلي وليس هنا، ولكن وبما أنه لا ضوء داخل المنزل، خرجت إلى حيث الضوء لأبحث عنها.

ـ يبدو واضحاً أن مساً من الجنون أصابك... قال الذين تجمهروا لمساعدتها... كنا نشك في ذلك سابقاً... أما اليوم، فقد قدمتِ لنا الدليل على أنكِ مجنونة فعلاً.

ـ أتعتقدون ذلك؟ قالت رابعة. وماذا عنكم أنتم؟ أولستم مجانين؟... أين أضعتم أنفسكم، وأين تبحثون عنها؟ أين أضعتم النعمة الإلهية وأين تحاولون إيجادها؟... إنكم تقصدون أماكن بعيدة، ولماذا؟ للبحث عما أضعتموه، ولا تحاولون الدخول إلى ذواتكم حيث هي نفوسكم، وحيث هي النعمة الإلهية...لماذا تبحثون عن الله في كل مكان؟ إنه في داخلكم... فمن المجنون إذن؟ أنا أم أنتم؟

ويروى أيضاً، أن حسناً جاءها يسألها مشاركته المسير معه فوق سطح الماء، ليثبت لها أنه أصبح قادراً على السير فوق الماء.

لكن رابعة لم تستجب لطلبه، وطلبت منه، إن كان فعلاً يرغب مناقشة أمور روحية معها، فما عليه إلا أن يرافقها في جلسة فوق الغيوم.

ـ لكني لا أعرف كيف أصل إلى الغيوم، ولا كيف بمقدوري أن أجلس عليها، قال حسن:

ـ ولا أنا أعرف... ولكن، لماذا لا نتشارك الروحانيات هنا؟ لماذا نذهب إلى أي مكان آخر، إلى الماء أو الغيوم مثلاً.

الحقيقة، أن المتصوفين الذين اتحدوا بالله. لا يؤمنون بالمعجزات ولا بالعجائب. وحدهم الأغبياء كانوا يفعلون ذلك.. ورابعة، واحدة من المتصوفين المتحدين بالله.

جلال الدين الرومي

«تحرك ضمن ذاتك، ولكن إياك أن تسلك الطريق الذي يقودك الخوف إليها». هذا ما يقوله جلال الدين الرومي... لا ريب، أن لهذه الكلمات أهمية كبرى... إنها رفض للخوف، واستجابة للذات...

كثيرون اعتبروه سيد المتصوفين... عاش جلال الدين قبل نحو من ألف ومايتي سنة ونيف. وحتى اليوم، ما يزال هناك من يتّبع طريقته في الرقص... كان يرقص وهو يلف ويدور، حول جسده... كأنه طفل صغير، يبقى يلف حول ذاته، حتى يأمره والداه بالتوقف، لئلا يصاب بالدوار، ولكن جلال الدين، لم يكن قربه من يطلب إليه التوقف.

ربط جلال الدين بين التأمل والدوران حول الجسد. وهكذا، كلما أردت إطالة فترة التأمل، عليك الإستمرار في هذه الرقصة، ليس لساعات قليلة، بل عليك الإستمرار طالما أنت قادر على الرقص، إلى اللحظة التي تشعر فيها أنك اتحدت بالصمت والسكون، إلى اللحظة التي تشعر فيها أنك مركز العالم، وحول هذا المركز أنت تدور حتى تصبح عاجزاً عن الحراك... فتقع أرضاً، لا لتموت، بل لتحيا من جديد.

تمكن جلال الدين، من الرقص، رقصة الدوران حول جسده، لمدة ستة وثلاثين ساعة متواصلة. لم يتمكن جسده، بعدها، من البقاء صامداً، فهوى على الأرض. خاف عليه، كل من رآه يهوي، وظنوا أنه

إنسان معتوه مجنون، وإلا لماذا يستمر يلف حول جسده لهذه الفترة الطويلة؟ لكنهم ذهلوا واندهشوا حين رأوه يفتح عينيه. لقد رأوا إنساناً جديداً، مشرق الوجه، مفعماً بالحيوية يضج بالحياة. وقف مكانه وكأنه يولد من جديد... رغم هذا، ظلوا يتساءلون عن الرابط بين الرقص الدوراني والتأمل. واستمرت الحيرة، ما هذا الذي يقوم به جلال الدين الرومي؟.. إنه ضرب من الجنون... فلا أحد يعتبر هذا صلاة، ولا أحد يعتبره رقصاً مميزاً... أو يمت إلى ممارسة الحياة الدينية بصلة.

ولكن، وبعد مرور هذه المئات من السنين، ما تزال هذه الرقصة تمارس، وهناك الآلاف الذين يمارسونها. إنها رقصة الدراويش، كما تسمى اليوم، والدرويش هو الصوفي المعاصر الذي ما يزال يعتمد الرقص الدوراني وسيلة للتأمل. إنها طريقة لن تفهمها أو تؤمن بها، ما لم تختبرها، وتقوم بأدائها، وتتعرف إلى تأثيرها عليك. لا ضرورة لتعذيب النفس، لا ضرورة لأي شيء يؤذي الجسد أو الروح، كل ما هو مطلوب. أن تختبر ذلك في داخلك، ولن يصدق أحد أنه من خلال الرقص الدوراني، يتعرف المرء إلى ذاته، إلى نفسه، ويختفي الظلام... وينتشر النور وينتقل الإنسان من حالة الفناء إلى حالة البقاء الخالد.

كل ما هو مطلوب، أن تتفهم بدقة، ما سبق لجلال الدين الرومي إن قاله إنه لم يكثر من القول، ولا من التوصيات، كان مقلاً في الحديث، لكنه كان يعي ما يقول «تحرك ضمن ذاتك... ولكن إياك أن تسير في الطريق الذي يقودك الخوف إليها». كم هو قول جميل ومعبر.

لا تذهب إلى حيث يقودك الخوف، بل إلى حيث يأخذك الحب، إلى حيث تجد الغبطة والنعمة... إياك والخوف، إنهم يريدونك أن تخاف... هذا هو إلههم... إله الخوف والرعب حتى جنتهم هي

أقرب إلى جحيمهم. لماذا؟ بسبب الخوف المزروع في نفوسهم... وكيف ستعيش في الجنة وأنت خائف أن تطرد منها؟

كلهم يقولون لك «إخشَ الله ولا تخف أحداً غيره». حتى المهاتما غاندي كان يردد «أنا لا أخاف أحداً سوى الله».

أنا شخصياً، لن أقول هذا أبداً... لأنه نوع من أنواع الغباء... نعم يحق لك أن تخشى كل الناس، ولكن إياك أن تخاف من الله، الحب هو الطريق الذي يوصلك إلى الله وليس الخوف... إنه ليس إنساناً، بل هو خالق العالم ومنظم هذا الوجود. هكذا إن تمكنت من الغناء بحب. من الرقص بحب، من أن تدور حول نفسك بحب، فهذا يعني، أنك ستشعر بالغبطة تغمر ذاتك وبأنك تحقق ذاتك.

إياك والخوف... سيدمر حياتك... إنه كغيمة سوداء تمرّ في سماء حياتك، فتحجب الرؤيا عن عينيك، وهكذا، وبسبب الخوف، قد تقول ما لا تريد قوله، وأن تقوم بأفعال لا تريد القيام بها، لكنه الخوف، يقودك إلى حيث يريد هو لا إلى حيث تريد ذاتك.

إلقِ نظرة بسيطة عابرة على ما حولك. الخوف جعل ملايين الناس ينحتونَ الحجارة على شكل آلهة ويعبدونها. لا حباً بها، بل خوفاً منها. لقد صنعوا آلهتهم بأيديهم، وخافوا مما صنعون وهكذا، صار الخوف مقروناً بالله... بينما الله الحقيقي مقرون بالمحبة والتسامح... ما لهؤلاء الناس يزرعون الخوف في أنفسهم... إنه الغباء القاتل... لماذا يبحثون عن الله في الحجارة والخوف؟ لماذا لا يبحثون عنه، في المعابد والكنائس والجوامع؟

«لا تجعل من صلاتك تعبيراً عن خوفك» هذا ما يوصي به جلال الدين الرومي... «تحرك ضمن ذاتك... كن كالطفل البريء الطاهر الذي يرى الحياة مليئة بالغبطة، إنه يلهو ويلعب دون خوف من أحد،

كذلك تفعل الفراشات المتعددة الألوان... إنها تنتقل من زهرة إلى أخرى».

حاول أن تخصص ولو أربعة وعشرين ساعة فقط، لا تشعر فيها بالخوف، لا تطلب شيئاً لذلك، لا ترغب في نيل جائزة ولا تخشَ الوقوع في الخطأ، ولا تخف من أي عقاب، فكر فقط أن عليك تمضيتها وأن تمارس رقصة الدراويش - الدوران حول ذاتك - بهدف العبور من الخارج إلى الداخل، إلى ذاتك... في البدء، قد يبدو هذا أمراً صعباً، ولكنك، ما إن تبدأ، حتى تتحسس الفرح، وما إن تشعر أنك بدأت ملامسة ذاتك، حتى يصبح الأمر مفرحاً مبهجاً، ستجد نفسك في مكان لم تعرفه من قبل، إنه مكان متسع فسيح... إنه جنة ذاتك... إنها السماء الخاصة بك... وتأكد أن سماءك هذه، لا تختلف أبداً عن السماء التي نعرفها، فيها نجومها وقمرها وأجرامها... إنها متسعة وسع السماء التي تنظر إليها كل ليلة، السماء التي هي خارج ذاتك، إنك تقف أمام عالمين: واحد خارج ذاتك، والآخر هو في داخليتك. العالم الخارجي مملوء بالأشياء المادية، بينما عالمك الداخلي مملوء بالوعي، بالنور، بالغبطة، بالفرح. إذن ما عليك إلا التحرك إلا ضمن ذاتك، دون خوف أو وجع، لأن الخوف لا يدخل الذات، لماذا؟ لأنه لا يكون وحيداً، إنه يحب الكون بين الجماعة، لا هم أصدقاء كانوا أم أعداء.

حتى تتمكن من دخول ذاتك، لا بد أن تكون وحيداً. لا أحد معك، إذاً لا أحد يمكنه العبور إلى داخليتك... عليك أن تتخلى عن كل شيء، عن الثروة، عن القوة، عن المظاهر، عليك أن تكون عارياً حتى من ثيابك، فالداخل لا يرتدي سترة ولا ألبسة. إنك في اتجاه معاكس للخوف، أن تعبر من الخارج إلى الداخل، بينما الخوف، يعبر من الداخل نحو الخارج، يتخذ اتجاهات عدة، نمو الثروة، نحو القوة، نحو العظمة،

يتخذ الخوف شتى الإتجاهات، باستثناء الإتجاه نحو الداخل. لا تعتقد أنه من السهل التآلف مع الخوف. لا صداقة مع الخوف، إلا إذا كنت لا ترغب بالعبور إلى ذاتك. سيحاول جاهداً، وبأسلوب ودي أن يسيّر مجرى حياتك، أن يدعي أنه يقدم لك النصح «لا تفعل لئلا... ولا تفعل ذاك لئلا...» سيقول لك «لماذا تعبر إلى ذاتك، فلا شيء في ذاتك سوى اللاشيئية. فكن حذراً من الوقوع في الفراغ».

ويبقى السؤال، مما أنت خائف؟ لقد ولدت عارياً و لم تخف من عريك، ولدت عارياً تماماً، ولكنك جئت الحياة كالإمبراطور، حتى الأباطرة، ليس بمقدورهم دخول الحياة، كما يدخلها الأطفال، وما يصح على ولادتك، يصح على دخولك لذاتك، إنه الولادة من جديد، ولادة ثانية، ها أنت تعود طفلاً، بريئاً طاهراً نقياً، رغم أنك عارٍ كل العري... إذن، ما الذي عليك أن تخشاه؟

أتخشى الولادة؟... فها أنت قد ولدت. وصارت الولادة أمراً من الماضي.

أتخاف الحياة؟ ها أنت في وسطها، كان عليك الخوف منها قبل مجيئك إليها، لا اليوم.

كما ليس بمقدورك الخوف من الموت... فمهما فعلت لن تكون قادراً على إبعاده... إنه أمر لا مُحالة سنموت، إن لم يكن اليوم فغداً أو بعد غد... فلماذا الخوف إذن؟

جاءني كثيرون، وبينهم مثقفون، يسألوني «هل فكرت يوماً بما ينتظرك بعد الموت؟... وكان جوابي، دائماً، هو هو.. «قبل أن أولد، ما فكرت بما سيعترضني من مشاكل، ولا بالقلق الذي قد ينتابني... لأني بكل بساطة، كنت لم أولد بعد، و لم أكن أعرف إن كنت سأولد أم لا، ولا متى وأين... وهذه هي حالي مع الموت، فعندما سأموت سينتهي

كل شيء، فلماذا التفكير بهذا الموضوع، أمن أجل هدر الوقت فقط؟

وهناك من يلحون بالسؤال «ما الذي سيحصل بعد الموت؟». بالفعل إنه سؤال غبي، لا ضرورة لطرحه، ولا ضرورة للتفكير بالإجابة عليه. فلا داعي للخوف مما قد يحدث بعد الموت، لسببين: الأول، أني جاهل لما قد يحدث، والثاني لأن الذي سيحدث، سيحدث، شئتُ أم أبيت، فوق هذا كله، إني عاجز عن فعل شيء لمنعه.

لم يترك جلال الدين الرومي لاتباعه، تعاليم يعملون بها، أو طقوساً لاتباعها... فقط الرقص الدوراني حول الجسد، هو الذي تركه هذا الصوفي الداعي لعدم الخوف؛ إضافة إلى بضعة قصائد قصيرة، كان ينشدها، بعد الرقص لساعات طويلة أو السقوط منهكاً... لقد تم جمع هذه القصائد لتشكل أدبيات أتباع جلال الدين الرومي.

قال جلال الدين الرومي «إننا المرآة». إذن نحن لسنا من نفعل، بل نحن نراقب فقط، نحن مجرد مشاهدين، لكننا لم نتعلم جوهر الحياة، بل تعلمنا القيادة الأمر الأساسي، هو تعلم فن المراقبة.

إننا المرآة، التي تنعكس عليها صورنا، إننا المراقِبون - بكسر القاف - والمراقَبون - بفتح القاف. لا انفصال بيننا وبين الوجود. نحن جزء من كل... كاليدين بالنسبة للجسد... هل يمكننا تخيل يدٍ تضرب الأخرى، أو تصافحها؟

حين تنظر إلى شجرة، إلى القمر، إلى النهر، إلى المحيط، أنت تكون المرآة، وأنت الرائي في آن، لا انفصال بينكما، هذا ما يقوله كل الصوفيين، إن الوجود كل متكامل، لا ازدواجية فيه ولا ثلاثية.

إننا المرآة، ووجوهنا المنعكسة عليها... إننا الداء والدواء، إننا الألم والإحساس بالنشوة، إننا الجنة والجحيم، إننا الشيء ونقيضه... لا

تعارض في الوجود... حتى النقيض يتصل بنقيضه... الحياة ملأى بالتناقضات التي تكمل بعضها بعضاً.

إنه لأمر غريب عجيب. كل الصوفيين، قدامى ومعاصرين، الذي عاشوا منذ مئات السنين، والذين ما يزالون أحياء، يجمعون على أمر واحد، «أساس الحياة، نمو وتحقيق للذات». فالصمت الذي تعيشه الآن، لا يقدم لك شرحاً عن شيء، بل خبرة في معايشة الحب. الرقص، الغناء، يجعلانك تحس الإنتشاء إلى ما لا حدود، وبأنك دخلت إلى معبد الرب وهيكله. كذلك الأمر حين تقف أمام المرآة، تحدق بالصورة المنعكسة عليها، تصبح الباحث والمبحوث عنه، تصبح المتعبد والله في آن... لا انفصال بين شيء وآخر، حتى بين النقيض وضده.

حدث أن رساماً أراد أن يرسم لوحة كاملة لراما كريشنا الذي لم يوافق على هذا الطلب، إلا بعد تدخل العديد من المتنورين... كان يمقت ذلك، لكنه وافق وأخيراً. وحين جاءه الرسام باللوحة، نظر إليها بإعجاب ولمس أسفل الصورة برأسه، فتعجب كل الموجودين. فسرت همهمة بينهم «ماذا يفعل هذا؟» قيل إنه مجنون... وها هو يثبت جنونه، وإلا لماذا يلمس قدمي الصورة برأسه؟

ساد صمت رهيب، قطعه أحد أتباعه «هذه صورتك، فماذا أنت فاعل؟ كيف تلمسها برأسك... لقد جعلتنا أضحوكة أمام الناس الذين باتوا يتساءلون أي مجنون هو هذا راما كريشنا؟».

ضحك راما كريشنا «وهل ارتكبت أي خطأ... أنا لم ألمس قدمين حيتين، بل قدمي صورة»... إسمع يا هذا، إن الشخص الذي في الصورة، هو كائن يعيش في صمت عميق ومتصل بالله... قد تكونون على حق، فأنا مجنون... ولكن عليكم فهم أن الرسام أدى عملاً رائعاً، لم يرسم جسد شخص، بل روحه، ووضع راما كريشنا اللوحة في

غرفته. و لم يمر صباح إلا وحدّق بها بإعجاب وكذلك يفعل قبل النوم.

بعد وفاته، استمرت زوجته، ترتب سريره يومياً، كما لو أنه ما يزال حياً، حتى أنها كانت تحضر له الطعام مرتين يومياً، و لم تلبس لباس الحداد، بل ثابرت على ارتداء الثياب الملونة، والتزين بالحلي والتبرج، خلافاً لعادات قومها التي كانت تفرض على الأرامل لبس الأسود من الألوان، وحلق شعرهن أيضاً. وحين جاء أحد أتباع زوجها يسألها عن سبب تصرفها هذا أجابت «من تريدني أن أطيع؟ أنتم أم هو؟ لقد أوصاني أن أتابع حياتي كما في السابق، وألا أتقيد بالتقاليد والعادات، لأني لن أموت... بل سأترك جسدي، أما روحي فستبقى هنا، إلى جانبك. والحال هذه، كيف تريدني، أن أتصرف؟».

يروى أن جماعة من الصيادين، دفعهم الفضول لرؤية ما يفعله جلال الدين الرومي وأتباعه، فوقفوا بعيداً، ينظرون خلسة إلى المعلم وأتباعه يمارسون العبادة عن طريق الرقص باللف حول الجسد. تعجب الصيادون وقالوا «لا شك، إنهم قوم مجانين، فأي ديانة أوصت بهذا؟ إن جلال الدين الرومي يدفع أنصاره إلى الجنون».

بعد الإنتهاء من الصيد، عاد الصيادون ليروا ماذا حل بهؤلاء المجانين، فإذ بهم يرونهم، يجلسون تحت الشجر، عيونهم مغمضة، غارقون في صمت عميق، حتى بمقدورك ، رغم كثرتهم، أن تسمع صوت حفيف أوراق الشجر. فقال أحد الصيادين لزملائه «مساكين أتباع جلال الدين الرومي، إنهم منهكو القوى، متعبون، ها هم الآن أشبه بالموتى».

ما من صيّاد فكر، ماذا يشعر هؤلاء الأتباع من فرح وغبطة.

بعد ستة أشهر، عاد الصيادون ذاتهم في رحلة صيد أخرى، وأحبوا بدافع الفضول، التأكد، من أن أتباع جلال الدين الرومي ما يزالون أحياء، أم أماتهم الرقص، فما وجدوا إلا جلال الدين الرومي.

ضحك الصيادون، واعتقدوا أن الأتباع قد ماتوا... لقد أماتهم برقصته هذه. فأرادوا سؤاله عما حدث لتلامذته وأين هم الآن؟

ـ إنهم... أجاب جلال الدين الرومي، ذهبوا إلى العالم كله لينشروا رسالتي، ليعلّموا الناس كيف يرقصون..

ـ وماذا تفعل أنت هنا إذن؟ تساءل أحد الصيادين.

ـ إني أنتظر تلامذة جدد سيرسلهم تلامذتي القدامى... هذا ما أجاب به جلال الدين الرومي، وكأنه أراد القول «الرقص يحيي ولا يميت».

سقراط

اليونان، بلا سقراط هي لا شيء، أما يونان سقراط فهي كل شيء، يوم اختارت اليونان دس السم لسقراط لم تقتل سقراط وحده، بل قضت على روحانية اليونان، قضت على نفسها، وما عادت إلى مجدها أيام سقراط.

خمسة وعشرون قرناً ونيف، مرت على قرار أثينا تسميم سقراط، ولم يتمكن رجل واحد، خلال هذه الحقبة الزمنية الطويلة من الوصول إلى عظمة سقراط، ولا إلى مستوى تنوره أو نفاذ بصيرته... قَتل سقراط، كان انتحاراً لليونان.

لو أصغت أثينا، أو بالأحرى حكّام أثينا إلى ما كان يقوله سقراط، وناقشت أفكاره، واستجابت لما كان يطالب به، لكانت اليونان، زعمية العالم بلا منازع، لكانت رائدة في الوعي والسباقة إلى البحث عن الحقيقة، على الناس ألا تنسى ما حصل لسقراط، ولو نسوا ذلك، فإنهم يرتكبون تلك الخطيئة المميتة ثانية... سامح الله الذين دسّوا السم لسقراط، ولكن علينا ألا ننسى ذلك، لئلا يتكرر ثانية.

هناك رجال عظام كُثر، لكن سقراط كان يملك ميزة خاصة به. في الشرق كان بدوا، لاوتزو، شوانغ تزو، حتى اليونان، عرفت فيثاغوراس phythagoras وهيراقليطس Heraclitus وفي بلاد فارس بزغ نجم زاراتوسترا zarathustra، إضافة إلى آخرين كُثر، ولكن، ما

من أحد كان كسقراط، عظمة، وتنوراً ونفاذ بصيرة. كان مميزاً جداً، كان يقارب الأمور علمياً وبوضوح، وهذه هي جريمته الكبرى، جريمته التي من أجلها، تجرّع السم.

كلكم اليوم، تستفيدون من العلم وإنجازاته ولكن ما من أحد يعلم، أن سقراط ضحّى بنفسه إكراماً لعيني العلم.

لم يطلب إلا أمراً واحداً، ألا نقتنع بشيء، وألا نجعله مسلّماً بها، إلا بعد إخضاعه للتجربة والإختبار... إلا بناءً لبراهين وأدلة... لأن ما تقبله هكذا، هو حقيقة افتراضية، قد تبزغ شمس الغد، وتكشف لنا، أنه مجرد فرضية واهية، وهكذا يصبح، ما كان حقيقة مسلماً به، زيفاً وزوراً...

ما من أحد سعى للحقيقة، وبحث عنها كسقراط... حتى لو تمكنت من الوصول إلى الحقيقة، أو ما اعتقدت أنه الحقيقة المطلقة، الحقيقة التي يستحيل ألا تكون غير ذلك... فما عليك، بناء لمقتضى العلم، أن تتقبل ذلك كفرضية، لأن كل يوم هناك اكتشاف جديد، قد يقلب «حقيقتك» إلى لا حقيقة، على المرء أن يكون دائم الإستعداد للتطور، للتعرف إلى حقائق جديدة، فلا شيء مطلق في هذا العا لم.

لم يكن سقراط كيسوع، وما قال: إنه إبن الله الوحيد أو أنه نبي،أو هو المسيح الذي ما يزال اليهود ينتظرون مجيئه حتى اليوم، هذا ما يجعلني أنحني احتراماً له. تقديراً لتواضعه، فما ادعى أنه مميز أو متفوق على غيره، بل كان يعتبر نفسه إنساناً عادياً، إنساناً يبحث عن الحقيقة.

خمسة وعشرون قرناً ونيف مضت على قتل سقراط، خمسة وعشرون قرناً، عرفت بلدان كثيرة خلالها، أنبياء، ورسلاً لله، ولكن الحقيقة التي لا تقبل ردعاً ولا حجباً، هي أن تواضع سقراط جعله الأكثر احتراماً في العالمين القديم والحديث.

ما آمن سقراط بأي إله، لكنه لم يقل، أن لا وجود لله... كان رجل علم... لذلك قال «بناءً للأبحاث، لا دليل لوجود الله، ولكن من يدري، قد تثبت أبحاث المستقبل عكس هذا، إذن، قل بعدم وجود الله كفرضية، وحين تكتشف وجود الله وتتأكد من ذلك يصبح ذلك حقيقة». كذلك لم يقل سقراط «أن هناك حياة بعد الموت» بل قال «عليّ الإنتظار حتى أموت، حينها أكون قادراً من التأكد أن هناك حياة بعد الموت أو لا... فما من أحد رحل عن هذا العالم، وعاد ليخبرنا، إن كان هناك حياة بعد الموت أو لا...».

علينا ألا ننسى، سقراط عاش قبل نيف وخمسة وعشرين قرناً، ورغم ذلك سمحت له جرأته، لحظة جُرّع السم، أن يجمع تلاميذه ويقول «كنتم دائماً تتساءلون، عما إذا كانت هناك حياة بعد الموت... ها هي الفرصة الذهبية أمامكم، فلو مت ميتة عادية فما كنتم قادرين على معرفة شيء، ولكن السم سيعطى لي الآن، والسم يقتل ببطء شديد، لهذا سأخبركم بكل ما أشعر به حتى اللحظة التي يتيبس بها لساني فلا أعود قادراً على النطق...».

أغمض عينيه وراح يتحدث عما يشعر «تخدرت رجلاي، حتى الركبتين، ما عدت أشعر بقدمي ولا بساقي... لا حياة فيهما، ولكن، لا بد من ذكر شيء لهم، ما زلت أشعر بأني موجود، إذن موت ساقي لم يؤثر على باقي جسدي ولا على الوعي... سكت قليلاً ثم تابع «مات النصف الأسفل من جسدي، ولكن ما زلت أعي... يداي تشعران بالخدر... لم أعد قادراً على فتح عيني، ولدي إحساس أني لن أعود قادراً على الكلام، إذن لربما، هذه هي آخر جملة أقولها لكم - الحياة تستمر بعد الموت... إني أرى الموت يقترب مني... أجزاء من جسدي ماتت، وأنا ما أزال حياً أرزق... لم أفقد الوعي.... لذا، أنا متأكد،

لحظة يتوقف لساني عن الحديث، وأغمض عيني، ويتوقف قلبي عن الخفقان، هذا لا يعني النهاية... ولكن لا تصدّقوني... إنها مجرد فرضيات. هكذا عليكم التعامل معها، وحاولوا حين تشعرون، أن الموت، يقترب منكم، حاولوا اختبار ذلك بروح علمية.

قد يتساءل البعض، لماذا أنا معجب، كل هذا الإعجاب، بسقراط؟ أنا معجب بتواضعه، بأبحاثه العلمية، معجب به، لأنه لم يقل بديانة، و لم يقل بنظريات على الآخرين جعلها مسلمات حياتية، لأن لم يكن محاطاً بأتباع ومريدين، لم يقل إنه نبي... كان سقراط نابغة بكل معنى الكلمة، مثقفاً بقدر ما تستطيع أن تتصور ذلك...

كانت هناك إغراءات تدعوه، لإعلان نفسه إلهاً ولو استجاب لهذه الإغراءات لعبده الكثيرون و لم يسمم وحتى أولئك الذين قرروا تجريعه السم، كانوا سيعبدونه، من يدري، وبدلاً من إعطائه السم، لكانوا بنوا له كنيسة أو معبداً أو مسجداً، ولربما كانوا، حتى اليوم، ما يزالون ينظرون إليه كإله.

إنه لأمر يتطلب الجرأة اللامتناهية، أن يبقى إنسان كسقراط، يتمتع بذاك القدر القوي من الوعي والوضوح، أن يبقى متواضعاً، ويبقى يتصرف كإنسان عادي... اختار سقراط، طريق التواضع، واختار أن يكون إنساناً عادياً. كان يعي تماماً، أن تصرفه هذا، قد يؤدي به إلى الموت، وأنه عاجلاً أم آجلاً سيقدم هؤلاء الناس على قتله... نعم إنهم الذين كان يسعى إلى تحريرهم من القيود والأغلال، ولهذا، ما عرفت اليونان ديانة بعد سقراط، لا كنيسة، لا معتقدات ولا تماثيل.

كان سقراط جريئاً، فقال بوضوح «أنبياؤكم مجرد أوهام وأنتم سرعان ما ستقعون في مصيدة هذه الأوهام، لأن مدعيها سيقولون، إنهم يعملون من أجلكم بينما في الحقيقة، هم يساعدونكم على البقاء

في سجونكم، وسيطلقون أجمل الأسماء، على هذه السجون، وهكذا تنشرح أساريركم وتبتهج نفوسكم».

مع إنسان كسقراط، لن تشعروا بالسعادة. لأنه كان يقول لكم إنكم مساجين، وعليكم الخروج من هذا السجن... البشر لا يحبون التغيير، إنهم، بكل بساطة، يبحثون عن المواساة، عمن يعزيهم. قد يأتي أحدهم، وكأنه مبعوث من الله ذاته ليقول لكم «إنكم محقون في ما تفعلون، ما عليكم إلا الإستمرار بالإيمان بالله، صلوا له، كل مساء، لدقيقة أو اثنتين، وكل شيء سيكون على ما يرام»، وهذا ما يسعدكم، لأنه يعفيكم من مهمة التغيير ومشاكلها.

أمثال سقراط، خطرون جداً، لا يقدمون المواساة، ولا يحاولون تصوير الحياة بألوان زاهية، الحقيقة عندهم، غير خاضعة للمساومة، فهي إما بيضاء ناصعة، أو سوداء حالكة... أمثال سقراط، يضعونك أمام الحقيقة وجهاً لوجه. سقراط طبيب جراح، يستأصل الأورام، يجتثها... رغم هذا فقد ظل سقراط أثينياً ولم يكن يونانياً. أثينا - الدولة، احتضنت سقراط طفلاً وقتلته عالماً، قتلته، لا لسبب، إلا أنه أراد الحقيقة المطلقة، لأنه أراد الإقتناع بمسلمات، لا بفرضيات.

غروب شمس يوم تنفيذ الحكم، بإعطائه السم، نظر سقراط من نافذته، فرأى الشمس تقرب، وحامل السم لم يصل بعد، فصاح: أين هو هذا؟ أرجو ألا يتأخر أكثر، لأن يكون متخلفاً عن القيام بواجباته.

ودخل الرجل وهو يقول «إنك لإنسان غريب عجيب... صدقني إني أحبك، ولهذا تأخرت عليك، أردت إعطاءك مزيداً من الحياة، فأنت وأمثالك تستحقون الحياة... قدمت السم للكثيرين. إنها وظيفتي، ولكن، لست أدري، لماذا أنا اليوم أكره نفسي... يداي ترتجفان، ونفسي حزينة، صدقني بودي لو بمقدوري ألا أقدم لك السم، ولكن!».

بهدوء أجاب سقراط «هذا هو واجبك... دع أحاسيسك ومشاعرك جانباً... بصدق أقول لك... إني مشتاق للموت... لقد عشت طويلاً، واختبرت الحياة وأسرارها واليوم أرغب القيام باختبار جديد، اختبار لم أتمكن من القيام به، من قبل، اختبار الموت... اختبار أمر ما يزال مجهولاً. لذا، أرجوك... أسرع وأعطني السم.

يوم سُمم سقراط، كانت أثينا مدينة دولة، كانت تمارس الديمقراطية المباشرة، لكل مواطن، باستثناء العبيد، حق الإقتراع وإبداء الرأي في القضايا المصيرية... لهذا كان كبير القضاة، قبيل تسميم سقراط، محتاراً: ماذا يريد الشعب... أفعلاً يريد موت سقراط، أم لا؟ كان كبير القضاة إنساناً ذكياً واعياً ومدركاً أن سقراط هو إنسان بريء من التهم الموجهة إليه، ولم يرتكب إثماً في حياته، إنه كالطفل... ولم يفعل شيئاً يؤذي أحداً. وهذا ما دعا سقراط إلى التساؤل بصوت عالٍ موجهاً كلامه للقضاة «أخبروني، أي ضرب ارتكبته؟»).

ليس هناك أي جرم يستوجب المحاكمة، سوى أنه إنسان عادي، كما همس كبير القضاة في أذن سقراط وتابع يقول «جريمتك أنك إنسان متواضع... لست قادراً على قول ذلك علناً. لكنها الحقيقية، وإن لم يتمكن هؤلاء من مسامحتك، فلا شك لن يسامحوني أنا أيضاً... لأني أكن لك كل الإحترام والتقدير، ولا أرغب بالحكم عليك بالموت... أنت إنسان مميز، ولهذا أقدم لك اقتراحات ثلاثاً.

أنت تعلم، أثينا مدينة دولة، وقوانينها لا تسري خارج نطاق حدودها... إذن ما عليك إلا الهرب منها، والإقامة في أي مكان آخر، ومتابعة رسالتك، فلا شك، كثيرون سيرحلون معك، أو يلحقون بك، إضافة إلى من سيلتحق في مدرستك حيث ستقيم، إني لعلى يقين، أن لك أنصاراً متحمسين بين صفوف جيل الشباب، على

عكس جيل الكبار في العمر وأثينا خاضعة لسيطرة على هذا الجيل.

في الماضي، كان كبار السن يشكلون أغلبية السكان، بسبب النسبة العالية لوفاة الأطفال دون السنتين، لكن الأمر، قادم على التغيير، بسبب انخفاض عدد وفيات الأطفال، إذن ما عليك إلا الخروج من هنا، وأنا متأكد، من أن غيابك عن أثينا لن يطول، فقريباً ستصبح مجتمع الشباب، وليس مجتمع المسنين.

نظر سقراط إلى كبير القضاة وقال «هذا قمة الجبن، فالموت آتٍ، إن لم يكن اليوم فغداً... وكما تعلم، فقد بلغت من العمر شاواً، ولا أريد أن يُقال في أثينا، أني خفت الموت فهربت... أرجوك إعفائي من هكذا مهمة... ليس بمقدروي مغادرة أثينا».

إذن إليك الإقتراح الثاني، قال كبير القضاة... يمكنك البقاء هنا، شرط ألا تتحدث عن حقيقتك، بمعنى أن تتوقف عن التعليم، وعدم تحريض الناس على الصدق والصراحة.

ماذا؟... قال سقراط، إنك تطلب مني ما هو أسوأ من الموت... ولماذا سأعيش، وما نفع حياتي إن لم أستطع نشر المعرفه وتنوير الآخرين؟ أرغب أن أتابع مسيرة حياتي، أن أستمر منادياً بالحقيقة، أن أحث الناس على أن يكون بشراً سويين، ألا يقولون القول الكذب.

وهكذا وجد كبير القضاة نفسه أمام الحل الثالث الذي كان يتمنى ألا يتفوه به، ولكن لم يعد في اليد حيلة.

إذن، ما عليك إلا تناول السم... لا لسبب إلا لأن الأغلبية يعتبرونك مدمراً لعقول جيل الشباب، وأنك تحرضهم ضد معتقدات آبائهم وأجدادهم...إنك تحثهم على أن يكونوا أحراراً، على أن يكونوا متحدين، حتى ولو ضد كل المفاهيم السائدة..

أجاب سقراط «لا مشكلة عندي في تناول السم. هكذا أكون

أموت من أجل قضية ذات أهداف سامية... وهكذا أيضاً، أكون قد عشت مرفوع الرأس ومت كذلك...

ويقال إن سقراط، قال أيضاً: «أيام شبابي، كنت أعتبر نفسي، أعرف كل شيء، ولكن الأيام، أثبتت غير ذلك، أثبتت أني جاهل أموراً كثيرة، وأنه كلما مر يوم، كلما زاد جهلي، لاكتشافي أن هناك المزيد من القضايا التي عليّ حلها...» ولهذا أعلن قُبيل وفاته «إني لا أعرف شيئاً».

تعجب الناس وعادوا إلى الكاهن المفترض ألا يخطىء أبداً وقالوا له «إنك على خطأ فيما قلت... لقد أنكر سقراط ذلك وألمح على أنه لا يعرف شيئاً».

ضحك الكاهن «إنه السبب الذي دعاني للقول إنه الأكثر حكمة في العالم... وحدهم الحكماء المتواضعون، يمتلكون الجرأة ليقولوا ما قال»... إنه التواضع دفعه للقول «إني لا أعرف شيئاً».

الحقيقة أن سقراط، لم يفعل شيئاً، قد ينسب إلى أنانيته، أو يسبب غضبه...ما تطلع يوماً لمنصب سياسي، وما أراد أن يكون ذا نفوذ... وما عرف الغضب يوماً. كان دائماً راجح العقل، دائم الهدوء. ولو لم يكن كذلك، لما تمكن من الإستمرار في العيش مع زوجته التي أقل ما يُقال فيها «إنها امرأة عنيدة... حرون، لم تتوانى يوماً عن ضربه. فيما هو يبقى هادئاً مبتسماً...» وحين سأله أحد تلامذته، كيف يتحمل هذا، جاء جواب سقراط «إنها مشكلتها، تنفعل إلى حدود الغضب، فماذا بإمكاني أن أفعل؟... إنها مشكلتها... إنها تعذب نفسها، لا أحد آخر، وهذا أمر لا يعنيني...».

كان يغضبها جداً، بقاؤه وقتاً طويلاً مع تلامذته أو مع الغرباء الوافدين إليه، ليحدثهم عن الحقيقة والحرية، عن ضرورة البحث

والتحري، كانت تغضب لأنه لم يعطها وقتاً كافياً للإعتناء بها والإهتمام بمشاكلها... إنها زوجته وعليه البقاء إلى جانبها.

تصرفات زوجته هذه، هي تصرفات مشتركة بين الأغلب الأعم من نساء العالم... إنهن يتذمرن ويشتكين من تصرفات أزواجهن، الذين يتجمعون للعب الشطرنج، أو تدخين سيكار، في مكان عام، أو يقرأون جريدة الصباح، أو يلتزمون الصمت حين يكن هن يصرخن ويزعقن... وإن أجاب زوج فلن يقول أكثر من «حسناً وماذا بعد؟» وفي المساء يأوي إلى فراشه وسرعان ما يبدأ بالشخير.

ذات يوم وكان وقت الشاي قد حل، دون أن يوقف سقراط مناقشة تلاميذه ومريديه، مما أغضب زوجته، فجاءت وهي تحمل إبريق الشاي وفيه الماء المغلي، وسكبته على رأسه فاحترق نصف وجهه، لكنه لم يتوقف عن الكلام.

ذهل الموجودون، حتى أنهم أمسوا وكأن الطير حطّ على رؤوسهم... لقد نسوا عما كانوا يتحدثون، لكن سقراط، تابع حديثه دون اكتراث بالذي حصل... ولهذا سألوه «أما زلت قادراً على متابعة المناقشة؟».

نعم... أجاب سقراط... إنها مشكلتها هي، وليست مشكلتي هكذا بدا واضحاً أن الغضب لم ينتقل إليه، و لم يتصرف بأنانية، و لم يتصرف على أنه إنسان خارق.... فقط فعل ما يحب... يحب الحرية والحقيقة.

فيثاغوراس

فيثاغوراس أو الباحث عن الحقيقة بامتياز. ما ترك باباً إلا وطرقه بحثاً عن الحقيقة. لم يكتفِ بالبحث عنها في اليونان بل سافر إلى بلدان كثيرة، إلى معظم بلدان العالم المعروف أيام زمانه... فعل ذلك بحثاً عن الحقيقة، ليلتقي رجال الفكر، والصوفيين المتنوريين، لربما يجد لديهم ما يشبع نهمه فتنكشف الأسرار وتحل الألغاز. ترك اليونان متوجهاً نحو مصر، لا حُباً بالسياحة أو السفر، بل علّه يجد سر اختفاء قارة الأتلنتيس. قد يتساءل البعض لماذا مصر؟ في مصر كانت مكتبة الإسكندرية التي تحتوي على مدونات وكتب تتحدث عن الماضي. كانت - وما تزال حتى اليوم رغم إحراقها، أهم مكتبة عرفها العالم آنذاك. كانت منارة للعلم والمعرفة، يقصدها العلماء والمفكرون، لكن الغزاة أحرقوها، ستة أشهر بكاملها والنار تلتهم الكتب والدخان يتصاعد.

قبل ولادته بنحوٍ من قرنين ونصف. اختفت قارة الأطلنتيس. هكذا تقول الأسطورة. اختفت من الوجود وبقي اسمها خالداً من خلال المحيط الذي اتخذ اسمها، وكأنه لا يكفيه أن غمرها بمياهه بل سوق اسمها وأطلقه على نفسه.

تتابع الأسطورة فتقول، إن اختفاء تلك القارة، عنى اختفاء شعب وصل إلى قمة الحضارة في تلك الأزمان. إنه قانون الطبيعة، الوصول إلى

القمة. يعني الإقتراب من خطر الإنهيار أو الإنتحار... وهذا ما تواجهه الإنسانية، حين يمتلك الإنسان قوة خارقة، ولا يعرف، كيف يتصرف، أو لا يعرف كيف يستعمل هذه القوة، حينذاك، تتحول هذه القوة إلى مصدر خطر على من يمتلكها، على الإنسان.

لم تختفي الأتلنتيس بفعل عامل طبيعي، بل بفعل وصولها إلى أعلى قمة، من الممكن أن تصلها حضارة. وبفعل امتلاكها قوة خارقة، تفوق الخيال، تفوق قدرة الطبيعة على تحملها. تماماً كإنسان هذه الأيام، امتلك القوة النووية، فإذ بهذه القوة تدمره وتقضي على كل ما بنى، على كل ما كان سبب رفاهيته وسعادته... إنه الإنتحار... هذا ما حصل لقارة الأتلنتيس أو أقدم قارات الأرض، اختفت... ولكن سر اختفائها كان هناك.. في مكتبة الإسكندرية. هذا ما كانت تقوله الأسطورة.

كذلك هناك أساطير وخرافات، تتحدث عن حدوث طوافانات، قضت على العديد من الحضارات، حتى الأديان، تحدثت عن هكذا طوافانات؛ المسيحية، اليهودية والهندوسية وأشهر هذه الطوافانات، طوفان نوح الذي تتحدث التوراة اليهودية عنه، وما فُلك نوح - بسفينة نوح - إلا رمز استمرار الحياة، أو غير مسموح أن يقضي الطوفان على الجنس البشري بأكمله ولا على الكائنات الحية بأكملها. هؤلاء الناجون، هم الذين تحدثوا عن حضارات ما قبل الطوفان، عن أسرار تلك الأيام، وتلك الأسرار كانت وما تزال محفوظة في مكتبة الإسكندرية على ما كان يُعتقد.

أمضى فيثاغوراس سنوات عدة في الإسكندرية، اطلع خلالها على خفايا المعتقدات المصرية، وعلى أسطورة الإله هرمس خاصة. بعد الإسكندرية، قصد الهند، حيث تعمق في دراسة الديانة البراهمية،

وتعرف على ذات الإنسان الداخلية، أو العالم الداخلي للإنسان. كما في الإسكندرية، كذلك في الهند، أمضى فيلسوفنا سنوات عدة، شدّ رحاله بعدها، متوجهاً نحو التبت ومن ثم الصين. إنه العالم المعروف، أيام حياته. لم يكن أحد، يتجه غرباً، نحو شواطىء الأطلسي، أو أوروبا الغربية، بل كان الكل يتجه شرقاً، نحو مصر، نحو بلاد ما بين النهرين، نحو الهند والصين. هكذا، أمضى فيثاغوراس حياته باحثاً عن المعنى الحقيقي للفلسفة: حب الحكمة، كان محباً، كان فيلسوفاً. إنما ليس وفقاً لمفهوم عالمنا المعاصر، بل وفقاً لمفهوم العالم القديم. ولأن المحبّ، ليس بوسعه أن يكون إفتراضياً، وليس مسموحاً له أن يفكر بالحقيقة فقط، بل المحب، عليه أن يكون باحثاً عن ما يحب، أن يغامر من أجل الوصول إليه.

الحقيقة هي المعشوق. فكيف تمضي أيامك تفكر فيها فقط؟ عليك أن تتواصل مع المعشوق، أن تتحد به. وهذا لن يكون عن طريق العقل وحده، بل عن طريق الحدس أيضاً. قد يكون العقل بداية الطريق، بداية فقط، إنما، وفي النهاية، ستجد نفسك جسداً وروحاً، عقلاً وحدساً، منغمساً في عملية البحث عن الحقيقة: المعشوق. ولن يتم هذا، إلا إذا كان المرء خلوقاً كريماً، متحرراً، لا أفكار مسبقة عنده ولا أحكاماً يبني عليها، عليه أن يكون منفتح العقل، متقبلاً للآخر، وإلا لن ينال احترام الآخرين. هكذا كان فيثاغوراس. ما حلّ ضيفاً على أحد، إلا واستقبل بالتأهيل والترحاب، وباحترام لما يمثل فكرياً وروحياً. كان إنساناً معروفاً في شرق ذاك الزمان، كما في غربه، لكن هذا لم يغيِّر من طباعه، بل بقي متواضعاً، مبتسماً، باحثاً عن الحقيقة، بكل أشكالها ومعانيها وأبعادها. كان مستعداً للتعلم من أي إنسان يلتقيه، حتى من أولئك البشر العاديين، من العمال والفلاحين. كان معتبراً نفسه تلميذاً، وعلى التلميذ البحث عن المعرفة في كل مكان. لا مكان محدداً للمعرفة ولا

مصدر واحداً. ولهذا، كان على استعداد للتعلم من أي إنسان، وحتى آخر يوم في حياته، بقي فيثاغوراس طالب علم ومعرفة.

بذل جهداً كبيراً، جهداً لا يقدر بشيء. لقد ترك اليونان وتوجه إلى مصر، ومن ثم الهند فالصين... إنها ليست رحلة عادية، كما هي اليوم، إنها مخاطرة... إنها مغامرة. اليوم يمكنك تناول طعام الفطور في نيويورك، وطعام العشاء في لندن أو في باريس... الحياة صارت أسهل اليوم، ما من رحلة تستغرق أكثر من ساعات. في الماضي، كانت تتطلب سنوات وصبراً وجلداً وتحملاً للعذاب والمشقات.

حين عاد إلى موطنه، كان قد أصبح رجلاً عجوزاً، لكنه متنوراً، فكانت المدرسة التي عرفت باسمه، أخذ ينادي بالحقيقة، الحقيقة التي تتوصل إليها عبر البحث والإختبار، لا افتراضاً ولا تخميناً، فأزعج مجتمعه... فكان لا بد من اضطهاده. أمضى حياته باحثاً عن حقيقة الفلسفة، وحين وجدها، لم يكن مسموحاً له أن يتحدث عنها.. لم يكن مسموحاً له أن يتحدث عن وحدة الكائن البشري، وحدة الروح والجسد. كان يتنقل بحثاً عن الحقيقة، أما اليوم، فها هو يتنقل من مدينة إلى أخرى، هرباً من الإضطهاد....

إنه يريد تعليم الآخرين، ما تعلمه هو. يريد إعطاء مخزونه المعرفي، لكن هذا ليس مسموحاً.

يا للغباء؟ ماذا فعل هذا الإنسان، حتى يكون مضطهداً؟ لقد فعل، ما لم يتمكن أحدٌ غيره أن يفعله. جعل نفسه جسراً بين الغرب والشرق. إنه أول من حاول معرفة العقل الشرقي. كما تعرف بعمق إلى العقل الغربي. كان إغريقياً، نما على المنطق، وتشبع بالأفكار العلمية الإغريقية، وقصد الشرق، حيث تعرف إلى ماهية الحدس والإدراك، حيث تعلم أهمية الروح، واطلع على الفكر الصوفي. كان رياضياً بارعاً. لعبت

الرياضيات دوراً مهماً في بناء شخصيته، وها هو يصبح متصوفاً...

إنها الثورة... لقد تمكن من جمع النقيض مع نقيضه.

كان أول من حاول فعل المستحيل ونجح. جمع الشرق والغرب في شخصيته، جمع مبدأي الذكورة والأنوثة، فصارا واحداً، كان فيثاغوراس قمة شامخة، وهوة عميقة، كان نوراً مشعاً، في مواجهة الظلمة... كان مزيجاً من المتضاربات... كان مزيجاً نادراً.

ولكن... ويا للأسف، تمكن الأغبياء من تدمير حياته، والقضاء على ما يختزن... فقط بضعة أبيات شعرية، ما تزال تحدثنا عنه، عن علمه، عن فكره، هذا كل ما تبقى من إرث إنسان ما عرفت البشرية مثيلاً له. والمؤسف أن هذه الأبيات، ليست مكتوبة بخط يده، مما يعني، أن الأغبياء أحرقوا أو مزقوا كل كتاباته.

يوم مماته، أُحرق الآلاف من أتباعه. واحد... واحد فقط، تمكن من الفرار، إنه ليسيس ...Lysis تمكن من الفرار والنجاة، ليس بحياته وحسب، بل ليحفظ بعضاً من إرث معلمه «أشعار فيثاغوراس الذهبية» التي كتبت بخط يد ليسيس.

مات فيثاغوراس، فأحرقت مدرسته، تماماً كما أحرقت مكتبة الإسكندرية فيما بعد، آلاف من أتباعه، إما ذبحوا أو أحرقوا، وقُضي على ما جناه فيثاغوراس طيلة حياته. الكنوز الرائعة، كنوز العلم والمعرفة، وأحرقت تلك الكتب المقدسة التي جاء بها معه، من الصين، الهند، التبت ومصر... كلها أحرقت... إنه الغباء بعينه...

أراد ليسيس، إبقاء فكر معلمه، فكتب أشعاراً عدة، لم ينسبها إلى نفسه، بل إلى معلمه... إنها أشعار فيثاغوراس الذهبية، مع أنها ليست بخط يده.

فيثاغوراس، أول من حاول جمع الأضداد. خمسة وعشرون قرناً

مضت على محاولته، وحتى الآن، لم يتجرأ أحد على القيام بمثل هذه المحاولة، وحتى قبله أيضاً لم يحاول أحد. إن ما فعله بحاجة لإنسان عالم وصوفي في آن. قد يقول أحد أن إنساناً كهذا نادر الوجود، لكن فيثاغوراس كان هذا الإنسان. هناك متصوفون متنورون كثر، هناك بوذا، لاوتزو، كبير، زارتسورا وغيرهم، كذلك عرفت البشرية علماء كباراً أمثال: نيوتن أديسون، أنشتاين، ولكن ما من أحد من هؤلاء، كان صوفياً وعالماً في آن. يستحيل أن نجد إنساناً صوفياً وعالماً في آن، ولكن فيثاغوراس كان كذلك. كان صوفياً وعالماً في الوقت نفسه.

حكمة فيثاغوراس تستند إلى مبادئ ثلاثة، معروفة على أنها مبادئ فيثاغوراس: الإستعداد، النقاء، ومن ثم الكمال.

الإستعداد: يعني أن تكون ذا عقل منفتح، يعني أن تكون متعطشاً للارتواء من نبع الحقيقة. الإستعداد، لا يعني أن تكون قلقاً، لا يعني أن تفكر، كيف تستفيد من الحقيقة. إنما يعني الإلتزام بالسعي للوصول إلى الحقيقة، عملياً وليس نظرياً فقط.

الإستعداد هو البداية، بداية الإحساس باللهفة بالشوق، وحين تصبح أكثر قرباً من «السيد»، هذا يعني إزدياد اللهفة عندك والتهاب الشوق، سيزرع في صدرك بذور الشوق. سيجعل منك إنساناً قلقاً أرقاً، لن تغفو لك عين ولن يقوى النعاس عليك... أنت ملتزم بأمر جدي، بأمر التعرف إلى الحقيقة... ستفجر كل طاقاتك من أجل الحقيقة ستنسى كل اهتمامات الحياة، كل رغباتك. كل أحاسيسك ولن يشغل بالك شيء إلا التعرف إلى الحقيقة. كل شيء سيصبح اسمه الحقيقة. إنها هدفك الأعلى والأسمى... حرام عليك إضاعة الوقت وهدر القدرات... هكذا تكون تُفقد الحياة معناها وماهيتها. قبل أن يصمم المرء على التوجه نحو الله، تكون حياته بلا معنى، وحالما يتوجه

نحو الله، يتدفق نهر القوة في داخله، القوة التي تدفعه للمضي في طريقه، نحو الله، نحو الحقيقة المطلقة.

المبدأ الثاني هو النقاء، أن تكون نقياً، ولن تكون هكذا، إلا بعد القضاء على الرغبات. لا مجال للوصول إلى الهدف الأسمى، إلى الحقيقة، إلا بعد أن ترمي كل ما يدنس وجودك. كل ما هو ليس ضرورياً، لا ضرورة للحقائب والثياب، لا ضرورة للأوهام والترهات التي كانت تعني لك شيئاً. أما الآن، فأنت ترغب أن تكون نقياً طاهراً، يعني أن تتخلص من سموم الحياة، السموم التي تسمم جسدك وعقلك. هناك مفاهيم كثيرة متوارثة عن عقائد وديانات، مفاهيم أشبه بالسموم، مفاهيم تشدك إلى التقيد بأعراف المجتمع وخاضعاً لشروطه.

النقاء يعني التخلي عن كل شرط يعيق مسار حياتك، عن كل الإيديولوجيات التي تكبل فكرك، عن كل الأحكام المسبقة على الأشياء والآخرين، عن كل الفلسفات، عن كل شيء أورثك أو - علّمك - إياه الآخرون. النقاء، يعني أن تكون صفحة بيضاء، بيضاء تماماً وكلياً، في مثل هذه الحال، فقط يستطيع الله أن يخط على هذه الصفحة شيئاً من ألوهيته. أيضاً، لا يستطيع الله التكلم إليك، إلا إذا كنت مصغياً إليه كل الإصغاء، وليس لأي أحد آخر. كذلك، النقاء يعني أن تكون إناءً فارغاً، حتى من أصغر نقطة ماء، حتى يتمكن الله أن يسكب فيك روحه. الحقيقة ليست بعيدة المنال، ولا يصعب نيلها. ولكنك أنت... أنت من يقرر هذا. فوق جلدك تتراكم طبقات وطبقات، حتى شخصيتك تنقسم إلى شخصيات، وعلى وجهك ألف قناع وقناع، مما يمنع الآخرين من رؤية وجهك الحقيقي، عليك رمي تلك الأقنعة، لتقابل الناس بدون قناع، بوجهك الحقيقي، عليك أن تكون أنت... أنت.

النقاء يعني عدم الإختباء وراء الأشياء، عدم اكتساب ما تُعطى،

ويعني ألا تُردد ما تسمع... يعني أن تكون أنت ذاتك، نفسك ولا أحد آخر.

هكذا، وبعد أن تتوقف عن ترداد ما يقوله الآخرون، وحين تتخلص من كل السموم الإجتماعية - هكذا يقال إجتماعية - حين تصبح مرآة لا غبار عليها، حينذاك، تكون قد بدأت تخطو نحو مرحلة الكمال... وستجد الكمال يقترب منك من تلقاء ذاته.

فيثاغوراس، أول من ابتكر واستعمل كلمة «الفلسفة» وكذلك كلمة «فيلسوف». الفلسفة تعني حب الحكمة، والفيلسوف تعني صديق الحكمة. قبل ذلك كانوا يقولون «الحكمة Sophia)(وتعني الحكمة، والحكيم أو العاقل Sophos، وتعني الإنسان الرجل الحكيم العاقل الواعي.

الحكيم كلمة جميلة. ولكن تذكر أنها لا تعني القداسة، القديس هو نقيض الخاطئ. إنهما متضادان لا يلتقيان أبداً كالخطوط المتوازية، ولكن لا وجود لواحد منهما دون الآخر، إنهما شركاء في صنع هذا الوجود. عالم بلا قديسين، يعني عالماً بلا أشرار، والعكس صحيح، فإن أردت عالماً بلا خطأة، فما عليك إلا إخفاء جميع القديسين، وهكذا يختفي الأشرار من تلقاء ذاتهم.

إن وجود القديسين هو سبب وجود الأشرار الخطأة وكلما ازداد احترامك للأولين، زاد احتقارك للآخرين. ولمن السخرية بمكان، أن لا غنىً عن وجود الإثنين معاً، إنهما وجهان لعملة واحدة، ولا يختلفان إلا في التوجهات، أحدهما الجانب المظلم من الحياة، في حين، اختار الآخر الجانب المضيء، أحدهما اختار الليل، والآخر اختار النهار، ولكن الحقيقة التي لا جدال فيها، أن اليوم يتألف من الإثنين معاً: من الليل والنهار. وإذا أمعنت النظر في القديس، وحاولت الدخول إلى

ذاته، فلا شك ستجد إنساناً شريراً مختبئاً في مكان ما من ذاته، كذلك الأمر بالنسبة للشرير، ففي مكان ما من ذاته يختبئ إنسان صالح.

العاقل الحكيم، ليس هو هذا ولا ذاك، إنه الإثنان معاً، إنه الليل والنهار. إنه يتقبل الحقيقة عارية؛ ولا يهتم بتغيير مجرى الحياة. إنه إنسان رائع، يتقبل الحياة، كما هي، تجتمع فيه المتناقضات، من هنا اكتسبت كلمة المعرفة أهميتها، ولكن، ومع مرور الزمن، أخذت هذه الكلمة تفقد أهميتها. المشكلة، حتى الشرير بمقدوره أن يتساءل: «وماذا بإمكاني أن أفعل؟» لقد أراد الله قتل فلان على يدي... أو أني سرقت بناءً لأوامر من الله... وأنا نفذت أوامره» إنها السفسطائية بعينها. والأنكى، أنه ليس بمقدورك مناقشته فيما يقول. وهكذا تتحول الحكمة أو المعرفة إلى سفسطائية وكذلك تحولت كلمة صوفياً: الحكمة ليست هي المعرفة، لكنهما متشابهان. المعرفة تدعي أنها الحكمة، لكنها الضد لها. المعرفة مكتسبة، مستعارة من الآخرين، ولهذا، فقد لا تكون هي الحقيقة.... بينما الحكمة تنبع من ذاتك، إنها تزهرك إنها الفهم الذاتي، أو المعرفة الذاتية.

الحكمة ثورة نابعة من وجودك، من كينونتك. بينما المعرفة كلام فارغ، هراء لا يغني ولا يفيد، يمكنك اكتساب المعرفة من الآخرين، ولن تغيّر في أهميتك... أنت ستبقى أنت، شيء واحد يتغير، أنك تزداد معرفة لأشياء جديدة، بينما تبقى تفتقد إلى الحكمة.

الفلسفة هي الحكمة، والحكمة تنبع من الذات، لا تُستعار ولا تؤخذ أو تعطى، إنها تجربتك الخاصة، إنها تعبر عن ذاتك، عن جوهر وجودك... أما إذا كنت تردد ما يقوله الآخرون فهذه هي السفسطائية، النقاش للنقاش، دونما هدف، بلا اهتمام للوصول إلى الحقيقة. المعرفة ناتج ثقافي، أما الحكمة فتأتي من الحدس. المعرفة تأتي من العقل وتراكم

فيه، بينما الحكمة نابعة من القلب وتتراكم فيه. من هنا فالحب لا يفسر منطقياً، لأنه الحب، إنه شعور، إحساس يصعب تحليله وفقاً لمنطوق المنطق أو علم الحساب.

إنطلاقاً مما تقدم، أوجد فيثاغوراس كلمة جديدة «الفلسفة» أو حب الحكمة، كذلك أوجد كلمة «فيلسوف» أو صديق الحكمة. هل لاحظت أمراً مهماً؟... حين تناقش إنساناً آخر، تكون مهتماً بإثبات «أناك»، أكثر من اهتمامك بالحقيقة.

تقتنع أحياناً، أنك على خطأ، ولكن لا تتراجع ولا تعترف بهذا الخطأ، لأن هذا يعني إهانة لذاتك «لأناك» إنك تدافع عما تقوله، لأنه رأيك، وليس لأنه الحقيقة، إنك تحاول إقناع الآخرين بعدم صوابية ما يقولون، ليس لأنه غير صحيح، بل لأنه رأيهم، يعبر عن ذواتهم عن «أناهم» إنها السفسطائية بعينها.

أن تحب امرأة، يعني أن تخوض تجربة حياتية رائعة: الحب بين الجنسين. حقيقة لا نقاش فيها، لأنه شعور نابع من القلب وإحساس متفجر من الذات، تنتهي عذاباتك وهي بين ذراعيك، تشعر بالنار تحرق جسدك، كل جسدك، وأنت تقبلها، ولكن هذا لا يحدث حين تكون مع بائعة هوى. مادياً كلتا هما متشابهتان، أما روحياً فلا... إنهما مختلفتان كل الإختلاف. البغاء يعني بيعاً وشراء، بينما الحب يعني تعبيراً عن الروح الإلهية التي حلت في الإنسان... يمكنك، ساعة تشاء، أن تجد بائعة هوى، أن تجد عاهرة تبيعك جسدها، تمنحك لذة عابرة، بينما، ليس بمقدورك أن تجد حبيبة إلا بعد معاناة. من هنا، الفلسفة هي المعشوقة، والبغاء هو السفسطائية.

كذلك أوجد فيثاغوراس مفهوماً جديداً للعالم، فقال «الكون». الكون يعني الإنتظام، الإيقاع، التجانس. الوجود ليس فوضوياً، بل

هو الكون، كل شيء فيه منتظم ،متجانس... لم يأتِ فيثاغوراس بهذا المفهوم من العبث، بل نتيجة استقصاءاته العلمية.

العلوم هي وليدة النظام الكوني، ولولا ذلك لانتفت الحاجة إلى العلوم... فلو كانت القوانين التي تسير هذا العالم تتغير بين لحظة وأخرى، أو بين يوم وآخر، فكف تكون بحاجة للعلوم، طالما هي - أي العلوم - غير ثابتة، ولا تعرف الإستقرار. فالماء يتبخر عند الدرجة مئة، هذا أمر مسلم به، ولا يمكن أن يتبخر عند درجة أدنى.

تفترض العلوم، أن الوجود مسيّر بانتظام، أن هناك قوانين تتحكم به، منعاً لأي اختلال. كذلك بالنسبة للديانات والتعاليم الدينية... إنها تشبه القوانين العلمية التي تسير المادة، والتعاليم الدينية، هي قوانين ثابتة تسير ذات الإنسان، وتوجهه لفعل كذا، والإمتناع عن فعل كهذا.

هذه القوانين، علميةً أو دينيةً، تُكتشف نتيجة التجربة والإختبار، ولا تُخترع، بإمكان المرء اختراع طائرة، ثلاجة، أو ما شابه، لكنه لا يستطيع اختراع نور الشمس وتفاعلاته، بل يكتشف هذا، لأنه موجود أساساً. كذلك هي الحقيقة.

نعم كذلك هي الحقيقة... الحقيقة تُكتشف ولا تُخترع. اكتشف أنشتاين قانون النسبية، نيوتن اكتشف قانون الجاذبية، كريشنا اكتشف النعمة الإلهية... كل هذه قوانين، إما قوانين مادية، أو سماوية، تتعلق بأمور مرئية وأخرى غير مرئية.

حتى عالم الروح - مثله مثل عالم المادة - خاضع لقوانين ثابتة غير متغيرة، قوانين أزلية، قوانين غير محددة بالزمن، إنها غير محدودة بالزمن الذي هو واحد من القوانين التي تتحكم بهذا العالم... ليس بمقدورك أن تقوم بأمر ما، إلا إذا كنت تعرف، ومتأكد، مما تنوي القيام به، وإلا لكان الفشل من نصيبك. يمكنك مصادقة الطبيعة، ولكن متى؟... حين

تكيّف نفسك لتتلاءم معها، هي الثابتة وأنت المتغير... يمكنك فعل ما تريد، وفقاً للقوانين المسلم بها، وليس في مقارعة هذه القوانين.

بالنسبة لفيتاغوراس، العلوم هي البحث عن الحقيقة المجردة عن الغايات الشخصية، عن الحقيقة الموضوعية المدركة بالحواس، والدين هو بحث عن الحقيقة الذاتية للإنسان... وكذلك الفلسفة تهدف إلى الوصول للحقيقة... الحقيقة هي الهدف الأوحد والأسمى للفلسفة هكذا إذن، العلوم والديانات، هي جناحا الفلسفة، إنهما ليسا متضادان، بل متكاملان، كلاهما يسعى إلى الهدف ذاته: الحقيقة.

من هنا، فلا عداوة بين الكنيسة، الجامع والمعبد من جهة وبين المختبر العلمي من جهة أخرى، بل على كل هؤلاء العمل معاً من أجل إغناء الإنسان الذي هو بحاجة إلى العلوم والديانات معاً. لو اختار الإنسان العلوم وحدها، لا شك سيغتني بالمعرفة وسيتطور خارجياً فقط، مادياً لا غير. كذلك لو اختار الدين وحده، فسيغتني داخلياً لا أكثر، إذن هو بحاجة للإثنين معاً، للعلوم والدين.

اختار الغرب التقدم العلمي، فتقدمت الحياة المادية فيه، أوجد شتى الوسائل، من السيارة حتى الطائرة، حتى المكوك الفضائي... لكن، بقي الإنسان تعيساً، لأنه خسر إنسانيته، لم يعد سوى رقم في تعداد السكان، أو في إحصاءات شركات الإنتاج والبيع والشراء. حتى الإنسان في الغرب، يحس أنه بحاجة ماسة لنور داخلي، للنعمة الإلهية، بحاجة لأن يكون نقياً طاهراً.

أما الشرق، فقد اختار الدين لمقاومة العلوم فاغتنى الشرقيون داخلياً، أحسوا بالهدوء والسكينة، لكنهم كادوا يموتون جوعاً، اهتموا بالذات الروحية فقط، ونسوا الجسد، أنكروا عليه احتياجاته، فأحسوا بالألم والوجع، أصابهم المرض، ولكن أين هو الدواء؟ أحسوا بالجوع، ولكن

أين هو الطعام؟ ها هي الأراضي، ملايين الهكتارات، ولكن كيف نستفيد منها؟ وفي المقابل يعاني الغربيون، من الكآبة والإحباط النفسي. كل هذا، لأنه، لا الغرب، ولا الشرق، أصغى لفيتاغوراس... لو أدرك الكل أهمية ما قال به فيثاغوراس، لما كان ضرورياً أن يبقى الغرب هو الغرب، والشرق هو الشرق. إذن

لماذا على الإنسان أن يكون مادياً فقط، أو روحانياً فقط؟ لا ضرورة لهذه «الفقط» أبداً. كما التقت الروح مع الجسد في كيان واحد. وكما هما متآلفان متجانسان، كذلك يمكن للمادية أن تتحد بالروحانية...

لا ضرورة أبداً أن يختار الإنسان أمراً من الإثنين بل عليه أن يجمع الإثنين معاً، وهكذا يكسب الغنى المادي والثراء الداخلي.

فريدريك نيتشه

قد يكون أعظم فيلسوف عرفه العالم، نعم قد يكون كذلك، بكل ما للكلمة من معنى، كان عظيماً في كل شيء فعله، الأهم، ومن غريب المفارقات، أنه ولد إنساناً صوفياً، مع أنه ولد في الغرب المادي، في الغرب الذي لا يعترف إلا بالعلوم المادية. في الغرب الذي اكتشف قوانين الطبيعة والكون، ولم يفكر يوماً بذات الإنسان وروحه. كان فيلسوفاً، استمد حكمته ليس من العقل وحسب، بل ومن صميم قلبه أيضاً.

لأنه ولد في الغرب، لم يسمح له الإنتماء إلى أي مدرسة صوفية، كان يتأمل بعمق، دون أن يعي معنى التأمل. كان لأفكاره، أحياناً، صدى المتأمل المتنور، فيشبه بوذا، لكنه لم يكن يعي ذلك، كان إنساناً عفوياً، لا يعرف التعقيد وجاهلاً معنى التنور، لا يدرك كيفية الدخول إلى ذاته.

كان يحلم، وكانت أحلامه تسمو وترتفع إلى مستوى النجوم أو أبعد، وفي الوقت ذاته، كان يحيا حياة جد عادية.

كانت أفكاره رائعة، تمتاز بالجمالية، إنما تنقصها الحيوية، لم تكن كلماته مفعمة بالحياة، كانت شبه ميتة، جامدة ورغم هذا قررت أن أتحدث عنه... قررت ذلك لسبب جوهري.

إنه الفيلسوف الوحيد، في الشرق والغرب، الذي اعتبر إرادة

الإنسان، هي مصدر قوته وقدراته، والفيلسوف الأوحد الذي جمع في شخصيته، روحانية بوذا وعبثية زوربا اليوناني... إثنان متناقضان، لكن نيتشه أثبت إمكانية التقائهما معاً... في كل منهما نفحة إنسانية، وكلاهما، مهما ارتفعا يقيان مشدودين إلى الأرض. إنه الفيلسوف الأوحد الذي قال بضرورة إرتقاء الإنسان بذاته لبلوغ أعلى درجات القوة.

بالنسبة لنيتشه، الوعي، يعني اختفاء اللاوعي، يعني محاربة الظلمة. إنه خيارنا، إما العيش في أودية سحيقة مظلمة، أو على رؤوس القمم، حيث نور الشمس تسطع. وإذا قررنا أن نعيش على هذه القمم، فلا أحد يقدر على منعنا من ذلك، إنها ارادتنا ولا أحد يحول دون تنفيذ ما نريد.

إنه قدر العبقري، ألا يفهم الجميع أفكاره، ألا يستوعبوا مفاهيمه، ولكن، وفي مثل هذه الحال، يفقد العبقري أهميته، لأن من يرغب أن يغيّر الآخرين، عليه أن يخاطبهم بما يفهمونه، بما يستوعبونه، عليه أن يدغدغ مشاعرهم، ويلامس عواطفهم وهذا ما آلم نيتشه... لقد تم فهمه بشكل خاطىء، أو، بتعبير أصح، لقد أسيء فهمه. وهذا أمر طبيعي... فحتى تفهم فيلسوفاً كنيتشه، عليك أن تكون متمتعاً بذات القدر من الوعي، إن لم يكن أكثر من ذلك... وأبشع ما في الحياة، أن نسيء الفهم. من هنا يمكننا القول: إن أدولف هتلر، كان متخلفاً عقلياً، ويصعب عليه فهم مقاصد نيتشه، وبالرغم من هذا، فقد أصبح نيتشه نبياً عنده، لقد جعل منه نبياً، وانطلاقاً من تخلفه العقلي- أي هتلر - راح يؤول أفكار نيتشه، ويفسرها على هواه، كي تتناسب مع ما يريد، وهكذا كانت الحرب العالمية الثانية.

رأى نيتشه أن الحق للأقوى لكنه حين نادى بالقوة، لم يكن يقصد

ضرورة استغلال القوة للسيطرة على الآخرين، إنما النازية هي التي أعطت هذا التفسير لما قاله نيتشه.

«إرادة القوة» هي عملياً نقيض كلي لمفهوم السيطرة. ذلك لأن الرغبة في السيطرة على الآخرين - أو التسلط - هي نتيجة الإحساس بالدونية - فمن يريد السيطرة على الآخر، يفعل ذلك إثباتاً لوجوده، وإعلاناً أنه إنسان متمتع بالقوة والقدرة، لكن هذا الأمر، يحتاج إلى إثبات - إثبات أنه متمتع بالقوة والقدرة - إنما ليس عن طريق السيطرة على الآخرين.

الإنسان القوي، لا يحتاج إلى إثبات قوته، لأنه قوي فعلاً، وهل من أحد طالب الورود أو الزهور، إثبات جمالها؟ أو هل القمر بحاجة لإثبات أنه القمر، وأنه رفيق العشاق في ليالي السمر...؟ القوي هو من يثبت قوته من خلال تعاطيه مع الآخرين، ومحاولة كسب ودهم، وليس من خلال السيطرة عليهم ويجعلهم يشعرون أنهم دونه.

الإنسان القوي، هو ذاك الذي يرغب بتفجير كل الطاقة الكامنة فيه، والإرتفاع بذاته إلى أعلى المستويات، حتى حدود السماء، لكن هذا، لا يعني أنه يرغب بالإرتفاع عن الآخرين. إنما، وببساطة، يحاول الإرتقاء إلى مستوى قدراته وطاقاته.

«إرادة القوة» إنه أمر شخصي فردي. والقوي هو من يحاور النجوم، إنما لا يهتم بإثبات دونية الآخرين، إنها نوع من المنافسة مع الآخرين، وليست عملية مقارنة.

جاء أدولف هتلر وأتباعه النازيون الذين تسببوا ليس بدمار العالم المادي وحسب، بل وبتدمير الذات الإنسانية للإنسان، لقد منعوا الآخرين من فهم أفكار فريدريك نيتشه فهماً حقيقياً، أرادوا أن يفهم الآخرون ما يرغبون هم بنشره. لقد أساؤا فهم نيتشه، وأرادوا للآخرين

أن يستوعبوا ما أساؤا فهمه، وليس ما هو حقيقي... إنه القدر المشؤوم الذي لم يسبق للتاريخ، أن عرف، ما سببه النازيون لصوفي رائع، أو لأي شاعر عظيم كنيتشيه، إن إساءة فهم أدولف هتلر وأتباعه النازيين، لما قاله نيتشه، يشبه صلب المسيح ودس السم لسقراط... لا اليهود استوعبوا ما كان يبشر المسيح فيه، ولا كهنة الإغريق، تقبلوا فلسفة سقراط، فكان أن صلب الأول، ومات الثاني مسموماً.

لقد أساء أدولف هتلر فهم فلسفة نيتشه، فتسبب هو والنازيون بقتل ملايين البشر - وانطلاقاً من فلسفة نيتشه - ودمروا مدناً أوروبية بكاملها... ولكن، ما إن انتهت الحرب العالمية الثانية، وما إن انتهى هتلر وأتباعه النازيون، حتى أخذ العالم يعيد قراءة فلسفة نيتشه، قراءة صحيحة، وأزيلت اللعنة عنه... لعن العالم نيتشه، ليس بسبب أفكاره، بل بسبب تأويلات النازية لتلك الأفكار.

أخبرني أحد أصحاب دور النشر اليابانيين، أن المواطنين اليابانيين يقبلون على شراء كتب نيتشه بنهم. إن كتبه تعتبر من الكتب الأكثر مبيعاً. لماذا؟ لأن الحقيقة، لا بد وأن تعرف. وكذلك الأمر في كوريا الجنوبية والهند... ذكرت هذه البلدان لأنها من البلدان التي يهتم مواطنوها بقراءة كتب التصوف والتأمل، أكثر مما يهتمون بقراءة مواضيع أخرى... فحتى هؤلاء صاروا يقرأون نيتشه.

لماذ؟ لأن الناس يفهمون الأمور إنطلاقاً من منطقهم الذاتي، وحسب درجة وعيهم... وهنا أروي الحادثة التالية.

دخل سامي الصغير إلى غرفة جده وراح يخبره، عن العالم الكبير ألبرت أينشتاين مكتشف نظرية النسبية، فسأله الجد:

_ حقاً؟ وماذا تقول هذه النظرية؟

حدق سامي بجده وقال:

ـ حسب قول أساتذتنا، قليلون في العالم، هم القادرون على فهم نظرية النسبية.

ـ لماذا يا حفيدي؟ تساءل الجد، وألح على حفيده أن يشرح له هذه النظرية.

ـ حسناً، قال سامي - وفقاً لما قالته المعلمة، فالنسبية تعني أنه لو أمضى فتى خمس ساعات مع حبيبته، لاعتبرها خمس دقائق، بينما لو وضع هذا الفتى يده في النار لمدة خمس ثوانٍ لاعتبرها خمس ساعات... هذه هي نظرية النسبية يا جدي.

هز الجد رأسه وقال:

ـ وماذا استفادت الإنسانية من نظرية أينشتاين هذا؟

فعلاً، كلٌ يفهم الأمور حسب درجة وعيه... ووفقاً لغاياته الشخصية. وهذا ما حدث لنيتشيه.

بالصدفة، وقع كتاب نيتشه، بين أيدي النازيين، وعلى رأسهم أدولف هتلر.

كان هؤلاء يبحثون عن فلسفة تبرر الحرب، فكان نيتشه المبجل الأقوى. كانوا يبحثون عن أهداف، من أجلها يشنون الحرب، فوجدوا ضالتهم عند نيتشه «الإنسان الخارق... سوبرمان».

كان العرقيون الألمان يبحثون عن مبرر لمد سيطرتهم على الآخرين وإذلالهم، فوجدوا نيتشه ينادي بالإنسان القوي، الإنسان المتمتع بقوة استثنائية، بقوة فوق طاقة البشر... كانوا يهدفون للسيطرة على العالم، فاستغلوا مقولة نيتشه «إرادة القوة» فحولوها إلى «القوة للسيطرة». مسكين نيتشه لم يتصور أنه سيأتي بعده من يسيء فهمه. من يستغل مقولاته لغايات تدميرية، و لم يتخيل يوماً أن أفكاره الرائعة، ستتحول

إلى كابوس يؤرق حياة البشرية ويهددها... ولكن ماذا كان بوسعه أن يفعل، إذا الآخرون أساؤا فهمه؟

ذات يوم، صعد مخمور، تفوح منه رائحة الدخان، صعد إلى حافلة النقل العام وهو يجرجر رجليه، واختار مقعداً إلى جانب كاهن كاثوليكي.

حدق المخمور بالكاهن طويلاً:

ـ أرغب توجيه سؤال لك يا أبتي... ما الذي يسبب داء المفاصل؟

بهدوء أجاب الكاهن:

ـ لداء المفاصل أسباب كثيرة. أهمها الإكثار من احتساء الخمر، التدخين، ومعاشرة بائعات الهوى.

ـ حسناً... قال المخمور... لهذه الأسباب إذن...

وساد صمت مطبق... شعر الكاهن خلال هذه الفترة أنه أجاب السائل بفظاظة، بينما عليه كرجل دين مسيحي، أن يكون لطيفاً معه... فنظر إليه وقال:

ـ أعتذر منك يا بني، ربما وجدت جوابي مزعجاً، إنما منذ متى وأنت تعاني من آلام داء المفاصل؟

ابتسم المخمور وقال:

ـ أنا؟... لا أعاني من هذا الداء أبداً.

ـ ولماذا تسأل إذن؟ قال الكاهن.

ـ فقط لأني قرأت في الصحف، أن قداسة البابا يعاني من مرض داء المفاصل.

فماذا عسى الكاهن أن يفعل في مثل هذه الحال؟ أعطى جواباً، دون أن يدري إلى أين سيودي به، فإذا بجوابه يرتد عليه، وكل هذا بسبب

سوء الفهم. ماذا بمقدورك أن تفعل، إذا قلت كلمة، وأساء السامع فهمها؟

هذه هي حال نيتشه مع أدولف هتلر والنازيين. إنه بريء كل البراءة مما ألصق به، ونسب إليه، لقد أوّل النازيون أفكاره وفقاً لما يرضي أهواءهم ومزاجهم، والمشكلة الكبرى، هي أنه، ليس النازيون وحدهم أساؤا فهمه، بل هناك فلاسفة كثر، فعلوا ما فعل النازيون... الحقيقة، أنه لو فُهم نيتشه، فهماً صحيحاً، سيكون هذا الفهم مدخلاً، لإيجاد الرجل المتفوق، الرجل المتفوق الذي قد يساهم في بناء الإنسانية.

شخصياً أكن لنيتشيه أحتراماً لا يوصف، وأحزن جداً لإساءة فهمه، ليس ذلك وحسب، بل اتُهم بالجنون أيضاً، كما قال بعض الأطباء، فأدخل إلى مستشفى المجانين عنوة.

إنه مجنون، وإلا فهو إنسان عادي، لكنه متميز فكرياً... شخصياً لا أعتقد أبداً أنه كان مجنوناً، بل إنساناً عادياً، صادقاً، يقول الحقيقة كما هي، كان يتحدث بصدق وصراحة دون أن يكون راغباً في استفزاز السياسيين أو رجال الدين والأقزام الذين هم كثر، فيما هو وحده، ولن يقتنع أي من هؤلاء أنه ليس مجنوناً، وأكبر دليل على صحة قوله، هو كتابه الذي كتبه أثناء وجوده في مستشفى المجانين.

شخصياً أيضاً، أعلنها صراحة، لم يكن نيتشه مجنوناً في يوم من الأيام، ولكن ماذا بإمكاني أن أفعل في مواجهة أولئك المتعصبين الذين يسعون دائماً لتحسين سمعتهم وكسب الشهرة، ولو على حساب تشويه سمعة الاخرين. وآسفاه. كم من يدعي أنه مفكر كبير، وهو ليس كذلك.

يعتبر كتاب نيتشه الذي كتبه في مستشفى المجانين أهم كتبه على الإطلاق، وبرهاناً ساطعاً، على أن ما من مجنون يكتب هكذا كتاباً

ويأتي بهكذا أفكار، إنه كتاب «إرادة القوة» الذي لم يتمكن من إصداره، أثناء حياته، فما من ناشر مستعد أن ينشر كتاب رجل مجنون؟ طرق أبواباً كثيرة، إنما لم يفتح أي من أصحاب دور النشر بابه له... أما اليوم، فيعتبر أهم كتاب، ومن الكتب الأكثر مبيعاً.

بعد وفاته، أقدمت شقيقته على بيع المنزل لتنفيذ رغبته في إصدار الكتاب.

إذن، هل كان نيتشه مجنوناً، أم أننا نحن من يعيش وسط عالم مجنون.

تجرأ نيتشه وأعلن وفاة الله... لم يفعل هذا عبثاً، بل لاقتناعه الكلي، أن الله الذي يعبده البشر منذ آلاف السنين، وصنعوا له تماثيل وجعلوا له صوراً ورسومات، تزين المعابد والكنائس وجدران منازلهم، هو الذي مات، وليس الله الحقيقي.

إذن الله الذي أعلن نيتشه وفاته، هو الله الذي اخترعه البشر. أمضى سنوات محاولاً إقناع نفسه أن هذا الله لم يمت، لكنه عبثاً حاول، عانى نفسياً وفكرياً... حاول جاهداً الإقتناع بأنه مخطىء والآخرون على صواب، إنما عبثاً حاول... لهذا السبب، وليس لأي سبب آخر، أصيب بانهيار عصبي، أدى إلى إتهامه بالجنون، فأدخل مستشفى المجانين للمعالجة.

كان قوله «مات الله» بمثابة هزة أرضية، زلزال، قد صدم الجميع... لكن قوله هذا كان نصف ما يريد قوله لأنه أراد أن يعلن أو يبشر، بمجيء الإنسان الجديد الخارق القوة «السوبرمان».

مات الله، لأنه إذا استمر الله الذي اخترعه البشر يسير العالم على طريقته المعتمدة، فلن يتمكن الإنسان من التعرف إلى الحرية، لن يتمكن من النمو لبلوغ مرحلة النضوج. لأنه سيقى - أي الإنسان - معتمداً على الله الذي يسيره، الذي يتحكم بمصيره، سيقى دائماً معتمداً على ذاك التمثال أو تلك الصورة...

أعلن نيتشه موت الله، لأنه أراد من الإنسان، أن يتكل على نفسه، أن يكون هو هو، أن يقف على قدميه بثبات، كفى إتكالية، كفى غباءً... منذ زمن طويل ورجال الدين، يستغلون إيمان الناس. وباسم الله... فجاء نيتشه ليضع حداً لهذه المهزلة ويدعو إلى عالم جديد... إلى عالم الإنسان المتفوق، غير المتكل على غيره، الرافض أن يُستغل من أحد.

«مات الله القديم»، إذ لا بد من ذلك تمهيداً لمجيء الله الجديد، الله صاحب الرؤية المعاصرة، المقدر لأهمية البشر... فإذ بنيتشيه يقول «إن لكل زمن إلهه».

حين قال نيتشه إن الله مات، لم يكن يعني موت إله فعلاً، بل موت الأفكار القديمة البالية، فالله لا يموت أبداً ولكن، رجال الدين هم الذين أماتوه، هم الذين أبعدوا الكثيرين عنه.

أراد نيتشه إحداث ثورة تغير التاريخ، ولن يكون هذا إلا إذا تحمل الإنسان مسؤولياته ووعي ذاته القوية القادرة. إلا إذا تمكن من التمتع بحريته كاملة غير منقوصة... وما الذي يحول بينك وبين أن تكون هذا الإنسان؟ لم يعد هناك ما هو أعلى منك أو أقوى، الله الذي كدت تخافه وتخشاه، مات... إذن، أنت الآن حرّ، أنت سيد نفسك، وأصبح لحياتك معنى جديداً، معنى له جماليته، فأنت إلى جانب الله الجديد، الله الناضج، الرافض لكل ما هو عنيف وقديم. لكل ما يعيق حركة الإنسان ويمنعه من خوض المغامرة.

لو صادف لنيتشيه وقابل بوذا، لكان بوذا وافقه الرأي وعارضه في آن... كان وافق على موت الله الذي تعرفه جماهير الناس. ولكان قال له، ولكن هناك إلهاً آخر، إلهاً متنوراً ، إلهاً هو جوهر الوجود إلهاً يعطيك الحقيقة، والحال هذه، هل من يعتقد أن الحياة ستصبح

مأساوية؟... الأشجار ما تزال خضراء، الطيور تغرد، الشمس تشرق وتبعث الدفء في النفوس، والقمر يراقب العشاق، والحب يعطي الأمل... إذن فالله لن يموت، لأنه إله متجدد، إله يتفهم حاجة الإنسان ويعي أهمية التطور.

كان لدى نيتشه الكثير ليقوله، لكنه لم يشأ الغوص في التفاصيل والشروحات، لذا قال ما توصل إليه، من دون مقدمات، بكل بساطة قال «مات الله»، فصدم الكثيرين وأذهلهم، قال هذا، وهو يعني كل الوعي، أن الله خالد لا بداية له ولا نهاية. إنما الله الذي مات، هو ذلك، أوجدوه البشر، ليعبدوه ويسبحوه صبحاً وظهراً ومساءً، عبدوه، لكنه بدلاً من أن يمنحهم الثقة بالنفس والإتكال على الذات، استعبدهم، جعلهم مسيرين، غير مخيرين... وضع القيود حول معاصمهم، ووضع غشاوة أمام عيونهم، فما عادوا قادرين على رؤية الحقيقة.

قد يتساءل البعض، لماذا تكلم نيتشه هكذا، لماذا تكلم بصدق، وصراحة، ودون تعليل أو تبرير؟ لقد فعل ذلك لأنه كان يعرف أنه يتوجه للمفكرين والفلاسفة، وليس للأطفال والناس العاديين.

إنه أسلوب، برأيي على الأقل - مميز. لم يلجأ إليه أحد من قبل. فإن كان الذين توجه نيتشه إليهم، هم فعلاً أذكياء فهذا يعني أنه لا ضرورة لأية تفاصيل تمهيدية، ولكن نيتشه لم يكن يدرك، أن هؤلاء الفلاسفة الذين خاطبهم، كانوا يفتقرون الوعي الكامل، والنضج الكافي، لذلك طالبوه، بإعطاء الكثير من التفاصيل والإسهاب في بسط الشروحات وإعطاء الأمثلة، وتقديم البراهين.

مشكلة نيتشه، أنه آمن بالإنسان الخارق القوة «السوبرمان»، الإنسان صاحب الحق بالتعالي على الذين هم دونه قوة وقدرة... الحق للأقوى... ولكن، فنيتشيه بحاجة لروحانية الشرق، وتصوفه.

فالإنسان، ليس جسداً وحسب، إنما هو جسد وروح معاً.

كنت أتمنى لو عرف نيتشه الشرق على حقيقته، لو عرف معنى التأمل، فلكان أدرك أن الإنسان القوي يستمد قوته من تواضعه، وإني لعلى يقين، لو كان نيتشه عرف الشرق حقاً، لكان اليوم يشبه بوذا ولما عرف العذاب النفسي، ولما وصل إلى مرحلة دخول مستشفى المجانين.

علينا أن نتعلم الكثير من نيتشه، فكراً وفلسفة وسيرة. علينا تعلم، أن الإعتماد على العقل وحده سيؤدي إلى ضرب من ضروب الجنون... العقل وحده لا يكفي، العقل بحاجة للغذاء الروحي.

رسالتي إلى المعجبين بنيتشيه ومحبيه، هي أن يفهموه جيداً. إنه لم يدعُ إلى التعالي على الآخرين واحتقارهم. الإنسان القوي عنده هو القوي بين الأقوياء، وليس بين الضعفاء وإلا لفقد ركناً أساسياً من أركان قوته.

رسالتي لهم، أنهم بحاجة للتأمل، والتعرف إلى الفكر الصوفي، قبل الغوص في محاولة فهم فلسفة نيتشه واستيعاب أفكاره، وإلا سيبقون ميقيدن مكبلين، لا خيارات أمامهم إلا استعمال القوة واللجوء إليها. وهذا هو الجنون بذاته.

لاو تزو

إني أتحدث عن لاو تزو، وكأني أتحدث عن نفسي أنا، عن ذاتي. حين أتحدث عنه، أشعر وكأنني أقف أمام مرآة نقية صافية، مرآة تعكس صورة وجهي. حين أتحدث عنه أفعل وكأني معه. معه كلياً. ولكن هذا ليس صحيحاً. أنا هو وهو أنا.

إن كان المؤرخون، يشكون بوجوده، فأنا، لا يحق لي ذلك، لئلا أكون أشكك بوجودي، فكيف لي إذن أن أشارك المؤرخين شكوكهم؟ فمنذ أن أصبحت أنا حقيقة، صار هو كذلك. حتى ولو جاء يوم أثبت التاريخ فيه، أن لا وجود لإنسان اسمه لاو تزو، فهذا لن يغيّر شيئاً في قناعاتي، لا بد له أن يكون موجوداً، فأنا موجود، وأنا هو وهو أنا، فكيف أكون أنا موجود وهو ليس كذلك، إن وجودي هو البرهان الساطع على وجوده... إذن هو موجود.

لم يكن لاو تزو رجلاً علمياً. رغم هذا فهو جد منطقي له منطقه الخاص به، منطق الغموض والتناقضات... الحقيقة إنه منطق رجل مجنون، يستحيل فهمه إلا من قبل قلة تتمتع بشفافية ذهنية وصفاء عقلي. إنه بارع في كل شيء... منطقه لا يشبه منطق الآخرين، إنه منطق التناقض.

كل ما هو ظاهر هو سخيف، ولكن كلما تعمقت في دراسته كلما أمعنت في محاولة فهمه، كلما وجدت أشياء ثمينة، كلما وجدت أفكاراً

تشدك إليه... على المرء أن يحاول الكثير من أجل فهم لاو تزو، إنه متقلب المزاج، تراه حيناً متجهاً نحو الشرق، ثم تراه حيناً آخر متجهاً نحو الغرب. لا فرق عنده بين غرب وشرق. فهو القائل، الغرب هو الشرق، والشرق هو الغرب، إنهما واحد، فعلاً إنه القول بوحدة المتناقضات.

إنها الحياة، ولاو تزو هو الناطق باسمها... إنه يتقبل الحياة كما هي، دون زيادة أو نقصان، حتى أنه لا يحاول إضافة شيء إليها أو حذف شيء منها، إنه يتقبلها كما هي.

سهل جداً اكتشاف روحانية بوذا، بينما صعب جداً أن تكتشف روحانية لاو تزو. إنه إنسان عادي جداً مثلك أنت تماماً، فكيف إذن ستتمكن من فهمه؟ أو بالأحرى لماذا تحاول فهمهة والغوص في داخليته، طالما هو إنسان عادي؟ لو صادف ومر بوذا من أمامك. فلا شك ستعرفه مباشرة. ستعرفه لأنه إنسان مميز له عطره الخاص ومشيته الخاصة، ويستحيل على أي إنسان ألا يتعرف على بوذا. لكن الأمر مختلف مع لاو تزو... إنه إنسان عادي، عادي فوق ما يمكن أن يتصور العقل... قد يكون جارك، أو قد يكون الذي يشاركك المقعد في حافلة النقل العام أو القطار... وهذا هو سر جماله...سر بهائه.

بكل بساطة، يمكنك أن تكون إنسان غير عادي... كل ما هو مطلوب فعلاً: بعض الجهد، بعض الصفاء، بعض الثقافة، بعص الإرتقاء بذاتك إلى ما هو أسمى وأعلى، ولكن، لا شيء مطلوباً كي تكون إنساناً عادياً. كل ما هو مطلوب منك، هو أن تكون أنت، لا أحد غيرك.

بالتأمل، قد تصبح مثل بوذا، وتتفهم روحانيته، ولكن لا وسيلة تساعدك لتصبح مثل لاو تزو... الوصول إليه يمر عبر طريق ممر واحد لا غير... إن أردت فهم لاو تزو، فما عليك، إلا أن تفهم الحياة أولاً، أن

تتقبلها كما هي، أن تكون شجاعاً مقداماً، فلا تتهرب من مواجهتها أو الإختباء في زاوية ما... عليك المواجهة. أياً كان الموقف الذي أنت فيه...

من الصعب جداً، أن تكون لاو تزو، أو أن تتعرف إليه لأنه، متى تعرفت إليه، تكون أصبحت لاو تزو... إنه عكس غيره من المتنورين والحكماء، قد يكون سهلاً، أن تتفهم أفكار بوذا أو أن تتعرف إليه، وتبقى أنت أنت، ولكن، يستحيل عليك فهم لاو تزو، أو التعرف إليه، دون أن تكون أنت نفسك لاو تزو بذاته، دون أن يكون هو أنت، وأنت هو.

كان كونفوشيوس، ما يزال في مقتبل العمر، لكنه كان أشهر حكماء عصره في الصين وجوارها، كان يستدعى إلى بلاطات الملوك ودواوين الأمراء، للإستنارة بآرائه والإستفادة من رجاحة عقله، كذلك، كان يقصده الحكماء الطاعنون في السن، طلباً للنصيحة وللرأي الصائب... بكلمة واحدة، كان مقصد من أراد حكمة، أو أراد نصيحة. ورغم هذا شعر بنقص في حياته، أدرك أن حكمته، قد يستفيد منها الآخرون. ولكن ما يزال يشعر أن هناك أشياء كثيرة تنقصه، إنه بحاجة للإستراحة الوجدانية، إلى النعمة، إلى البركة الإلهية، شعر أنه يساعد الآخرين، ولكنه عاجز عن مد يد العون لنفسه. فاتخذ قراراً، بينه وبين نفسه، أن يبحث عن إنسان يلبي حاجاته هذه.

مبدئياً - وإنه لأمر منطقي طبيعي - ألا يتخذ رجل حكيم، القرار الذي اتخذه كونفوشيوس، وهل يعقل، أن يطلب نصيحة أحد، فيما الآخرون يقصدونه طلباً للنصح؟ حتى كبار الحكماء كانوا يقصدونه طالبين منه مساعدتهم في حل أصعب المشاكل وأعقدها. ولكن، لا بد من أن يكون أحدٌ ما، في مكان ما. بمقدوره مساعدته - أي كونفوشيوس.

تنفيذاً لقراره، طلب من تلامذته البحث - سراً - عن مثل هذا الرجل النادر على إعطائه الحكمة، ومنحه الإستراحة الوجدانية - وجاءه الجواب: هناك رجل عجوز - نادرون هم الذين يعرفونه - معروف «بالفتى المسن» وهذا ما يعنيه لاو تزو... الحقيقة لا أحد يعرف اسمه الحقيقي... فقط يعرفونه بلاو تزو أو «الفتى المسن». حتى أن لا أحد يعرف من هي والدته، أو من هو والده، ولا حتى أين ولد... إنه الآن في التسعين من العمر، وقلة هم الذين يقصدونه، لكنه رجل متنور جداً.

إبتسم كونفوشيوس وقال: هذا هو من أبحث عنه، خذوني إليه.

ما إن وقف كونفوشيوس في حضرة لاو تزو، حتى أحس بقشعريرة تسري في جسده، وجد نفسه أمام رجل مجهول، لكنه يمتلك من الثقافة ما لا يمتكله غيره، وجده إنساناً متفهماً، منطقياً، مع أن له منطقه الخاص... إنه بالفعل رجل عظيم... أحس كونفوشيوس، أنه يقف أمام رجل غريب جداً وواضح جداً. غامض، يمتلك حلاً لألغاز العالم ويشع من عينيه سحر براق جذاب... أحس أن الذي أمامه، يبدو إنساناً عادياً، بينما في الواقع، هو إنسان غير عادي هو إنسان ليس كالبشر، إنه إنسان، يختزن في ذاته كنزاً لا يقدّر، كنزاً يندر وجوده في مكان ما، غير عند لاو تزو.

سأله كونفوشيوس «ماذا تقول عن الأخلاق؟ وكيف بمقدور الإنسان تنمية قدراته وخصائصه؟»).

ضحك لاو تزو بصوت عال « ما من أحد يسأل عن الأخلاق، إلا إذا كان لا أخلاقياً، وما من أحد يتساءل عن خصائص الإنسان، إلا إذا كان، يفتقدها... فالرجل المتمتع بشخصية قوية لا يعرف ذلك، لكنه يتعرف إنطلاقاً من شخصيته، كذلك الرجل الخلوق، لا يهتم لما تعنيه كلمة «أخلاق». إذن لا تكن أحمق، ولا تسأل عن الأخلاق، ولا عن

كيفية تهذيب نفسك... كل ما عليك، هو أن تكون أنت أنت، أن تكون رجلاً عادياً.

أحس كونفوشيوس، أنه أمام رجل متمتع بطاقة عظيمة، وقدرات غير محدودة، لدرجة أن ارتجفت رجلاه، وبدأ العرق يتصبب من جبينه، جاء، معتقداً، أن سؤاليه يتطلبان جهداً للإجابة عليهما، وأن الشرح سيطول، فإذ به، يجد نفسه أمام نفسه، وإذ بالرجل العجوز لا يطيل الكلام، ويعطيه ما يريد.

شعر كونفوشيوس بالجنون، فاستدار وخرج هارباً، تماماً كما يهرب المرء من أمر مخيف... خرج هارباً ليواجه تلامذته الذين كانوا ينتظرون في الخارج، والذين صدموا لرؤية معلمهم وحكيم الصين بلا منازع، يبدو مذعوراً، فسألوه عن السبب... فأجابهم، بما يستحيل عليهم تصديقه أو الإقتناع به... لقد عرفوه، رجلاً قوياً، لا يهاب الأمراء ولا الملوك، بل يخيفهم، فما الذي جرى، إنه خائف؟ لم يسبق لهم أن رأوه متوتراً هكذا، مرتجفاً، يتصبب عرقاً... عادوا وسألوه:

ـ ما بك؟ ما الذي فعله هذا «الفتى العجوز؟»... ماذا قال؟

أخذ كونفوشيوس نفساً عميقاً.

ـ دعوني... دعوني أستعيد قوتي... ثم، ثانية تنفس عميقاً وأكمل. إنه رجل يمتلك قدرات مخيفة وطاقات لا حدود لها... إنه إنسان خطير جداً. سمعت، عن حيوانات ضخمة، سمعت عن الفيلة وما هو أضخم منها، سمعت عن حيوانات مائية، كبيرها يأكل صغيرها، سمعت عن طيور تطير مسافات طويلة، وهي تهاجر من مكان إلى آخر، وعرفت رجالاً فقهاء وآخرين حمقى، لكنني، ما عرفت، ولا سمعت، ولا التقيت إنساناً مثله. إنه ليس إنساناً. بل هو الخوف بعينه... لا أحد يعرف عنه شيئاً، ولا عن طريقة حياته أو نمط عيشه... إنه دائم الإبتسام،

لا يعرف العبوس. لكنه جهنمك... إنه الموت المحتم، فلا تقتربوا منه... صدقوني حتى ابتسامته مخيفة... إنه مخيف فعلاً.

«إنه مخيف» هذا هو التعريف الحقيقي لمن هم من أمثاله. «ما إن يقترب أحد منه، حتى ينتابه الخوف، حتى ترتجف ساقاه، حتى يشعر بشيء غريب يسري في جسده، وكانت لحظة موته قد دنت... دعونا نبتعد عن هنا... لن أزوره ثانية....» وهذا ما حصل...

كان لاو تزو يجمع المتناقضات في شخصه. كان عادياً جداً واستثنائياً جداً في آن. لم يكن واضحاً كبوذا، و لم يصنع المعجزات مثل كريشنا. في الوقت ذاته كان كنزا دفيناً، كان دائم الإبتسام، و لم يكن حزيناً في قسماته مثل المسيح، ولكن، نلحظ حزناً قوياً في داخله، حتى رنين ضحكاته كانت تحمل أنين ألم ووجع... غريب أمره. كل شيء فيه متناسق ومتناغم وكأني به قطعة موسيقية متناغمة الألحان.

أقول هذا، مع العلم أني هو، وهو أنا، وهو يحادثكم من خلالي، نحن جسدان متباعدان، لكل منا اسمه، لكننا روح واحدة. تسعون عاماً، أمضاها، وأتباعه يسألونه أن يدون أفكاره. أن يترك أثراً للآخرين يهتدون به، ولكنه. كان يقول «إن الذي يُكتب قد يحرّف، وقد تصبح الحقيقة لا حقيقة» لذا فلن أكتب شيئاً، الحياة نمط سلوكي ومسار فعلي.

إن مبادئ الفضيلة هي التي تكتسب تلقائياً، لا تفرض والحقيقة التي تقال تفقد الكثير من حقيقتها. فالحقيقة هي الحقيقة التي تُلمس وليست التي تُقال. كذلك هو الطاو، أو المبدأ الذي ينبثق منه الوجود في الديانة الكونفوشوسية. وهل علينا دائماً ترداد هذا المبدأ؟

هكذا كانت حياة لاوتزو، نمطاً حياتياً وسلوكياً. كان يعلّم تلاميذه، دون إلقاء المحاضرات، ودون تدوين مفاهيمه، كان يتخذ الصمت وسيلة

للتواصل معهم، وجعل من الصمت باباً للدخول إليه، إلى أعماقه، لذا أمضى حياته التي ناهزت التسعين عاماً، رافضاً الكتابة: الحقيقة لا تفسّر بالكلمات ولا تُلقّن، إنها ضد ذلك.

لسنين طويلة، كان جاره يشاركه رياضة المشي كل صباح، دون أن يتفوه ولو بكلمة واحدة... كان هذا الجار يعرف أن لاو يحب الصمت، لذا لم يتجرأ يوماً على القول: «إن الطقس جميل» لئلا يعتبر هذا نوعاً من الثرثرة والكلام الغير مفيد، إنما وفي يوم من الأيام جاء زائر جديد، ورغب بممارسة رياضة المشي مع لاو تزو وجاره، فأصابه العجب. لماذا هذا الصمت؟ حتى أنه بدأ يشعر بالتعب... إنه معتاد على التحدث إلى مرافقيه، بينما الآن، كل شيء يختلف... فما من أحد يوجه له، ولو كلمة صغيرة، ولكن لماذا؟ لم يجد تفسيراً مقنعاً لهذا الصمت... فأصبحت مرافقته لهما عبئاً ثقيلاً، أمراً مملاً. كان يرى بالتكلم تحريراً للنفس من الأعباء... بينما يرى لاوتزو، أن التواصل لا يتم عبر الكلمات، إنما عبر الصمت، عبر الإتصال الروحي... فكما نستطيع أن نتفاهم من خلال الكلمات، كذلك يمكننا التفاهم من خلال الصمت.

أحس هذا الزائر، أن عليه المبادرة في الكلام، فقال:

ـ أنظرا ما أجمل هذا الصباح... الريح تهب بهدوء، الشمس مشرقة، إسمعا زقزقة العصافير وحفيف أوراق الشجر... أنظرا إلى الماء تنساب في الجداول والسواقي... إنه لمنظر رائع. قال هذا متوقعاً جواباً، أو تعليقاً، لكن أحداً من مرافقيه لم يجب. بعد العودة إلى المنزل، تقدم لاو تزو من جاره وقال:

ـ صديقك رجل ثرثار... فلا ضرورة لأن يكون معنا غداً... إنه يتفوه بالتوافه، وبما لا يغني ولا يفيد. أنا أيضاً أرى الشمس، وأسمع

زقزقة العصافير وحفيف أوراق الشجر، فما الداعي لتذكيري بذلك؟ إنه يحب الثرثرة.

هكذا عاش لاو تزو... صامتاً ساكتاً، متفادياً التكلم عن شيء، وعن الحقيقة خصوصاً... كان يريد أن يجعل من نمط حياته مفهوماً للحياة، إذن فلا حاجة للقول أو الكتابة....

حين شعر لاو تزو أن الموت يدنو منه خاطب تلاميذه قائلاً:

ـ ها أنا جاوزت التسعين... واليوم أرغب بالإنتقال للعيش وحيداً في جبال الهمالايا... فساعتي صارت قريبة، وعليّ أن أستعد لها... جميل أن يعيش الإنسان مع الناس وبينهم، جميل أن يتواصل معهم، ولكن حين تقترب الساعة، ساعة الرحيل عن هذا العالم، عليه أن يعد نفسه لاستقبالها، عليه العودة إلى نقاء الروح، عليه البقاء وحيداً بعيداً عن التلوث الروحي والمادي.

أصاب الحزن تلاميذه... أحسوا أنهم ما يزالون بحاجة إليه، ولكن، لا مفر من القدر. إنهم غير قادرين على ثنيه عما هو عازم عليه... رغبوا اللحاق به، لكنه أقنعهم بالعودة إلى حيث كانوا، وتركه يرحل وحيداً. عند نقطة الحدود، أوقفه شرطي كان تلميذاً له، ومنعه من إكمال طريقه، ليس هذا وحسب، بل وأودعه السجن أيضاً، مقسماً ألا يدعه يكمل طريقه، إلا بعد أن يؤلف كتاباً، لأن البشرية بحاجة إليه، بحاجة لمفاهيمه وهذا ما حصل، أمضى ثلاثة أيام يكتب ويكتب حتى ولد كتاب «تاو تي شينغ» (Tao Te Ching). لم يكتبه حباً بالكتابة، بل رغبة في الخروج من سجنه، وإكمال طريقه إلى حيث يعتقد بوجود النقاء الروحي... ولكن ماذا كتب؟

كتب يقول: «إن المبدأ الذي تنبثق منه الحياة «الطاو» لا يمكن أن نتكلم عنه وإلا نُفقده الكثير من روعته وأهميته... إن كل ما يقال، ليس

هو الحقيقة، فالحقيقة هي الحقيقة، هي التي تخبرك عن ذاتها وتحدثك عن ذاتها، ولا أحد آخر يفعل هذا... الكلمات تؤلف الجمل، والجمل تشكل السطور، وهكذا يصبح المرء مجبراً أن يقرأ ويقرأ، وإضاعة الوقت... التواصل الحقيقي، هو ذاك الذي يحدث عبر الصمت، ومن وجود إلى وجود، وبإشراف معلم واعٍ مدرك أهمية الحقيقة، واعٍ لما يعنيه التواصل.

الكلمات لا تُعبر عن الحقيقة... وهي ليست قادرة على فعل هذا... الحقيقة هي تلك التي لا تُقال، بل تدرك بالصمت. فكيف إذن نعبر عنها بالأصوات، طالما الصمت هو المعبر عنها؟ الحقيقة ليست فكرة تُقال وتناقش، إنها تجربة والتجربة لا تعلم ولا يعبر عنها بالكلام، وحده الصمت قادر على إعطائك حقيقة الحقيقة... إن لاو تزو، يحثك هنا، للبحث عن الحقيقة إنه يحاول أن يجعلك تشعر بالعطش، حتى إذا ما شربت الماء، ترتوي وتنتعش، وهكذا هو الوصول إلى الحقيقة... يستحيل الوصول إليها إلا إذا كانت هي الهدف... حين يحدثك لاو تزو عن الحقيقة، فإنه يستفزك، إنه يحاول تفجير إحساسك المكبوت، ورغبتك بالوصول إلى الحقيقة: إنه يفعل ذلك دون أن يعرّف الحقيقة... عليك أنت أن تتعرف إليها... ماذا بإمكانك أن تقول لرجل أعمى عن الضوء أو النور؟ يمكنك أن تحشو رأسه بكل النظريات العلمية، وبكل شيء يستطيع النور أن يفعله، فيصبح عالماً كبيراً في علم الضوئيات، وفي الوقت ذاته، هو عاجز عن التواصل مع النور... سيكون بمقدوره أن يحدثك عن النور من الناحية العلمية، ومن الناحية الشعرية أيضاً، لكنه، لن يكون قادراً على استيعاب واقعية النور، لن يستطيع أن يحدثك عن تجربته مع النور... إنه لا يُبصر ولا يرى، إذن لا تواصل بينه وبين النور، إلا من خلال الكلمات، وليس من خلال الصمت... إنه يعرف كل شيء - تقريباً - عن النور، ولا يعرف النور بحد ذاته... إنها المأساة بحد ذاتها.

يمكنني أن أكلمك عن الله، أن أقول لك أشياء وأشياء. ولكن ليس بمقدوري أن أجعلك تتواصل مع الله، التواصل فعل تبادلي بينك وبينه، بينما الحديث هو عنه فقط، كذلك يمكنني أن أحدثك عن الحب، ولكن عبثاً أقول إني أحبك. وعبثاً تقتنع بصدق ما أقول. إن لم تكن مقتنعاً، بحدسك الذاتي وإحساسك الداخلي، أني أحبك... الحب إحساس وليس كلمات... إنه أمر نسبي، والنسبية تعتمد هنا، على مدى ثقافة الطرف الآخر، وقدرته على الفهم ورغبته في الإصغاء إليك، كذلك تعتمد على كيفية الحديث عن الموضوع، وهكذا يبقى الأمر نسبياً، ولا يتحول إلى تجربة ملموسة. فالحقيقة هي اختبار حياتي، هي خبرة تفاعلية، وهذا ما يستحيل انتقاله من شخص لآخر... فإن كنت لم تعش الحب، ولم تختبره، فكيف ستفهم ما يقوله الآخرون الذين عاشوه وخبروه... لن تفعل هذا، إلا بعدما تختبر الحب إلا بعد أن تحب وتتعرف إلى أحاسيس الحب ومشاعره... حينها تتعرف إلى ما تعنيه كلمة حب؛ ليس بالمعنى الحرفي كما هو مشروح في القواميس والمعاجم والكتب، بل بالمعنى الحقيقي، المعنى المنبثق من ذاتك... المعنى المعبر عنه بالإحساس وليس بالكلمات.

ليس بمقدورنا القول، إن لاو تزو، كان رجلاً متديناً، بل كان شاعراً، موسيقياً، رومانسياً، أو فناناً، أكثر من رجل دين أو فيلسوف، كان إنساناً عادياً جداً، لدرجة أنك لا تستطيع القول، إنه رجل دين، لكن الحقيقة، أن رجل الدين الحقيقي هو إنسان عادي، إنسان غير معقّد، هو إنسان واضح وشفاف، لا غموض يلف حياته. رجل الدين هو من لا أهداف له سوى الإنسان، سوى روح الإنسان، وإلا، إن كانت له أهداف أخرى، فلا شك ستحوله هذه الأهداف إلى مسارات فكرية أخرى تبعده عن غايته الأساسية التي هي الإنسان وهكذا يصبح كالشجرة التي فصلت عن جذعها وجذورها، بإمكانها أن تبقى

خضراء لوقت ليس بطويل، بفضل ما تختزنه من غذاء. لكن هذا الغذاء سينتهي وهكذا تذبل وتموت، هكذا تصبح حطباً للمواقد. إنها بحاجة لأن تتواصل مع جذورها الممتدة في الأرض، مع جذورها التي تمدها بالغذاء، وهكذا هو الإنسان، بحاجة لغذاء الروح، ليبقى مزهراً بذاته، ليكون غير خائف من غده الذي قد يجلب له الموت... ولا شيء يقضي على الإنسان كالخوف أنك غير متواصل مع جذورك، يعني أنك تعيش الماضي فقط، ولا تفكر بالغد والمستقبل، العقل دائم التفكير بالماضي أو بالمستقبل، فلماذا نشغل بالنا بالماضي؟ فالماضي مضى وانتهى، ولا يمكن استعادته، بل يمكن أن نتعلم منه... وإلا سيدمر حياتنا المستقبلية. ما من أحد قادر على التحكم بمجرى حياته أو السيطرة عليها، إذن، لماذا نتعب أنفسنا بالمحاولات التي لا جدوى منها... لندع الحياة تمتلكنا وتسيطر علينا، وتقودنا إلى حيث تشاء... إنه لأمر صعب فعلاً أن نتصرف هكذا، لأن (الأنا) ترفض ذلك، لأنها تريد أن تحقق ذاتها وتثبت وجودها.

على الإنسان أن يكون دائم الإستعداد للصراع من أجل المستقبل، وإلا لن يكون جديراً به... المستقبل يعني الأمل، يعني التزهر والحيوية، هكذا يقولون، لكن هناك طريقة أخرى لاستقبال ما سيأتي من الأيام. إمضِ مع النهر، إمضِ معه وكأنك جزء منه، لا بل وكأنك هو، وهو أنت، لا انفصال بينكما... لا هو يحاول القضاء عليك، ولا أنت تحاول مقاومته، هكذا تتحول إلى قطرات مائه، هكذا تحقق وجودك.

أنظروا حواليكم، هناك بشر كثيرون، منهم الفاشلون في الحياة، ومنهم الناجحون، ولكن من هم هؤلاء الأخيرون؟ إنهم ليسوا أقنعة، تغطي وجوهاً صفراء، قد يكونون نواباً في المجالس النيابية، وزراء وما شابه، لكنهم تافهون، فارغون، إنهم منفصلون عن ذاتهم، عن

وجودهم، عن حقيقتهم. في صدورهم قلوب تعمل كما المضخات الآلية، لا تخفق، ولا تنبض، على العكس، إنها تعمل وفق برنامج موضوع سلفاً لها. إنها فاقدة الإحساس الإنساني، وإن نطق أصحاب هذه القلوب. فإنهم ينطقون بكلمات ميتة. لا شاعرية فيها. حتى عيونهم باهتة، إن التقت عيناك، بعيونهم، لا تشعر أن هناك طاقة تتبادلها العيون، لن تشعر بالدفء يغمر جسدك، وكذلك لن تشعر بالحب. إنهم يعيشون في جحيم داخلي.

يشدد لاو تزو، على أن الحياة، هي مجرد فترات إحساس ومشاعر، وإن أردت الحياة، عليك أن تكون متواضعاً لا متعالياً، بالتواضع تتواصل مع الآخرين، وبالتعالي، تبني حواجز وسدوداً، تمنعك من الإلتقاء بالآخرين... التواضع يضفي على الحياة لمسة حنان، ومسحة جمال... التواضع يمنحك القوة، قوة التجدد والإنبعاث، التواضع يعني الليونة. هذه هي حال الزنابق الصغيرة التي تنحني أمام هبوب الريح، ولا تنكسر. وما إن تهدأ الريح، حتى تعود هذه الزنابق وتشمخ... يقول لاو تزو: «الحياة تحب البسطاء الضعفاء»، حتى المسيح يقول: «من اتضع ارتفع، ومن ارتفع اتضع». القوة تعني مقاومة الحياة والسباحة عكس التيار. وهذا يتطلب جهداً إضافياً، قد لا يؤدي إلى ما نريد ونصبو... بينما التواضع، يعني حب الحياة. حب الجمال. الملاطفة، حب الآخرين، يعني التسامح والمغفرة، وهذا ما يقود إلى العيش بسلام، إلى الشعور بالطمأنينة الداخلية. وساعتئذ، لن يكون المرء مضطراً للتحدث عن السلام، عن العلاقات الودية مع الآخرين، في حين، يكون يعمل بجد وبحماس من أجل الحروب وجولات العنف... أوليس هذا هو الغباء بعينه؟ الهند تخاف من ازدياد قوة الصين العسكرية، وتعمل من أجل مساواتها في هذه القوة، وفي الوقت ذاته، تنادي بإقامة علاقات سلمية معها. إنه الكذب والتكاذب، إنه حب الإستيلاء على

مقدرات تسمح بالسيطرة على الآخرين، أو لمواجهتهم على الأقل، هذه هي حال البشرية، بحث عن تحقيق ما يسمح بالسيطرة، بحث عن القوة، ومظاهر رفاهية وتعالٍ... نرى الناس يقودون أفخم السيارات، غير مبالين بجوع الآخرين وآلامهم، غير مهتمين بما يعاني كثيرون من عذاب جسدي وألم نفسي... وهذا ما يرفضه لاو تزو... رفضاً مطلقاً، إنه يدعو للتواضع.

قيل، أن امبراطور الصين، جمع مستشاريه ووزراءه وطلب منهم مساعدته في اختيار أفضل رجل لتسليمه رئاسة المحكمة العليا، رجل قادر على تحقيق عدالة لا تشوبها شائبة. أجمع الكل أن ليس هناك أفضل من لاو تزو...

استدعى الإمبراطور لاو تزو، وحدد له موعداً لمقابلته. قبيل الموعد، كان الإمبراطور والمستشارون والوزراء يتوقعون حضوره على حصان أبيض أصيل، أو على ظهر فيل. كما يفعل كبار الأغنياء أو المشهورون، لكنهم فوجئوا، أن لاو تزو قادم وهو يمتطي جاموساً... نعم، فالخيول تضرب الأرض بحوافرها، فتصدر أصواتاً، تعكر صفو سكينته. على عكس الجاموس، إنه حيوان متواضع، يسير بصمت ولا يحدث ضجيجاً. تعجب الإمبراطور... أهذا هو لاو تزو؟ «نعم إنه هو» قال أحد مستشاريه «إنه يحب الصمت ويكره الثرثرة، إنه إنسان متواضع جداً».

قال الإمبراطور للاو تزو:

ـ أريدك رئيساً للمحكمة العليا في البلاد.

ـ ولماذا تريدني أنا دون غيري؟

ـ لأني أريد تحقيق العدالة.

ـ إذن، أنت لم تختر الرجل المناسب، وإن اعتقدت هذا، فاعتقادك

لن يدوم أكثر من أربع وعشرين ساعة، تطردني بعدها، وتعود للبحث من جديد عن شخص آخر.

تنهد الإمبراطور وقال:

ـ حسناً دعنا نرى.

أول حالة، كان على لاو تزو معالجتها هي محاكمة رجل عادي بتهمة سرقة مال رجل غني، فاحش الثراء، لدرجة أن الأمبراطور كان يستدين منه.

استمع لاو تزو للسارق والمسروق معاً، وبانتباه كلي. وبعد ذلك أصدر حكمه، أن يسجن الإثنان لمدة ستة أشهر... نعم أدان الإثنين، السارق والمسروق. مما أثار غضب الرجل الثري، فصاح:

ـ ولماذا تحكمني، طالما أني لم أرتكب جرماً، لست أنا من سرق بل هو...؟

ضحك لاو تزو وهو يقول، إنه لص تافه، لص من الدرجة الثالثة أو الرابعة، أما أنت فلص من الدرجة الأولى، وكان أجدر بي أن أودعك السجن سنة كاملة وليس ستة أشهر وحسب... أنت أيضاً سارق، الآخرون يتعبون ويشقون، وأنت تسرق عرق جبينهم وتكدس الأموال، في حين أن الآخرين محرومون منها بسببك، بسبب قدرتك على التسلط عليهم... ويجب معاقبتك أما الآخر، فهو ليس لصاً بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل هو أراد استرجاع شيء مما له عندك، إنه حقه الطبيعي أن يحيا بكرامة، ألا يعرف معنى الجوع، وأنت تعاني من التخمة... إنك لست لصاً وحسب، بل أنت مصاص دماء.

ـ ولكن هل لي بطلب؟ قال الثري.

ـ نعم لك ذلك... قال لاو تزو.

ـ أريد مقابلة الإمبراطور قبل ذهابي إلى السجن.

ـ لك ما تريد.

ذهب الثري إلى الإمبراطور، وبادره القول «من هذا الأحمق الغبي الذي عينته رئيساً للمحكمة العليا؟... إنه قد يشكل خطراً عليك أنت... لقد حكمني بالسجن لستة أشهر...»

ـ ولكن لماذا؟ فأنت لم تقترف ذنباً. قال الإمبراطور.

ـ هذا باعتقادك، قال الثري... أما باعتقاده، فأنا لص متهم بسرقة أموال الفقراء المساكين... لذا فإني أحذرك، وأخشى أن أراك إلى جانبي في الزنزانة...

ـ ولكن لماذا؟

ـ لأنك أنت أيضاً ارتكبت العديد من الجرائم غير الموصوفة، لقد اغتصبت الكثيرات من النساء، وأجبرت أخريات على إرضاء نزواتك، لقد استغليت موقعك كإمبراطور لتحقيق مآرب شخصية... ومن يدري ماذا سيقول لك... فما عليك إلا طرده، اليوم وليس غداً.

ابتسم الإمبراطور، وتذكر ما قاله لاو،

ـ لكن فترة عملي لن تدوم أكثر من يوم، فغداً ستطردني.

وهكذا استعاد لاو تزو حريته... هكذا عاد إلى طبيعته الحقيقية.

حتى اليوم، ما يزال منطق لاو غريباً مستهجناً. قال لتلامذته: «كونوا كالشجرة التي رفضها النجارون، لأنها لا تنفعهم بشيء... هكذا لن تكونوا عرضة للإستغلال». إنه يدعو الناس للبقاء مجهولين مغمورين، وهكذا يتمتعون بالسعادة، وإلا لن يدعهم الآخرون يعيشون بسلام...

كونوا أنفسكم، ولا تحاولوا أن تصنعوا أقنعة لوجوهكم.

كريشنا مورتي

تعتبر علاقتي بكريشنا مورتي لغزاً محيراً، كنا نرتبط بعلاقة حب وود، ورغم هذا، ما التقينا يوماً، حتى ولو بالصدفة... فعلاً إنه لأمر غريب... كان بيننا لقاءٍ روحي، لقاء ليس بحاجة للكلمات، ولا للعناق الجسدي، أو التصافح بالأيدي، كنا أقرب شخصين وأبعدهما في آن...

ذات مرة، قصد كريشنا مورتي، بومباي، حيث له أتباع كثر ومريدون، وصادف أني كنت في نيودلهي لبعض الوقت، قبل متابعة رحلتي في بلاد الهند. في نيودلهي، التقيت صديقاً مشتركاً بيننا، بادرني بالقول: «إنها لفرصة ذهبية، أن تلتقيا معاً، أنت وكريشنا مورتي فلا شك أنك راغب بهذا، كما أنا راغب فعلاً».

كنت أدري أن محدثي واحد من أقرب المقربين إليه، وأدري أيضاً، أنه لن يقول، ما قاله، إلا بناءً لحديث بينه وبين كريشنا مورتي، غير أني رغبت في التأكد من حدسي، فنظرت إليه.

ـ أرجوك كن صادقاً معي... لا بد أنك قلت له أني راغب في مقابلته... أليس كذلك؟

نظر إلي، نظرة تعبر عن حيرة تنتابه، وبدا الإستغراب على قسمات وجهه «هل لي أن أعرف، كيف عرفت؟ بالفعل حدث ذلك... كنا نخطط للقاء بينكما، وندرك، أنه لن يرفض لقاءك ولا أنت ترفض

لقاءه، إنما أنتما بحاجة لوسيط، يمهد لهذا اللقاء، فكنا نحن».

ابتسمت، والغبطة تغمرني، لا أنكر أن لقاء رجلاً مثل كريشنا مورتي، أمر عظيم وذكرى لن تنتسى. نظرت إلى محدثي وقلت «سأخبرك قصة قديمة عن اثنين متنورين، متصوفين إنهما كبير وفريد. كان الأول يعيش في فاراناسي ,Varanasi وكان فريد في رحلة له، وعليه المرور حيث يقيم كبير...

جاء تلاميذ كبير قائلين «من غير اللائق أن يمر فريد من هنا دون دعوته لقضاء بعض الوقت بيننا... نحن نعلم أنه متصوف مسلم، لكنه متنور معروف، وله أتباعه ومريدوه».

في الوقت ذاته، خاطب تلاميذ فريد معلمهم قائلين: «من غير اللائق، لا بل من المعيب أن نكون هنا، ولا تزور كبير وتلاميذه... هكذا نتعارف ويستفيد كل من الآخر ويغنيه».

كان تلاميذ كبير، كما تلاميذ فريد، يتطلعون إلى معرفة كيف سيكون هذا اللقاء، وأية أحاديث ستدور بين هذين العملاقين. ولكن... ما إن التقى العملاقان، حتى صُدِم التلاميذ، لا كبير تكلم ولا فريد، كان لقاءً صامتاً، لقاءً روحياً أكثر منه لقاءً جسدياً... خاب أمل التلاميذ، وأصابهم الغضب.

عجباً، قال تلاميذ كبير لمعلمهم «أمضينا يومين، ونحن نترقب عما ستتحدثان وبماذا ستتناقشان، لكن أياً منكما لم ينطق بكلمة... حتى أنت، أنت من تتهافت الناس لسماعه وهو يتحدث. لزمت الصمت.. جعلتنا وكأننا أغبياء... لم نفهم لماذا كنتما تحدقان ببعضكما، ولا لماذا تلك الإبتسامات الساحرة والنظرات المشرقة».

كما تلاميذ كبير، كذلك تلاميذ فريد، أحسوا بذات الإحساس وتساءلوا ذات التساؤلات. والغريب، أن الجواب، كان واحداً، كان

هو ذاته، كبير أجاب تلاميذه كما فريد، «كنا نعلم - حتى قبل أن نلتقي - أن ليس هناك ما سنتكلم عنه أو نتناقش به. تجاربنا هي ذاتها، وتذوقنا طعم الحقيقة وعرفنا معناها، فما الذي سنقوله إذن؟ كنا فعلاً سعيدين في هذا اللقاء، لذلك كنا نبتسم حيناً وتدمع عيوننا حيناً آخر، كثيراً ما يكون البكاء تعبيراً عن الفرح، مثله، مثل الفرح لا بد أشد تعبيراً... إنما الحقيقة، لا بد من طلب المزيد منكم لقد نسينا أنكم موجودون، لكن مشكلتكم هي أنكم لا تفهمون لغة الروح، بل لغة الجسد، لغة الكلمات، والحقيقة لا تُقال، بل تدرك بالحواس والحدس... إنكم محقون فيما أحسستم، لقد شعرتم أنكم أصبتم بخيبة أمل، ولكن، لو فكرتم قليلاً، لكنتم قدرتم موقفنا وتفهمتوه... لم يكن الأمر بيدنا، بل كنا مجبرين على التزام الصمت، حتى لا نشوه ذاك اللقاء ولا ندنس طهارته».

تعجب تلميذ كريشنا مورتي لما رويته له، وتساءل:

ـ وماذا تعني وإلام ترمي؟ فقلت له:

ـ لا ضرورة لإضاعة وقت معلمك، ولا وقتي أنا أيضاً... إذهب، وارو له ما رويته على مسمعك عن لقاء كبير وفريد...

ما إن عاد التلميذ إلى معلمه، حتى سأله، أين هو؟ ألم يأتِ معك؟ فأخبره التلميذ تلك القصة... فضحك كريشنامورتي وقال:

ـ إنه محق... لقد فعل عين الصواب... صدقني، لو كنت أعرف هذه القصة، لكنت رويتها لك من قبل... فعلاً إنه توأمي الروحي... ولو التقينا، لكنا غرقنا في صمت مطبق.

هذه، كانت علاقتي بكريشنا مورتي، علاقة تختلف عن غيرها من العلاقات، علاقة تواصل روحي، ولو عن بعد، وإذا كانت الروح متصلة بالروح، فلماذا الكلام... ما عرفت رجلاً بحدة ذكائه، ولا

برغبته في العطاء دون مقابل... لكن قليلين هم الذين تفهموه، وأدركوا أهميته، حتى أن خبر وفاته، نشرته الصحف في الصفحات الداخلية التي نادراً ما يتصفحها أحد. مات عن عمر تسعين عاماً، أمضى سبعين منها في مساعدة الناس، كي يصبحوا أحراراً... لقد سعى لتحرير الإنسان من القيود والأغلال، ومن رغباته ونزواته الجسدية... الإنسان، عنده، هو ذاك المترفع عن الصفاء المتعالي عن التفاهات... إنه الإنسان الحر المتمتع بالكرامة.

لم أتأسف لوفاته، بل تأسفت على الناس الذين لم يعرفوا اقتناص فرصة ذهبية، فرصة وجود كريشنا مورتي على قيد الحياة، فلم يتعلموا منه، ولم يعيروا أقواله اهتماماً وافياً... ولكن هذه هي حالة البشر، إضاعة الفرص، فرصة الإستفادة من متنورين وروحيين عظماء.

كان صديقي هذا جدياً إلى أبعد الحدود، ورغم هذا أحببته وأحبني، ولذلك لم أعتبره يوماً رجل دين. فرجل الدين بحاجة لحس الدعابة والفكاهة، وإلا لن يكون قريباً من الناس، وإلا حوّل الدين إلى نوع من التفاهة، إلى علم ومنطق، وهكذا يفقد لمسته الإنسانية، ويصبح نوعاً من العلوم المعتمدة على الإختبارات والتجارب، والإنسان يستحيل أن يكون مادة تخضع للإختبارات والتجارب، والإنسان بحاجة للحب، للحنان، إنه، عكس جميع المخلوقات، يبتسم ويضحك، يعبر عن أحاسيسه ومشاعره، وحده يتمتع بحس الفكاهة. أنظر إلى الشجر، هل رأيت شجرة مبتسمة أو ضاحكة؟

أمضى كريشنا مورتي، سبعين عاماً من حياته، جدياً كل الجد، الحقيقة، إنها سبعون عاماً ضاعت سدًى، لم يقترب منه إلا التعساء، إلا الذين ينظرون إلى الحياة، نظرة سوداوية... لم يدرِ أن الحياة بحاجة، ولو القليل، من المرح، من اللعب، من اللهو، القليل من الضحك... إنها

نقطة الإختلاف بيننا، ورغم هذا، كنت وما أزال، أعتبره عبقري زمانه، عبقرياً. لم يتمكن من ملامسة قلب الإنسان، بل عقله ولكل منهما طريقة للوصول إليه... إن لم نتمكن من ملامسة قلب الإنسان، فهذا يعني، أننا سنمضي الحياة نردد ذات الكلام، أو ما يقوله الآخرون، نردد كلاماً لا يغني روح الإنسان، ولا يمنحه استراحة وجدانية، أو فسحة أمل... الإنسان بحاجة ماسة للحب والحنان.

بالمختصر، كان كريشنامورتي، فيلسوفاً عظيماً، لكنه فشل في أن يكون معلماً، قادراً على مساعدة الناس، في الدخول إلى حياة جديدة، رغم هذا، وعلى عكس الكثيرين غيره من الفلاسفة، تمكن أن يقترب من الصوفية، تمكن من الوصول إلى طرق باب الصوفية، لكنه لم ينتظر أن يفتح الباب له، لأنه لم يكن راغباً بالدخول إلى عالم المتصوفين، مخافة الوقوع في متاهات العادات القديمة والتقاليد... إنه الخوف الذي منعه من التعمق في الروحانيات. وهو ذاته منع العديد من الناس من أن يدخلوا إلى عالمه.

منذ صغره، كان يكره أولئك الذين يدّعون أنهم معلمون لكن الظروف أجبرته أن يكون تلميذاً في مدرسة، تمارس فيها أقسى القوانين... تدريب صارم لمدة أربع وعشرين ساعة، حتى النوم، كان يحرم منه أحياناً. إنها القوانين... هذا ما كان يردده معلموه... كان يرى أخاه نيتاندا، يذوي أمامه، لم يكن قادراً على تحمل ما يفرضه عليه المعلمون في المدرسة الداخلية... وهكذا شكل موت شقيقه صدمة قوية... كان يحبه بجنون... ولكن لماذا الموت؟ هكذا أخذ يتساءل والجواب واحد: بسبب قساوة المعلمين والقوانين الصارمة. فراح ينظر إلى المدرسة وكأنها سجن، التلاميذ هم المساجين والمعلمون هم السجانون، لا بل الجلادون... لم يتمكن صاحب من التعرف إلى

المعلمين الحقيقيين أمثال بوذا وأليشا Alisha وغيرهما من الذين هم مستعدون للعطاء لقاء لا شيء، فقط من أجل العطاء، إنهم الرحمة والحنان، على عكس معلمي كريشنامورتي الذي كان مجبراً على العيش معهم وتحت رحمتهم، ووفقاً لقوانينهم... لا عجب إذن أن يكون ضد المعلمين، ولا عجب أيضاً أن يكون جدياً رصيناً. هذا ما تعلمه... ما من أحد حدّثه عن الإبتسامة، عن الضحك، لم يحدّثه أحد عن العلاقة الروحية بين الإنسان وأخيه الإنسان....

كان كريشنامورتي يقول: «المراقِب - بكسر القاف - هو ذاته المراقَب - بفتح القاف- » كلام إنشائي، يستحيل فهمه، ولا يقبله عقل أو منطق. إذ يستحيل أن يكون المراقِب هو ذاته المراقَب و كأني به يقول «العالِم - بكسر اللام - هو العلم، والعارف هو المعروف».

نحن نعرف، ومتأكدون من ذلك، أن هناك مجهولاً ومعروفاً، والمجهول اليوم، قد يصبح معروفاً غداً... إنه التطور الذي لا يتوقف... ووفقاً لهذا المنطق، منطق التطور الدائم. قد يأتي يوم، عاجلاً أم آجلاً، لن يبقى فيه أمر مجهول، ويصبح كل شيء معروفاً ومعلوماً... إنه هدف العلم وغايته، البحث الدائم والمزيد من الإكتشافات والقضاء على الجهل... ولكن هناك من يقول، إن انتفاء الجهل، يعني انتفاء الحاجة للذكاء... كل شيء صار معروفاً. إذن، لا ضرورة لاستمرار البحث عن اكتشافات جديدة. هكذا يقول العلم، لكن الصوفية تقول غير ذلك. الصوفيون، مهتمون بالألغاز والأسرار والماورائيات، إنهم يقولون، هناك المعروف، والمجهول، والذي لا سبيل لمعرفته لا اليوم ولا غداً. لا ينكرون، أن ما هو مجهول اليوم، قد يصبح غداً معروفاً، لكن الذي لا سبيل لمعرفته، سيبقى سراً من أسرار الوجود، ولغزاً لا حل له... للوجود أسرار، لن يتمكن العلم من الإحاطة بها، وكشف خباياها.

كذلك يقول الصوفيون، بإمكانية القضاء على الجهل، ولكن، ليس هناك أية إمكانية، لكشف سر الأسرار وحل ألغاز الحياة. لماذا أحب هذه، وليس تلك؟ حتى اليوم، ما يزال العلم عاجزاً عن إعطائي جواباً شافياً ومقنعاً عن هكذا تساؤل. لماذا أحب هذه اليوم، ومن ثم أحب أخرى وأنسى الأولى؟ إنها تساؤلات لم تجد أجوبة... إذن ليست الحياة، معروفاً ومجهولاً وحسب، بل هناك عنصر ثالث، ألا وهو الذي لا سبيل لمعرفته.

هنكاك أمور خارجة عن إرادتنا، هناك تصرفات نقوم بها، دون أن ندري، أننا نقوم بها، أو - حتى - لماذا نقوم بها.

صباح ذات يوم، كان بوذا مع تلاميذه، يشرح لهم ما هو برأيه مفيد ومهم، وإذ بالملك، يأتي ويجلس قبالته... يجلس على الأرض كما التلاميذ. لكنه الملك معتاد الجلوس على العرش، فبدا واضحاً أنه كان منزعجاً في جلسته. وكتعبير لا إرادي، راح يحرك إبهام رجله اليمنى، كان يحركه دونما سبب لتحريكه... وأنّى يكون له معرفة السبب، طالما هو لا يدري، أن إبهامه يتحرك...؟ فما كان من بوذا، إلا أن توقف عن مخاطبة تلاميذه، ونظر إلى صاحب الجلالة متسائلاً: «هل لي معرفة سبب تحريك إبهام رجلك دون انقطاع؟».

لم يتمكن الملك من الإجابة، بل راح هو يتساءل أيضاً، بينه وبين نفسه، ذات السؤال. والغريب أن الإبهام توقف عن الحركة، دون علم الملك.

إذن هناك أشياء نفعلها، ونستمر في فعلها، ولن نتوقف عن فعلها، إلا إذا نبهنا أحد إليها... وهذا ما حصل للملك، الذي عاد بوذا وطرح عليه سؤالاً آخر: «ولماذا توقف إبهامك عن الحركة؟».

تعجب الملك وأجاب: «صدقني لم أكن أدري أن إصبع رجلي

يتحرك، ولا أدري أيضاً أنه توقف عن الحركة. لذلك، ليس بمقدوري إعطاءك جواباً على تساؤلاتك».

ابتسم بوذا ومال بنظره إلى تلاميذه قائلاً:

«أرأيتم... إن الإصبع الذي كان يتحرك، هو إصبع صاحب الجلالة، وجزء من جسده، وكان يتحرك دون علم منه، ودون أن يدرك أن إصبع رجله يتحرك. وفي اللحظة التي علم فيها بحركة إصبعه، توقف الإصبع عن الحركة، مع العلم أنه ليس من أمره بالحركة، ولا بالتوقف... إنه الإدراك الذي أوقفه... نعم، حين أدرك أن إصبعه يتحرك، ودونما سبب، تبين له أن عليه الإقلاع عن ذلك.

من هنا، حين تصبح قادراً على مراقبة كل شيء، وعلى التحكم بتصرفاتك، تشعر أن أشياء غريبة تحدث.

وكلما ازدادت قدرات التحكم عندك، كلما اختفت الأشياء، فلا يبقى إلا أنت كمراقِب - بكسر القاف.

هذا ما أراد كريشنا مورتي قوله حين قال «ليس هناك ما نراقبه، حين لا يبقى إلا المراقبون» إنها حالة تنور... حالة الذوبان في النفس والإتحاد بها... إنها حالة الوعي الكلي...

حدثني أحد أصدقائي، أنه أمضى ثلاثة أيام في ضيافة كريشنا مورتي قبل وفاة هذا الأخير، فقال: إن كريشنا مورتي كان حزيناً جداً، ليس لإحساسه بدنو ساعته، بل لعدم تمكنه من الإتحاد بالناس، كان يشعر، أن كل ما فعله للناس، كان مجرد تسلية لهم... ولهذا، لم يحزن أحد لموته، ولم يكترث أحد... لم يستطع كريشنا مورتي من بناء علاقات اتحاد روحية مع الآخرين، لأنه لم يحاول يوماً ملامسة

القلوب. لأنه لم يكن يعرف كيف يبتسم، ولا كيف يلهو...

هكذا، رحل، وهو العظيم العظيم، كأي إنسان عادي، حتى تلاميذهأفتقدوه لفترة، ولكن سرعان ما تفرقوا في الحياة ونسوه... لأنه لم يتمكن من تغييرهم.

حكيم سناي

إنه ليس كغيره من المتصوفين، إنه حالة فريدة ونادرة... تعمق في التصوف، وتبحر في التفكير، حتى عجز العديدون من المتصوفين عن مجاراته... لقد تمكن هذا الرجل من فعل المستحيل.

لو كنت مولجاً على اختيار أفضل كتابين عن التصوف، لكنت اخترت «عالم الزنية» (Zen) لفرقة بوذية، تؤمن أنه بمقدور المرء بلوغ طبيعة الحقيقة عن طريق التأمل والوعي، أما الكتاب الثاني فهو كتاب «حديقة الحقائق» لحكيم سناي. تمثل الحديقة، عند متصوفنا هذا، العنصر الرئيسي للوصول إلى الحب.. ومن يتمعن في قراءة هذا الكتاب، يدرك أنه تمكن من الإمساك بالروح الأساسية للصوفية. بكلمة واحدة، إن كتاباً، مثل «حديقة الحقائق»، يستحيل على أحد أن يدعي كتابته، لأنه مولود من العقل، وليس مصاغاً عبره، إنه كتاب، يعتبر أبعد بكثير من قدرات العقل والفكر. إنه أشبه بهدية إلهية. إنه أشبه بالعصافير التي تزقزق فرحة وأشبه بالأزهار المزهرة... لولادة هذا الكتاب حكاية غريبة نوعاً ما، حكاية تثير التساؤل، وتغذي الفضول البشري.

يقال، إن باهرامشاب Bahramshab سلطان غازنا Ghazna، كان في طريقه لغزو الهند بغية السيطرة عليها وإخضاعها لحكمه، وكان معه، شاعره، حكيم سناي للإستئناس برأيه والإستمتاع بحديثه.

حط الجيش رحاله للإستراحة قرب حديقة غنّاء مسورة بالأشجار

الباسقة، تفوح منها روائح العطور المتنوعة، حتى يخال للمرء، أنه أمام جنة عدن، أو الفردوس الإلهي،... لم يكن بنية السلطان التوقف لوقت طويل، إنه بعجلة من أمره، يريد السيطرة على الهند، وكأنه يضمن أن النصر سيكون حليفه. لكن صوتاً منبعثاً من داخل الحديقة، استحوذ على فكر السلطان وسلبه تفكيره، وجعله يصغي باهتمام كلي، متناسياً الهند، وما يريده منها...

كان السلطان شغوفاً بالموسيقى والغناء وسماع الشعر، لذا أحاط نفسه، بأفضل الموسيقيين وأشجى المغنين، وفحول الشعراء، لكنه لم يسبق له، أن سمع صوتاً كهذا، صوتاً شجياً وأداء ينبع من القلب، لم يثنه عن متابعة زحفه وحسب، بل شدّه للدخول إلى الحديقة، ليتعرف على صاحب الصوت الذي تفطر له القلوب، ويلهب مشاعر العشاق.

صاحب الصوت، كان لاي - خور Lai - Khur متصوف متبحر في علم التأمل والوعي، يلقبه الناس بالرجل السكير المجنون، ولا أحد يعرف عن سيرة حياته أكثر من هذا، وفي الوقت ذاته، كان ذائع الصيت. لم يكن يحتسي الخمر، لكنه كان ثملاً دائماً، ثملاً من قدسية الحياة ومن اتحاده بالله وانصهاره به. لذا لم يكن العالم يعني له شيئاً، العالم عنده مجرد تفاهة، مجرد سخافة. انقسم الناس حوله، منهم من رأى في أفكاره، أفكاراً خيالية، تتعارض مع التقاليد والعادات والأعراف. ومع المفهوم الجوهري للدين... ومنهم من رأى في تعابيره، منجم ذهب خالص الصفاء، وأنه الطريق التي توصل إلى الله، وأن ما يقوله هو الحقيقة بعينها وليس غيرها.

أحاط لاي خور نفسه، بقصص وحكايات تجعل منه إنساناً سيء السمعة، لا لسبب، إلا لابتعاد الناس عنه، فلا يقصدونه، بل يتركونه يتعبد لله، هذه هي حال الصوفيين، ينقطعون عن العالم، وينصرفون عن

المادة، ويكرسون أنفسهم لعبادة الله ومحاولات التقرب إليه.

ذات يوم، وبعد أيام على وجود السلطان باهرامشاب، طلب لاي خور خمراً ليحتسيه. تعجب الجميع، فالصوفيون لا يشربون الخمر البتة، لأن ذلك محرم دينياً، وحين سُئل ولماذا تريد الخمر؟ أجاب: «لأشرب نخب هذا السلطان الأعمى».

حبس الجميع أنفاسهم، خوفاً من انفجار غضب السلطان الذي كبت غضبه وكبح جماح ثورته، والسبب في ذلك، شدة انبهاره برخامة صوت لاي خور وعذوبة أدائه... كان السلطان يفضل البقاء في حالة النشوة وفي الفرح، حتى ولو اضطره هذا إلى غض النظر عن الإهانة التي وجهت إليه، لكن بعضاً من مرافقي السلطان، احتج بشدة على ما قال هذا السكير المجنون كما يلقبه الناس، لكن هذا الأخير ضحك ملء شدقيه، وبقي مصراً على نعت السلطان بالأعمى معللاً ذلك بقوله: «ما الذي يمكن للإنسان أن يتغلب عليه؟ إن الرغبة بالتغلب على الآخرين، تعني الغباء المطلق، فاليوم يتمكن أحدهم من التغلب على آخر، ولكن سيأتي يوم، يتغلب فيه إنسان آخر على من ادعى الغلبة... النصر الحقيقي، ليس في احتلال أراضي الآخرين وإخضاعهم ولو بالقوة، بل هو في التغلب على النزوات والشهوات، على الحقد والكراهية، النصر الحقيقي هو في انتصار الحب والدعوة إلى التآخي... ولو كان هذا السلطان ذا بصيرة، لعاد إلى قصره متخلياً عن فكرة غزو الهند والإستيلاء عليها... لكان تساءل، ماذا سيقول لذوي الضحايا الذين سيسقطون من بين عداد جيشه؟ سيقول لهم «سيطرت على الهند؟» وماذا ينفع هذا الأيتام والأرامل؟ هل هذا يخفف معاناة المتألمين، ويسد جوع الجياع؟ بالطبع لا، بل سيزداد عدد المعانين والجياع...

من يسعى إلى ما يسعى السلطان إليه، هو كمن يبني قصوراً من رمال، كمن يعيش في الأحلام... فلا تكونوا أغبياء، مجانين، لا تتعايشوا مع الأوهام، بل كونوا واقعيين، منطقيين، لا تبحثوا عن السعادة، أينما كان، بل داخل ذواتكم... إن من أعطاهم الله نعمة البصر والبصيرة، هم الذين يبحثون عما في داخلهم من كنوز، أما أولئك الذين ينظرون إلى هنا وهناك فهم جاهلون للحقيقة، يفتقدون شيئاً لا يعرفون ما هو، وإلا لكانوا عرفوا أين يبحثون عنه.

كان الإسكندر المقدوني، يجالس ديوجين، فقال له:

ـ أريد أن يأتي يوم أرتاح فيه، أريح جسدي وأستمتع بما تبقى لي من حياة.

ـ ومتى يكون هذا؟ تساءل ديوجين.

ـ بعد أن أتغلب على العالم كله، وأخضعه لسيطرتي.

ضحك ديوجين وقال:

ـ لا بد أن هذا اليوم لن يأتي، إنك فعلاً مجنون.... واعلم، لن ترتاح إلا حين تفعل مثلي...

ـ وماذا تعني، أن أتخلّى عن حلمي بالسيطرة على العالم؟

ـ نعم... إفعل مثلي... إنهض كل يوم باكراً، واقصد النهر، إجلس عند حافته، إجلس عارياً، دع الشمس تطهر جسدك من كل دنس... دع نظرك يسرح في البعيد البعيد، تمتع برؤية الأشجار والزهور، إصغِ إلى صوت الماء تنساب في السواقي، وتغريد العصافير... هذا أنا... لا أحلم إلا بالسعادة النابعة من ذاتي، ما حلمت يوماً بالتغلب على أحد... وما فكرت بإخضاع أحد...

دعك من الأفكار التي تقض مضجعك وتقلق بالك، وتشغل

عقلك، إنك، هكذا، لن تعرف الراحة أبداً، كلما سيطرت على بلد، تبدأ بالتفكير بالسيطرة على بلد آخر، وهكذا دواليك... إخلع ملابسك، وتعال استرخِ إلى جانبي، دع الشمس تطهر جسدك... فكّر كيف ستحب الآخرين، كيف ستتواصل معهم، لا كيف ستذلهم.

إنها الحياة، تعيد نفسها مرات ومرات، ودائماً هناك من يلعب دور الأعمى، دور الطامع في كل شيء، دور السيد المطاع، ودائماً هناك، من يحاول إنارة طريق الضالين. دائماً هناك الإسكندر الكبير وباهرامشاب، كذلك، هناك لاي خور وديوجين.

وكما تعجب الإسكندر لقول ديوجين وقال «إنك محق، ولكني لن أرتاح قبل السيطرة على العالم» كذلك فعل السلطان باهرامشاب الذي أجاب: «أعذرني يا لاي خور، علي متابعة طريقي نحو الهند، وبعدها أرتاح».

رفع لاي خور كأسه وشرب نخب السلطان الأعمى، ونخب حكيم سناي لبصيرته وحكمته وزهده بالدنيا... كان حكيم سناي شاعر البلاط، لكنه لم يغتنِ إلا بالوعي والعلم والحلم أمضى حياته يعيش بتواضع...

وضع لاي خور الكأس جانباً ونظر إلى حكيم سناي «لقد حباك الله قدرة هائلة وطاقات لا توصف، لكنك لا تحسن الإستفادة منها.. إنك تهدرها هباءً، إنك تصرف وقتك بالتفكير كيف ستمدح هذا السلطان الطامع بكل شيء، هذا السلطان الذي لن يتمكن من مواجهة ربه، وأنت كذلك، ماذا ستقول لربك؟ أمضيت حياتي أكتب الشعر مادحاً ملوكاً فاقدي البصر والبصيرة أمثال سلطانك هذا؟».

أحس حكيم سناي بقشعريرة تسري في جسده، لم يسبق لأحد ، أن حدثه هكذا، أن طرح عليه هكذا أسئلة... أحس أنه مات وولد من

جديد، لم يعد هو من كان قبل ذلك، لقد تمكن ذاك الرجل السكير المجنون من ملامسة قلبه، والدخول إلى أعماق روحه، لقد تمكن من إيقاظه، فانحنى أمام لاي خور احتراماً وتقديراً، والدموع، دموع الفرح، تغطي وجنتيه، إنه مسرور جداً، لقد مات وولد من جديد، إنها الولادة الجديدة أو الساتوري كما يقول الصوفيون.

نعم، ولد حكيم سناي من جديد، وقرر التخلي عن عمله في بلاط السلطان، قرر ألا يهدر طاقته، وألا يخصص وقته لخدمة إنسان لا هم له إلا إخضاع الآخرين، وحتى تكتمل ولادته الجديدة، قرر التخلي عن كل ما هو دنيوي والإنصراف لعبادة الله والتقرب منه، فكان أن قرر الحج إلى مكة المكرمة، والتبرك بالكعبة المشرفة... حاول السلطان جاهداً ثنيه عن قراره هذا، يريده أن يبقى إلى جانبه، يمدحه ويغدق عليه أجمل الكلام، حاول إغراءه بشتى الوسائل والسُبل، عرض عليه الزواج من شقيقته الصبية الرائعة الجمال، وجعله وزيره الأول، أغراه بالمال والسلطة والسطوة، لكن، كل هذا لم يغره، «شكراً سيدي السلطان لم أعد أعمى، لقد استعدت بصيرتي، وأريد استعادة ذاتي... لقد غيّرني هذا المجنون، أعطاني ما سلبته أنت مني... أعطاني الرؤيا... سأذهب إلى مكة المكرمة، لا للحج وحسب، بل للتأمل وممارسة الصمت.

بعد عودته من رحلة الحج، عاد حكيم سناي لزيارة لاي خور وأهداه كتاب «حديقة الحقائق» عربون شكر لما قدمه له...

لو كان بمقدوري صنع تمثال لأحد، لكنت فعلت ذلك لحكيم سناي، لكن الصوفي لا يصنع له تمثال، لأن التمثال شيء مادي، غير قادر عن التعبير عن غناء الصوفي وابتهالاته، غير قادر أن ينطق بصلواته... التمثال جماد بارد، صمت فارغ، والتصوف وعي وفكر، حياة وحيوية، تأمل وانصهار بالله... التمثال، مهما برع النحات في

نحته، يبقى حجراً غير قادرٍ عن التعبير... إنه عملية ثنائية المعنى، إنه أشبه باتحاد بين جسد وروحٍ فقط، دون الأخذ بعين الإعتبار، أن لا قيمة للعاشق ولا للمعشوق، بدون رهبة العشق... إنه الحب الذي يفرض ثلاثية المعنى بدلاً من ثنائيته.

حين يلتقي عاشقان، يكونان إثنان ظاهرياً، إنما هناك رابط ثالث خفي غير منظور، لكنه مُدرك بالحس والحدس، إنه الحب، الذي من دونه لا يوجد حبيب ولا حبيبة، لا عاشق ولا معشوق. وهذه هي حال حكيم سناي، استعاد بصيرته، فأدرك أن هناك رابطاً يربطه بالله، إنه الايمان، إنه فعل الحب.

هيراقليطس

عجيب أمر هذا الإنسان ومحيّر. معروف في الشرق مثله مثل بوذا، وكأنه شرقي المولد والمنشأ... والمحير أيضاً، أن مواطنيه اليونانيين، اعتبروه دخيلاً عليهم وغريباً عنهم... كانت اليونان غارقة في الأبحاث الفلسفية والمنطق والتحليل العقلي. فجاءها هيراقليطس ينظم شعراً، يدعوها إلى حل ألغاز من نوع جديد...

أرسطو، أبو الفلسفة اليونانية، قال: «ليس هيراقليطس إلا شاعراً... إنه ليس فيلسوفاً... إنه يعاني من خلل في شخصيته، ولهذا فهو يتكلم بأسلوب مثير، فيه الكثير من الغموض والتناقض». قد يكون هذا، هو السبب الذي جعله يعتبر غريب الأطور، أو مجنوناً. ولهذا السبب أيضاً لم ينتشر اسمه إلا بعد وفاته، إلا بعد معرفة الغرب، إن الشعر ضروري للحياة، كما علم الحساب، وكما الفلسفة وعلم النطق.

كثيرون هم الذين لم يفهموا هيراقليطس، فلقبوه بالغامض، لقبوه هكذا وتناسوه... قد يتساءل البعض، لماذا تناسوه؟

إن رغبت في فهم أرسطو، فأنت لست بحاجة لإحداث أي تغيير في حياتك أو في طريقة تفكيرك. أنت، بحاجة فقط، لبعض المعلومات، قد تتوفر في أي مدرسة - تلك الأيام - أما اليوم، فقد تجدها في كل مكان حتى على الإنترنت، حيث تجد الشروحات الوافية، عن الفلسفة والمنطق، إذن كل ما عليك هو بذل الجهد، وبقدر ما تبذل من جهد،

تجمع من معلومات، وتدعي أنك مثقف... بينما إن أردت فهم هيراقليطس، فعليك أن تغوص في علم الأسرار والألغاز، لست بحاجة للمزيد من المعلومات، بل بحاجة للتواصل معه، مباشرة دون وسيط.

حين يتكلم هيراقليطس، يحدثك بالألغاز، وكثيراً ما يناقض نفسه بنفسه، إنها الحياة، سلسلة متناقضات، وهيراقليطس ابن الحياة... يؤمن بالحياة والموت اللذين يعتبرهما وجهين لعملة واحدة... الحياة هي الموت، والموت هو الحياة بذاتها. فلحظة تولد، لحظة تأتي إلى الحياة، تبدأ المسير على الطريق الذي يؤدي إلى الموت... ويقول، إن ساعة الموت تعني بداية سيرة جديدة نحو الحياة، نحو حياة جديدة، حياة، قد تتناقض مع حياتك السابقة، وتختلف عنها، وقد تكون استمراراً لها. الحياة فيها موت، والموت فيه حياة. إنهما كجناحي الطائر لا يستطيع الطيران بدونهما، إنهما بمثابة رجلي الإنسان، الذي لا يستطيع السير على رجلٍ واحدة، بل عليه الاستناد على كلتيهما معاً.

بالنسبة لي، المنطق لن يوصلك إلى رحابة الحياة، بل إلى أفق ضيق، المنطق قد يزرع الخوف في ذاتك، سيجعلك دائم الإنشغال في تحليل الأمور وتعليلها، وهذا يُوجب عليك اختيار أمر وتجنب أمر آخر. بمعنى، ممنوع عليك أن تتعامل مع الشيء ونقيضه. ولكن إن حجبت النقيض، فهل هذا يعني، أنه اختفى من الوجود؟ لا... سيبقى موجوداً، وهكذا بالنسبة للحياة والموت، فهل عدم تفكيرك بالموت، يعني أنك لن تموت؟ بالطبع لا... إنه أمر محتوم، إنه قدر الإنسان... وكلنا نكره أقدارنا، ولهذا يقال «إكرام الميت دفنه» أي الإستعجال في التخلص منه... ولهذا أيضاً، نجعل المدافن بعيدة عن البيوت، ونصنع قبوراً من رخام ننقش عليها عبارات وعبارات، ونزرع الزهر أمامها، أوليس هذا هو التناقض بعينه؟ نهرب من الموت

ونزينه، إنها الدلالة الواضحة على أن في الموت حياة...

الغرب اليوم، وبعد أن تعرّف إلى الشعر، والروح، وزاوج بين العلم والخيال، تغيرت نظرته إلى الموت... لم يعد الموت نهاية، بل بداية، ولهذا تأسست الشركات التي تعنى بالموت، فصاروا يحافظون على الجثة، فتبدو وكأنها لإنسان نائم، حتى الجسد يبدو وكأن الحياة، ما تزال تنبض فيه. غير أن هذا لا يعني أبداً انتظار الموت... كلنا ننتظر الساعة، وكأننا نقف في طابور أمام دور المسارح أو السينما، هكذا نحن بالنسبة للموت، ننتظر قدومه ولا نعرف متى سيأتي، إنه لا مهرب منه ولا مفر، وبالرغم من هذا، ما يزال المنطق، يقول: «الحياة هي الحياة، والموت هو الموت، لا رابط بينهما ولا اتحاد... إنهما منفصلان ومختلفان».

يقول أرسطو: «إن الألف (أ) هي ألف، ويستحيل أن تصبح أي حرف آخر... إنها قاعدة التفكير الذي كان سائداً تلك الأيام... تجنب التناقض... الحب هو الحب، والكره هو الكره، هذا قول هراء... فالحب يتضمن الكره، والكره يتضمن الحب، نعم أنت تحب إنساناً وتكرهه في آن... تحب فيه خاصة معينة أو ميزة... وتكره فيه خاصة أخرى.. إنه سر الحياة الذي لا يمكن تفاديه أو الهروب منه، وإلا نكون كمن يهرب من ذاته...

كثيراً ما نقول لإنسان آخر «أنت صديقي ولست عدواً لي، وإن كنت عدوي، فهذا يعني أنك لست صديقي».

ولكن في كل صديق مشروع عدو، وفي كل عدو مشروع صديق، لكنك تحب الصديق وتكره العدو، هذا هو اللغز المحيّر.

لُقب هيراقليطس، بأبي الألغاز. رغم هذا، كان هيراقليطس يمثل الحياة على حقيقتها، الحقيقة التي تعكسها المرآة النقية الصافية، والمرآة،

ليست لغزاً، بل هي صورة مجردة عن الحياة، أو عنك أنت وعن أحاسيسك. أما أرسطو، فلم يكن كالمرآة يعكس الصورة الحقيقية، بل مصوراً فوتوغرافياً، يعطي صورة ميتة لا حياة فيها ولا حركة. وهنا يكمن سر التناقض بين الإثنين.

كان هيراقليطس، لا يعتبر نفسه مسؤولاً عن الخلط بين الأضداد والمتناقضات، لأنه ليس هو سبب وجودها، هي موجودة - نتيجة فعل ما - منذ القدم، كل ما يفعله هو أنه يحاول التقريب بينها.

لم يؤمن هيراقليطس بالأشياء، في حد ذاتها، بل بالأفعال التي أدت إلى وجود هذه الأشياء... فالأشياء ليست موجودة في الحياة... وإلا لكان علينا التساؤل، كيف وجدت، ولماذا، وهل وجدت هكذا أم تطور وقع عليها؟ من الخطأ استعمال كلمة موجود فلا شيء موجوداً في الأساس، إنما هو حصل أو يحصل. وكل شيء ينمو ويكبر ويتغيّر. حتى الإنسان يتغير، دائم التغير، فأنا، لست أنا قبل سبع سنوت، ولن أكون أنا بعد سبع سنوات. أنا في حالة تغير دائم، جسدياً وروحياً. يقول هيراقليطس: «من غير المعقول أن أسبح في النهر ذاته مرتين، حتى ولو بفارق دقائق أو ثوان».

لا شك هناك متسائل يتساءل: لماذا؟ والجواب واضح وجليّ، لأن النهر في تجدد دائم ومياهه في حركة مستمرة، وهكذا يكون قد تجدد وتغيّر.

كذلك لا يمكنك أن تتعرف على الشخص ذاته مرتين، لأنه - لا أنت ولا هو - ستكونان من التقيتما سابقاً... كل شيء يتغير، ووحده التغيير ثابت وأبدي، وحده التغيير لا يتغير، كل شيء يولد في حالة ما، ثم يبدأ في النمو، أو في التحول والتغير. كل شيء يولد ويموت. إنظر إلى الإنسان، يولد صغيراً جداً، ثم يصبح شاباً فرجلاً فكهلاً، ومن ثم

يموت، يبدأ رحلة نحو حياة جديدة. حتى الجبال، لم تكن في الأساس جبالاً، بل تكونت، وصارت جبالاً... لا شيء موجود بذاته، بل هو صيرورة، هو نتيجة فعل ما وهكذا، لم يكن، لكنه صار - حصل - وحتى الجبال أيضاً، تبدأ رحلة النمو، فتنمو وتكبر، حتى تصل إلى ذروة النمو والكبر، فتبدأ رحلة جديدة. رحلة الإضمحلال. غريب أمر هذه الأشياء، الرياح والعوامل الطبيعية هي سبب وجود - حصول - الجبال، وهي بحد ذاتها سبب تآكلها وإعادتها سهلاً.

هكذا نظر هيراقليطس إلى الحياة. كل شيء في حركة دائمة، وتغيّر دائم، فلا شيء يبقى على حاله ولا شيء يعرف الثبات... فلا تحاول مقاومة هذه السنّة، لأنك لن تستطيع منع الغيير... التغيير يعني انتقال الحياة من مرحلة إلى أخرى، من مكان إلى مكان... إنه التناغم الخفي..

قيل إن بعض ضيوفه شاهدوه يتدفأ، فقال لهم: «حتى في هذه النار آلهة». فالآلهة عنده، هي في كل مكان، لذا ما قصد معبداً بهدف الصلاة... ولماذا تفعل ذلك؟ فإن كنت إنساناً واعياً، مدركاً ذا بصيرة، فلماذا تذهب إلى المعبد؟ فالآلهة موجودة في كل مكان... قال هيراقليطس هذا القول، قبل مجيء المسيح بمئات السنين، المسيح قال أيضاً: «الله في كل مكان». الله ليس شخصاً معيناً، حتى لا يتواجد إلا في مكان معين، إنه حالة نورانية، إنه الوجود بحد ذاته، إذن هو في كل مكان، وليس في المعابد فقط، وما ذهابك إلى المعبد بحثاً عنه، إلا نوعاً من التغيير أو أنك بحاجة لتغيير جذري، والمكان لن يقدم أو يؤخر في عملية التغيير التي أنت بحاجة إليها، بل عليك أن تبدأ تغيير ما في ذاتك. تغيير رؤيتك للأمور. وهكذا يتحول بيتك إلى معبد، كل مكان يصبح معبداً، والله موجود في كل مكان.

أيضاً قال هيراقليطس، إن النار، هي مادة الحياة الأساسية، ووافقه

الفيزيائيون في هذا، إلى حدٍ ما، لكنهم اليوم يقولون: «الكهرباء هي أساس الحياة»... إذن هناك فرق كبير بينه وبينهم. النار كلمة تعبر أكثر مما تعبر الكهرباء... الكهرباء عملية ميكانيكية، والله ليس مهندساً ميكانيكياً... إذن النار هي الأساس.

أراد هيراقليطس، إظهار ما هو أبعد من المدلول الحرفي لكلمة النار. حاولْ مراقبة النار في ليلة شتاء باردة، إجلس قربها وراقب، فلا شك ستشعر بها وبالدفء الذي تمنحك إياه. البرد رمز الموت والدفء رمز الحياة... الجثة تكون باردة، أما الجسد فهو دافئ. ولهذا، حين ترغب بالتعبير عن حبك الحقيقي تقول: «تحياتي الحارة» وليس «تحياتي الباردة». تقول «قبلاتي الحارة» أو «حبي الحار». هكذا تكون ترمز إلى الحياة.... بينما البرد يرمز إلى الموت.

الشمس هي مصدر الطاقة، مصدر النار، مصدر الدفء، لاحظ كيف حين تغرب الشمس يخيم السكون والتعاسة على كل شيء، وحين يهبط الظلام، حتى العصافير تعود إلى أعشاشها، تلتزم الصمت، والورود تضم أوراقها إلى بعضها، هدوء وصمت... صمت مطبق، حتى الشوارع تخلو... كل شيء ينتظر بداية بزوغ الشمس التي، ما إن يبدأ نورها بالإنتشار، حتى يعود الدفء إلى الأرض وإلى الكائنات، فتعود الحياة مجدداً... تبدأ العصافير بالتغريد والزقزقة، وتفتح الورود أكمامها، العمال يجدّون في الذهاب إلى المصانع والمعامل، والفلاحون إلى حقولهم والطلاب إلى مدارسهم وجامعاتهم... أشرقت الشمس وعادت الحياة.

إن للنار... إذن معنى حياتياً. إنها دائمة الحركة، ونحو الأعلى، عكس الماء التي تتجه نحو الأسفل. وقديماً قيل، المعلم كالنار والتلميذ كالماء، وما إن يبدأ التلميذ، يحتكّ بمعلمه ويتقرب منه، حتى يبدأ يستمد

الحرارة منه ويتعرف إلى الدفء، فتتبخر الماء وتختفي، وتنتقل النار من الأستاذ إلى تلميذه. النار هي القوة الدافئة للتقدم والإرتقاء حتى بلوغ القمة.

أخذ بعض الفلاسفة على هيراقليطس قوله هذا. كان فلاسفة اليونان يقولون، أن هناك أربعة عناصر: التراب، الماء، الهواء والنار... وكانوا منقسمين حول أي عنصر هو الأهم، أو هو الأساس، منهم قال التراب، ومنهم من قال الهواء، كذلك منهم من قال الماء. ومن الماء جعلنا كل شيء حيّ. أما هيراقليطس فقال: «النار هي العنصر الأساسي والأهم...» لكنهم ما اعتبروه فيلسوفاً، بل شاعراً، وليس له الحق بقول ما يقوله الفلاسفة. لقد تمكن هيراقليطس من إعطاء النار رمزاً، والرمز أهم من المعنى... المعنى حرفي، والرمز دلالة.

رفض هيراقليطس تحويل الحياة إلى عملية تجارية تهتم بالربح والخسارة... الحياة عنده، هي كلعبة الأطفال... فلنكن كالأطفال، نلعب دونما تفكير بما سنجنيه في النهاية... لنكن مثلهم ننتشي بالسعادة ونحن نلعب، دون تفكير بربح أو خسارة. هكذا تصبح الخسارة، ليست خسارة... أما في التجارة، فكثيراً ما يتحول النجاح إلى فشل، إلى تعاسة وكآبة. تذكر أيها الإنسان، أن عليك عدم الركض وراء أهداف معينة، لئلا تكون تهدر حياتك. ليس للمياه هدف، إنها مجرد لعبة، نتسلى بها ونستمتع.

إن جعلت للحياة معنى، ستفقدها شاعريتها، وتحولها إلى فعل تجاري... أنت... حين تقول شعراً، لا تقل ذلك لهدف ما، بل لتعبر عن ذاتك. إنك تفعل هذا من تلقاء ذاتك، وليس بناءً لطلب. إسأل الوردة «لماذا تزهرين؟» فستقول لك: «لا أعرف... كل ما أعرفه أني أزهرت، لأن الإزهار هو طبيعتي». كذلك سيسخر منك العصفور، إن

سألته لماذا يغرد؟ ويرمقك بنظرة استهزاء، لأنه لا يدري بماذا يجيب... سيعتبر سؤالك تافهاً لا قيمة له، لأنه يغرد، لينتشي هو، وليس أنت، لكنك تنتشي. العقل، لا يدرك مثل هذه الأمور ولا يفهمها... إنه دائماً يبحث عن هدف ما، لا يعرف الإستمتاع بالبساطة... إنه دائم البحث عن هدف يحققه، عن غاية يصل إليها... فلماذا لا نكون كالوردة تزهر دون هدف؟ لماذا لا تكون مثل النهر الجاري، غير آبه بما يعترضه؟

الطفل، برأي هيراقليطس هو ملك متوج، رغم أنه ليس ملكاً... راقب حركاته التي تصدر عنه عفوية وبشكل تلقائي، غير مكترث إن أعجبتك هذه الحركات أم لا.

استدعيت أم طفل إلى المدرسة، بسبب سوء تصرفه. نظرت الأم إلى طفلها غاضبة: «هل فعلاً وضعت الوحل في فم رفيقتك؟» بهدوء أجاب: «نعم لقد فعلت ذلك». هنا ازداد غضب الأم وصاحت «ولماذا؟» هز الطفل كتفيه غير مبالٍ بغضب أمه: «رأيت فمها مفتوحاً، ففعلت ما فعلت».

هكذا وبكل بساطة، لأنه رأى فمها مفتوحاً، وضع الوحل فيه... إنه سبب غير مقنع، ولكن كان كافياً لإقناعه بوضع الوحل في فمها... في الحقيقة، لم يكن هذا الطفل يرغب في أذية زميلته أو ينوي ذلك - كل ما فعله - وببراءة الطفولة - فعل ما فعل... ولكننا، نحن دائماً نطرح السؤال «لماذا... لماذا؟».

إنه سؤال، يدل، على أن هناك هوة كبيرة بيننا. نحن الراشدين وبين الأطفال. يعيش الطفل في عالم اللعب والتسلية، في عالم العفوية والبراءة. حيث لا تعقيد، بينما يعيش الراشدون في عالم مختلف جداً، في عالم البحث عن الأسباب لما يحصل هذا، وعالم الأسئلة: لماذا؟... كيف؟... أين؟ ومتى؟ وحدهم القديسون يفهمون الأطفال، لأنهم

يعيشون ذات البيئة الفكرية، لا يسعون لتحقيق أهداف مادية، إنهم لا يخططون لالمستقبل، بل همهم هو الحاضر... الطفل لا يفكر بالخير أو بالشر، ولا يهتم إن كان هذا الإنسان صالحاً أم طالحاً.

يبقى القول إن هيراقليطس، يقول إن الوقت ليس خطاً مستقيماً كما يدعي العلماء، الوقت عند هيراقليطس يتحرك كالدولاب، يتحرك بشكل دائري - والحياة ليست هدفاً نسعى بكدٍ وجدٍ إليها، بل هي فرصة للإحتفال بها، للإستمتاع بها والإحساس بالفرح، حتى هذه الأحاسيس تمر بمتغيرات دائمة... كل شيء يتغيّر، إلا التغيّر... أنا لن أكون أنا غداً، وأنا اليوم لست أنا الأمس.

كبير

لا أحد يدّعي معرفة الكثير عن كبير... قد يكون هذا من حسن حظه، إذ كلما ازددنا معرفة لإنسان ما، كلما حاولنا فهمه أكثر، وزيادة معلوماتنا عنه، الأمر الذي يخلق لنا تعقيدات وصعوبات.

كذلك لا نعرف الكثير الكثير عن كريشنا وبوذا... أو حتى نكون دقيقين فيما نقول، يمكننا القول، إن ما نعرفه عن كريشنا وبوذا، هو نوع من الأساطير، ومن الحقيقة التي قد تكون أحياناً أقرب إلى نسج الخيال... لكن كبيراً، لم يترك لنا أثاراً أسطورية، حتى نتلذذ في تردادها ونستمتع في سماعها... كذلك، لم يترك لنا خطباً رنانة، كما يفعل رجال السياسة الذين هم أقرب إلى المخادعين، الذين يهتمون بمثل هذه السخافات، على عكس الصوفيين الذين لا يهتمون، بما يقال، أو سيقال عنهم، لا يهتمون لعاملي الزمان أو الوقت والمكان... إنما يهتمون بما يقدمون، بما يجعلهم أكثر قرباً من خالقهم، وبما يمكنهم من اكتشاف النور في ذواتهم. إنهم دائمو البحث عن إسعاد الروح، أما الجسد فهو الوعاء الحاضن للروح، لذا وجب الحفاظ عليه.

نادراً ما تكلم كبير عن نفسه. من هنا، لا أحد يعرف عنه الكثير حتى أن كثيرين احتاروا، هل كان مسلماً أم هندوسياً؟

هناك من قال، إنه ولد لأبوين مسلمين، وتبنّاه هندوسي، وهذا هو

سر ثرائه الثقافي، فهو تعمق في دراسة ثقافتين: الإسلامية والهندوسية...

طبيعي، حين ينتمي إنسان إلى بيئة معينة، أن يبقى محدود الفكر، أسير عادات وتقاليد وثقافات هذه البيئة، يبقى محدود الحركة، على عكس من عاش وتربّى في بيئتين مختلفتين ثقافياً ودينياً وعادات وتقاليد، إنه كمن امتلك ثقافات العالم، كمن أصبح الكون مسرحاً له يتنقل فيه، دون من يعيق حركته، أو يقيّد أفكاره.

والجدير ذكره، أن كبيراً، بقي على تواصل مع أصوله الإسلامية، رغم تنشئته الهندوسية، ولهذا، كان المسلمون يحسبونه مسلماً، والهندوس يحسبونه هندوسياً، ولهذا أيضاً، كاد يوم وفاته، أن ينشأ نزاع بين الفريقين. كل يريد دفنه وفقاً لشعائر ديانته وعاداتها...، هناك من يقول، إن كبيراً كان مدركاً لما سيحدث يوم وفاته، فترك رسالة يقول فيها «إن تنازع المسلمون والهندوس على طريقة دفني، فما عليكم إلا وضع غطاء على جسدي والإنتظار لساعات، وسيأتيكم الجواب». وهكذا فعل تلاميذه، في حين كان المسلمون يكبّرون، والهندوس يتلون صلواتهم... وما إن نُزع الغطاء، حتى ذهل الجميع: التلاميذ، المسلمون والهندوس. لقد اختفى الجسد، ولم يكن مكانه سوى بضعة ورود جميلة فواحة العطر، فتهافت الجميع على اقتسامها.

لا شك أنها حكاية خرافية جميلة... أقول حكاية خرافية، لأنها بعيدة عن الواقع ويصعب تصديقها، ولن تحدث. لكنها ترمز إلى أن إنساناً مثل كبير، تزهر ذاته ويفوح عبيرها... إن بقاء الروح ضمن الجسد، هو لفترة معينة، وللجسد وظيفة احتضانها، وظيفة الإعتناء بها، حتى إذا ما أزهرت، يختفي الجسد.

أية خرافة هي؟ أزيح الغطاء، فإذ ببضعة ورود ولا جسد.. تحول كبير

إلى ورود، إلى بضعة ورود ليس أكثر... وتهافت الأغبياء على اقتسامها، دون محاولة لفهم ما حدث، أو لإدراك مغزى التزهر... تذكر شيئاً مهماً، كل الإيديولوجيات تسبب خطراً للإنسان إنها سبب إنقسامه إلى فرق وفرق، إنها سبب اعتناق كل منا ديانة تختلف عن ديانة الآخر، والإنسان الواعي هو ذاك القادر على أن يكون مستوعباً كل هذه الديانات وهكذا، لا انفصال ولا انقسام. إن إنساناً كهذا، هو الوجود بحد ذاته...

كان كبير شاعراً، لم يكن فيلسوفاً، لم يتحدث عن منهج معين، وما قال بنظرية فلسفية. لم يكن منظراً ولا لاهوتياً، ما اهتم بالأنظمة، كل همه كان، كيف يقترب من الله، كيف ينغمس في الحب، كيف يكون واعياً.

لم يكن كبير مثل بوذا، ماهافير أو كريشنا، كلهم كانوا مميزين جداً ومثقفين، أبناء ملوك وملوكاً... كان كبير فقيراً، إنساناً عادياً، إنسان غير مثقف... وهنا يكمن سر فرادته... لربما متسائل يتساءل لماذا أقول إنه فريد من نوعه، لماذا أقول، إنه نادر، وفي الوقت ذاته أقول إنه جد عادي... لأنه حين تتمكن أن تصبح عادياً، فهذا يعني أنك المميز.

أقول إنه نادر الوجود، لأنه لم يكن كالآخرين، لم يكن يرغب أن يكون مميزاً عن سواه، عن الآخرين الذين يسعون لنيل الشهادات العليا، لاحتلال أعلى المراكز الإجتماعية، وتبوّء المناصب العليا، وامتلاك الثروات... والسؤال هنا، بما يتميز هؤلاء عن بعضهم؟ التميز الحقيقي، هو في كبح جماح الرغبات بالتميز، وإلا لن تعرف الراحة، لن يكون لك ذلك، إلا بعد تقبلك بأنك إنسان.

لن تعرف الراحة، طالما أنت عبد لرغباتك ونزواتك، ولن تكون إنساناً مميزاً. الإنسان المشبع بالمحبة، الممتلئة روحه بالنور، هو ذاك

الإنسان الطبيعي... وهذا هو كبير الذي لن تجد مثيلاً له بين جموع البشر... من الصعب جداً التعرف عليه من خلال النظر إليه. يستحيل ذلك، بوذا كان مميزاً، بتصرفاته وأفكاره وشخصيته، كذلك كان المسيح الداعي إلى الثورة على الكتبة والفريسيين والتمرد ضد الطغاة. ولكن كبيراً لم يكن مثل بوذا، ولا مثل المسيح، كان إنساناً عادياً وطبيعياً وأمثاله يندر وجودهم.

سأل أستاذ علم نفس في إحدى الجامعات «أستاذنا تحدثنا دائماً عن البشر غير السويين، وتشرح لنا حالاتهم، ولكن لم تحدثنا يوماً عن البشر السويين، عن الناس الطبيعيين؟».

تعجب الأستاذ للسؤال الذي وقع عليه وقوع الصاعقة، واحتار بماذا يجيب. وبعد فترة صمت وقال: «لم أقابل شخصاً سوياً في حياتي، وتأكدوا، لو صادف والتقيت هكذا إنساناً، فسأعالجه قبل غيره، لأنه يستحيل أن يكون إنساناً بلا رغبات ونزوات».

غير أن كبيراً كان كذلك. لم يكن يرغب في عمل ما يميزه عن غيره، حتى بعد أن أصبح متنوراً، لم يشأ تغيير نمط حياته، لم يشأ تغيير عمله الذي أتقنه منذ صغره، بل ثابر على حياكة الأقمشة... لم يخجل يوماً من عمله هذا... حتى أنه لم يستجب لرجاء تلاميذه الذين كان يزداد عددهم، يوماً بعد يوم، أن يتوقف عن عمل الحياكة، فهو ليس بحاجة لعمل بعينه على الحياة. كلهم كانوا مستعدين لمساعدته والوقوف إلى جانبه... لكنه لم يستجب لا لرجائهم ولا لنداءاتهم. كان دائماً يقول لهم «دعكم من هذه السخافات... لا رغبة عندي في أن أغيّر ما بدأت به... دعوني كما أنا، وكما أرادني الله أن أكون... فإن كان أرادني أن أحيك الأقمشة، فلماذا أنتم تريدون مني أن أخالف مشيئته؟ سأبقى أحيك الأقمشة حتى آخر يوم في حياتي».

هكذا أراده الله، وهكذا أمضى حياته، كان يعمل بجدٍ ونشاط، لم يعرف الملل، ولا تذمّر يوماً، وما ادعى - رغم بلوغه مرتبة عالية في المعرفة - أنه صاحب معرفة، فرجل المعرفة - برأيه - يبقى جاهلاً أموراً لا تُعد ولا تُحصى... ومتى ادعى المرء، أنه يمتلك المعرفة - كل المعرفة - يكون كمن يطلب من الزمن أن يتوقف وكمن يريد أن يتعالى على الآخرين، وهكذا، يفقد براءته، ويفقد اتصاله الروحي بالآخرين، ويفقد شاعريته ورغبته في الإستمرار بالمراقبة.

ماذا تعرف؟... هل عرفت شيئاً؟ لا أعتقد ذلك. لو سألتك لماذا لون أوراق الشجر أخضر، وليس أي لون آخر؟ لا ريب، ليس بمقدورك إجابتي... إن أفضل جواب عن هكذا تساؤل، جاء على لسان د. هـ. لورنس D. H. Lawrence حين سأله طفل صغير كان يسير إلى جانبه في إحدى الحدائق «لماذا الأشجار هي خضراء اللون؟».

نظر لورنس إلى الأشجار أولاً، ومن ثم إلى عيني الطفل حائراً ماذا يجيب، فلم يجد جواباً أفضل من «إنها خضراء، لأنها خضراء» إنه الجواب الأصح. قد تنبري قائلاً إنها خضراء بسبب التحليل الكلوروفيلي - ولكن لماذا الكلوروفيل أخضر اللون؟ سؤال يبقى بدون جواب، وإن كان له جواب، فالجواب يستتبع سؤالاً جديداً.

أنظر إلى صخرة ما وتساءل: ما هي هذه ومما تتألف؟ سيجيبك العلماء. إنها مؤلفة من الإلكترون والبروتون والفيوترون وتتساءل مجدداً «ما هو الإلكترون؟» لا شك سيهزون أكتافهم تذمراً من تساؤلاتك، ولكن سيأتي يوم، وستجد من يقول لك: «الإلكترون مؤلف من أ- ج - م... فهل من جديد في هذا الجواب؟».

هكذا هي الحياة، ندعي المعرفة، وفجأة نعي أننا لا نعرف شيئاً على الإطلاق... لا أحد قادراً على امتلاك المعرفة. ومتى تملكت المعرفة

الكاملة، تفقد الحس الشاعري، وتصبح فيلسوفاً وهذا هو الفرق بين الشعر والفلسفة. لذا يمكننا القول: كان كبير شاعراً، كان منشداً الترانيم التي تمجد الله الذي لا يكون إلا حيث تكون الألغاز، وكلما افتقدت المعرفة، كلما اقتربت منه - من الله. فإن قلت مؤكداً «إني لا أعرف شيئاً» وإذا كان هذا القول نابعاً من أعماق ذاتك، فسيكون الله داخل ذاتك، سيكون في كل خفقة من خفقات قلبك، وهكذا تتعرف إلى الجسد، الحب الذي يمنحك السعادة، وهكذا تصبح متديناً. التدين لا يحتاج إلى تفسير ولا إلى شروحات، إنه ليس سؤالاً ينتظر جواباً... إنه تفجر لنبع المحبة، ورحلة حب وعطاء لا نهاية لها.

إني أدعوك لمشاركتي في الدخول إلى عالم هذا المجنون الذي اسمه كبير... نعم إنه مجنون، كل الذين يتقربون من الله هم مجانين، ليس لأنهم فعلاً مجانين، بل هكذا ينظر إليهم ولماذا؟ لأنهم لا يعلقون إيمانهم على النطق، ولا يصغون إلى صوت العقل الذي يشكك في كل شيء... إنهم مجانين لأنهم يحبون الحياة، لأنهم قادرون أن يرقصوا ويغنوا... مجانين، لأن الحياة عندهم ليست معضلة، ولا مشكلة تتطلب حلاً بل هي رحلة حب وعطاء.

إذن، ومنذ بداية رحلة الإبحار في محيطات كبيرة، أقول «عليكم أن تكونوا أبرياء، ساعتئذ تصبحون قادرين على فهم كبير وإدراك مراميه. لا تصغوا إلى عقولكم، ولا تدخلوا في نقاش معه، لا تحاولوا مناقشته، لأنه بعيد كل البعد عن المنطق.... حين تقصدون معرضاً لأحد الرسامين، وحين تقفون أمام لوحة معينة، ماذا ستفعلون؟ هل ستدخلون في نقاش مع اللوحة، أم أنكم ستتمتعون برؤية جمالها؟ كذلك الأمر إن كنت تصغي لعازف يعزف على قيثارته، فلا شك ستنتشي من سماع الموسيقى وتطرب أيضاً إذا كنت تستمع إلى شاعر

يلقي قصائده، غير أن الأمر مختلف جداً، مع رجال الدين... إذ ستجدون أنفسكم مجبرين على مناقشتهم، وعلى الدخول في جدال طويل معهم، لستم أنتم المذنبون، بل هم، أعني رجال الدين...

لماذا؟ لأنهم أغبياء... يريدون إثبات وجود الله عبر الحجج والبراهين، إنهم يريدون إثبات وجود الله، وهكذا تتحول الموعظة إلى جلسة نقاش... الله موجود، ولا ضرورة للأدلة على وجوده، ففي مثل هذه الحال، قد نثبت عدم وجوده فمن يدري، قد لا تكون مقنعاً، في حججك وبراهينك.

إن أردت التقرب من كبير، إن أردت فهمه، فما عليك إلا الغرق في الصمت، والصمت الفكري خاصة... لا تحاول مناقشته، بل إصغِ إليه وكأنك تصغي إلى معزوفة موسيقية، أو إلى شاعرٍ يلقي قصائده... إنه فعلاً موسيقي رائع وشاعر في آن... لا تستمع إلى الكلمات، بل إلى الصمت الذي يلف تلك الكلمات ويسكنها... هناك أمران، لا بد أن يحدث واحد منهما. إما أن تصبح متنوراً، فتعلو وتسمو، وتصبح حياتك أغنية يرددها العشاق، ينشدها الرعاة الأبرياء، وإما تتآخى مع الصمت، وتبقى صامتاً إلى الأبد، وفي الحالتين تكون تعرفت على الله...

حياة كبير، أغنية، ترتيلة صلاة، إنما بصمت. حتى أغنياته صامتة، وكذلك طلباته من الله... إصغِ إلى إيقاع نبضات قلبه، إلى إيقاع أغانيه... إنه لا يحاول أن يقدم لك شيئاً، فأنت لا تعني له شيئاً، لكنه كشجرة الكرز المزهرة، كل ما عليك هو التصميم. حين أحب مهيربابا الصمت، أمضى حياته صامتاً، أما ميرا فأمضت حياتها ترقص وتغني... هي أرادت ذلك، فإن أصغيت لكبير بصمت، ستجد أن أغنيته هي مجرد دعوة للصمت.

إنه فعلاً، رجل نادر الوجود، وينتمي إلى أعلى درجات التصوف، ومن غريب الصدف، إنه ليس مثقفاً وغير متعلم، لكنه يمتلك روحاً فياضة بالحب، حتى كلماته جميلة، ونادرون الذين يتفوهون بمثلها... عاش يتيماً فقيراً، ورغم إنه حساس لدرجة متناهية. قليلة كلماته، لكنها حبلى بالمعاني.

«التجاهل أغلق البوابة الحديدية».

إن لكلمة التجاهل هنا، معنى مختلفاً عن المعنى المتعارف عليه، إنها لا تعني تجاهل حياتك، ولا تجاهل ما يحيط بك، لكنها، عند كبير، تعني نكران الذات.

«ولكن الحب فتح كل تلك الأبواب».

إنها كلمات الرجل العارف العاقل، فلو كان رجلاً متعلماً فقط، لكان قال إن المعرفة هي التي فتحت تلك الأبواب، لكن الإنسان الواعي العاقل قال: «لكن الحب فتح كل تلك الأبواب».

«صوت الأبواب وهي تفتح أيقظ امرأة جميلة من نومها».

إنها جملة رمزية، فالمرأة الجميلة التي كانت غارقة في النوم هي روحك، لقد استعار كلمة امرأة، للدلالة على الروح لأن الأنثوية عنده هي أساس الوجود وسر الأشياء، إنها القمة الروحية، الجمال أنثوي، الشرق أنثوي، الوفاء أنثوي، وكل مثيلات هذه الكلمات هي أنثوية حتى الوعي هو أنثوي... إنه الشرق الذي جعل الأنثوية قمة القيم على عكس بلدان الغرب التي لا تميز لغاتها بين مذكر ومؤنث، الأنثوية عكس الذكورية الممثلة في العدائية، حب القتال، حب السيطرة، الشوفينية، الفاشية والنازية. من هنا ليس مستهجناً أن يقول الألمان عن وطنهم «الوطن الأب» وليس الوطن الأم كما تقول جميع الأمم... إنها المانيا وحالتها الخاصة.

جعل هتلر من ألفرد نيتشه، أستاذه الفكري، مسكين نيتشه لم يكن يعرف، أن رجلاً كهتلر سيأتي ويفهم أقواله على ذوقه ووفقاً لهواه. هذا لا يعني أبداً أن نيتشه لم يكن مسؤولاً البتة عن نازية هتلر. ففي إحدى رسائله، كتب يقول: «ذات يوم وعند شروق الشمس، رأيت جمهرة من الجند مع بنادقهم اللامعة، وسمعت إيقاع وقع أقدامهم وهي تهز الأرض... لعمري ما رأيت مشهداً أجمل، ولا سمعت موسيقى أعذب من موسيقى وقع أقدام الجند». هكذا تحول الجند إلى رمز الكائن البشري وصار هتلر لا يبحث عن المواطنين الواعين، بل الخارقين. إنها إرادة القوة.

صوت الأبواب وهي تفتح أيقظ امرأة جميلة من نومها فلا تدع فرصة كهذه تفوتك.

هذا ما قاله كبير، وهذا ما أقوله لك «لا تدع فرصة كهذه تفوتك»، أعني فرصة إيقاظ روحك وتزهرها.

كان كبير دائم التطلع إلى الغد، كان متفائلاً بما سيأتي. إنه إيمانه كان يدفعه للتفاؤل... هكذا يمكننا القول إنه من أعظم الشعراء المتدينين، لكنه لم يكن لاهوتياً، و لم يكن ينتمي إلى جماعة دينية معينة. إنه ليس هندوسياً ولا مسلماً أو مسيحياً أو بوذياً، إنه كل هؤلاء معاً... وهذا مدعاة للإستغراب، فالهند عرفت بوذا، وهو كان ابن ملك ومرشحاً لتولي العرش، كذلك مهافيرا وراما وكريشنا، أما كبير فقد عاش يتيماً فقيراً. لم يعرف معنى الترف... عمل حائك أقمشة حتى آخر يوم في حياته، لم يدخل مدرسة، و لم يُحط بالمعلمين والأساتذة، ورغم هذا، تمكن من بلوغ مرتبة أبناء الملوك. إنها حالة جد نادرة، في الهند خصيصاً، أن يتقرب فقير من الله، أن يترفع عن الرغبات التي، إن حققها، قد تجعله مميزاً أو تنقذه من فقره وعوزه.

إنه مسيح الشرق، وكلاهما كان أمياً، و لم يتعرف أي منهما على ترف الحياة. حتى المسيح عمل مع والده يوسف في النجارة، وكان أيضاً يتكلم، بذات أسلوب كبير. لم يكن المسيح يدعو إلى ديانة معينة، بل إلى عبادة الله، لم يحاول المسيح إثبات وجود الله، لئلا يغرق في متاهات النقاش والجدال، الله موجود ولا ضرورة لإثبات وجوده.

فيما مضى، كان صعباً على الفقراء الوصول إلى مرتبة الكهنوتية أو رجل الدين... لأن على رجل الدين أن يتمتع بدرجة عالية من الثقافة والذكاء والتفرغ، ومن أين للفقير أن يحاط بالأساتذة، وكيف يتفرغ لعمله كرجل دين، وهو فقير مجبر على العمل لكسب قوت عيشه. لذا، لا عجب، إن أبديت إعجابي بكبير والمسيح، أكثر بكثير مما أنا معجب ببوذا أو مهافيرا اللذين لم يعوزهما شيء.

سكن بوذا قصراً منيفاً محاطاً بالخدم، حتى طعام فطوره يأتيه إلى سريره. ولا ضرورة أن يتعب نفسه بالذهاب إلى غرفة الطعام، كذلك كان محاطاً بالصبايا الجميلات اللواتي هن على استعداد دائم لفعل كل ما يسعده، ويبعد الغم عنه... لقد خرج بوذا من عالم الملذات الدنيوية... لقد صدم بتحول الإنسان، فتحول إلى متنسك. تمكن بوذا من عيش الحياتين الدنيوية أولاً والدينية ثانياً. وهذا ما لم يتوفر منه شيء، إن للمسيح أو كبير.

وما هو مهم للإشارة إليه، أن كبيراً ما أمسك يوماً قلماً لكتابة أفكاره أو حتى خواطره، كل ما فعله، هو أنه كان يخاطب تلاميذه شفهياً، لم يكن يرغب في جعل وسيط بينه وبين تلاميذه. لذا أراد مخاطبتهم من القلب إلى القلب. كان موسيقياً وشاعراً، يعرف كيف يوصل أفكاره، من خلال كلمات تخرج من بين شفتيه مصحوبة بإيقاع موسيقي متناغم مع معانيها إنه احتفالي برؤية الجمال، جمال الأشجار، جمال

الزهور والورود، جمال قوس قزح، جمال صفاء الروح ونقاوتها...
إنه يدعوك للعودة إلى الطبيعة، ولماذا الزيف والكذب والتكاذب؟

الطبيعة هي الطريق إلى الله. وكذلك الأشجار والصخور والأنهار والجبال... لم يقصد كبير، معبداً أو كنيسة أو مسجداً، فالله موجود في كل مكان، فلماذا نسجنه في مكان معيّن ونقول إنه موجود في كل مكان؟ ولماذا تريد إضاعة نفسك وسط الجماهير؟ أمن أجل الوصول إلى الله؟ إنه في كل مكان. في كل زهرة جميلة، في كل شجرة خضراء في كل تغريدة عصفور. فلماذا تجعل من نفسك كقطرة الندى التي تسقط في مياه المحيط...

في إحدى قصائده قال: «لقد سقطت قطرة ندى في مياه المحيط».

آه يا صديقي، يا أقرب الناس إلي... رغبت في البحث عن ذاتي، لكن شيئاً غريباً حدث. بدلاً من أن أجد نفسي، تلاشيت واختفيت وسط الجموع، تماماً كما تلاشت واختفت قطرة الندى في مياه المحيط... لقد اختفت قطرة الندى، فهل من قادر على إيجادها؟

قبيل وفاته استدعى ابنه «كمال» وقال «قريباً جداً ستغادر روحي جسدي، ومطلوب منك، وقبل رحيلي، تصحيح إحدى قصائدي، وإحداث تغيير بسيط فيها».

سبق لي وقلت «إن قطرة ندى سقطت في مياه المحيط واختفت. فأرجوك أن تجعلها على الشكل التالي «لقد سقط المحيط في قطرة ندى وتلاشى واختفى» هذا ما أراه الآن، الآن وأنا في لحظة الرحيل». فما كان من ابنه كمال إلا وقال «كنت أدرك هذا، ولهذا غيرته قبل أن تطلب مني». إنه الصفاء الذهبي الذي جعله يطلب من ابنه ما طلب.

خلاصة القول، كان كبير يتمتع ببصيرة ثاقبة، فاستطاع من خلالها،

رؤية ما لا يُرى، وأن يلمس ما لا يُلمس... تذكروا دائماً أن المتنورين هم مجانين.

وقبل أن يموت قال: «ها أنا راحل، سأترك عباءتي طاهرة نقية ما مسّها جسد نجس... ارتديتها بعناية، واعتنيت بها... إنها ما أعطاني الله، ليزرع الدفء لا في جسدي وحسب، بل وفي حياتي... فانطلقي أيتها الأوزة البيضاء».

هذه آخر كلماته، كلمات الوداع، وداع الوعي للروح، وداع الروح للجسد... وما الأوزة إلا رمز للروح، للروح الطاهرة، النقية، الناصعة البيضاء...

كلمات قليلة، لكنها ذات دلالة كبيرة. قالها وودع تلاميذه الذين كانوا يتساءلون «ولماذا تغطي جسدك بهذه العباءة؟». فأجاب: «ستكتشفون ذلك فيما بعد». وبالفعل، وبعد إزاحة العباءة عن جسده، ما وجدوا جسداً، بل زهوراً جميلة فواحة العبير، لكنهم أغبياء، لم يدركوا معنى التزهر، بل تهافتوا على اقتسام الزهور.

الفهرس